دكتور
عبد الرشيد عبد العزيز سالم

مقدمات النهضة الأدبية وعواملها في مصر

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين،
القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعــة الأولى

المحرم سنة ١٤٠٢ هـ ــ أكتوبر سنة ١٩٨١ م

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة
دار التراث العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يمر تاريخ الأمم عبر تموجات تعلو وتهبط تبعا لظروف هذه الأمة أو تلك : السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــة والنفسية والتعليمية وغيرها من العوامل التى تشكل خطوط سير الأمم الى الأمـــام أو تقهقرهـــا الى الخلف • ووسط هذه العوامل بل وأبرزها على الاطلاق حركتها الثقافية والأدبية • لأنها وان كانت لا تمثل بناء ماديا أو اتساعا جغرافيا أو قيمة مالية الا أنها تمثل نبض الحياة وحركة عقول أبنائها وعمق مشاعرهم • لذلك يهتم علمـــاء تاريخ الأدب والأدب المقـــارن بدراســـة الظواهر الأدبية فى كل عصر ويستدلون منها على حياة الأمم أكثر من استدلال غيرهم بالظواهر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها من الظواهر • وقد رأينا عبر التاريخ الطويل للانسانية أمما أبيدت أو تغيرت أحوالها من قوة وعزة الى ضعف وقلة ، ولم يبق من آثارهـــا الدالة على عظمتها الا ما سطره أدباؤهـــا وعلماؤهـــا كأمـــة اليونان صانعة أرسطو وسقراط وأفلاطون وقد دفعنى ذلك الى محاولة تتبع الحركة الأدبية فى مصر وتعمق جذورهـــا عبر قرن ونصف تقريبا من قبيل الحملـــة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر حتى سنة ١٩٣٦ وكان جل همى أن أوضح نبض فؤاد مصر عبر أبنائها الذين عاشوا فى هذه الحقبة وحاولوا بما وهبوا من مشاعر فياضة وعبقرية ملهمة أن يمدوهـــا بغذاء دائم من الأفكار والمعانى يحفظ لها شخصيتها ويبقى على الزمن جمالها ورونقهـــا ، ويرفع عنها غشاوة الاحتلال والجهل والتخلف ، وينقلها الى مواكب الحضارة الحديثة والتقدم العلمى والأدبى والاجتماعى وكان البحث شاقا لأن زمنه متسع الأعماق متشعب المسالك والالمـــام بأطرافه عمل مضن يوحى لصاحبه بالاستحالة فى حالات كثيرة • ولكنى ثقة فى الله ويقينا بأن البحث العلمى جانب من جوانب العبادة خضت الطريق واثقا من قرائى ومعتمدا على حصافتهم وادراكهم لمبلغ المشقة

التى عانيت ، وأنهم سوف يلتمسون لى العذر فى التقصير ان وجد • ومتمنيـــا دعاءهم بظهر الغيب حتى أستطيع أن أكمل باقى أجزاء مقدمات النهضة الأدبيـــة (فى الشـــام) ثم (فى العـــراق) ثم (فى المغرب العربى) ثم (فى الخليج) • وبهذا أكون قد أديت للمكتبة العربيـــة والباحثين عملا يكاد يكون متدعما فى شكله ومضمونه فى المكتبة العربية •

وان كان البعض يتصور أن كتب تاريخ الأدب تناولت الكثير مما أوردته فى كتابى هذا فانى أبين أن ما جاء فى هذه الكتب وغيرهـــا ما هو الا عبارة عن اشارات الى أعلام حقبة أو سرد لأفكار زمن محدد • ولكن الشمول الذى تناولناه ألم بمعظم خيوط مقدمات النهضة الأدبية وعواملها فى مصر عبر قرن ونصف القرن تقريبا •

وقد حرصت على أن أجعل فصول الكتاب الخمسة متكاملة ليصل فى نهايتهـــا القارىء الى فهم واضح عن جذور الحركة الأدبية فى مصر ومقدمات نهضتها • فبينت أدوار الكفاح للانسان المصرى سياســـيا واقتصاديا واجتماعيـــا وأدبيـــا ، ثم أبرزت بواعث النهضة وعواملها وأشرت الى موقف الأدب من الثقافات الوافدة • وكان للعوامل المؤثرة فى الأدب جانب كبير من اهتمامى فى البحث • ثم بينت فى نهايتهـــا جوانب التقليد والتجديد عند أدباء وشعراء هذه الحقبة وأثر ذلك على فنون الأدب واتجاهاته وقيمه • ومن الله أرجو الثواب وحسن الجزاء ••

مصر الجديدة ـ النزهة
٢٦ شـــوال سنة ١٤٠١ هـ
٢٦ أغسطس سنة ١٩٨١م

دكتـــور
عبد الرشيد عبد العـــزيز سالم

تعـــريف

تعد النهضة الأدبيـــة وعواملهـــا الصورة الحقيقية لتكوين الأمم •
وقد بدأت هذا البحث بالنظر فى مقدمات النهضة الأدبية وعواملها فى مصر ، وسوف يتلوه ان شاء الله :

(٢) مقدمات النهضة الأدبيـــة وعواملها فى الشام •
(٣) مقدمات النهضة الأدبية وعواملها فى العراق •
(٤) مقدمات النهضة الأدبية وعواملها فى المغرب العربى •
(٥) مقدمات النهضة الأدبية وعواملها فى الخليج العربى •

والله الموفق • وهو المســتعان •

الفصل الأول

أدوار الكفاح

١ ــ الشعر والأدب قبيل الحملة الفرنسية :

يتفق المنصفون من العلماء والأدباء والمؤرخين واللغويين وفلاسفة الفنون المختلفة فى الاجتماع والسياسة وعلم النفس أن مصر كان لها دور كبير فى صيانة اللغة العربية وغيرها من العلوم والمعارف وكانت ذات أثر فعال فى المحافظة عليها والانطلاق بها الى غاياتها ، على الرغم من الظروف والمحن التى أصابتها وعدت عليها فى تموجات التاريخ العربى والاسلامى • فمصر فى وضعها الجغرافى والبشرى تمثل ــ قديما وحديثا ــ القلب فى جسم الأمة العربية ، وكذلك هى بالنسبة للغة العربية وآدابها ولكثير من العلوم والفنون • وقد ظلت تحمل الراية الثقافية والسياسية حتى جاء الاستعمار التركى سنة ١٥١٧ م ، فسلب منها أغلى كنوزها ، اذ جمع معظم ما بها من كتب ونقلها الى تركيا ، وساق العلماء والمفكرين ، والأدباء والحرفيين الى مختلف المدن التركية ليساعدوا على تقدم بلادهم ورقيها فى الوقت الذى كانت مصر فى أمس الحاجة اليهم ليأخذوا بيدها فى مساراتها ، وينطلقوا بها فى نهضتها لتواكب العصر الحضارى الجديد الذى كانت تباشيره قد بدأت فى الظهور فى أوروبا بعد نهاية الحروب الصليبية •

ويروى « ابن اياس »(١) : أن بعض السفن التى كانت تحمل هؤلاء الصفوة من المصريين الى تركيا قد غرقت ومات منهم عدد كبير ، فحزنت عليهم مصر وتركيا معا • ومع أن هذه الحادثة كانت من الآثار السيئة للاحتلال التركى ، تبعها الكثير من البلايا والمحن التى استشرت فى كل جوانب الحياة المصرية اذ أغلقت دور العلم ، وسلبت الأموال التى

---

(١) انظر (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) لابن اياس ص ٦٦ ــ ١١٢ وما بعدها •

كانت تنفق عليها ، وحلت اللغة التركية محل اللغـــة العربية لغة للدواوين والمكاتبات ، وأخذ الناس طائعين أو كارهين يخلطون بين العربية والتركية فى حديثهم ، وهذا بالاضافة الى أن الحكام أنفسهم لا يفهمون العربية ولا يهمهم بقاؤهـــا ، مما أضعفها ، حتى كادت تمثل اللسان الأخرس بين أهلهـــا وفى موطنهم •

ولغـــة كل أمـــة كالوليد ينمو ويزدهر بالرعاية والعناية والصقل ، لذلك فقدت اللغـــة العربية بالاحتلال التركى أمها وأباهـــا معا ، وحرمت من كل رعاية وعناية ، فانتشر اللحن بين الكتاب أنفســـهم ، وضعف الأسلوب عند الخاصة والعامة ، وماتت أو كادت ملكة الخيـــال والابداع عند الشعراء والأدباء والمفكرين ، وعز على الجميـــع اللفظ الجزل ، والأســـلوب القوى فلجأوا الى المحسنات البديعية والزخارف اللفظية يخفون وراءهـــا فكرا هزيلا ، وأسلوبا مريضا ، ولحنا فاحشا ، حتى استعجم الكلام وأصبح العامـــة والخاصة فى ميزان النقد الصحيح على ســـواء •

ولم تكن هناك بارقة أمل فى الخروج من هذه الهوة السحيقة التى تهدد بضياع لغـــة القرآن ، وتمزيق الأمـــة العربية ، وسحق تاريخها وحضارتها ، خاصة أن الاستعمار التركى بعد أن تمكن من مصر أخذ ينتشر فى كل ربوع الأمـــة العربية حتى تمكن منها جميعها ، ولم يكن صنيعه فى كل مكان حل به يخالف صنيعه فى مصر •

وعلى غير المقاييس المعهودة فى ألوان الاستعمار المختلفة ـــ من تذبذب بين الضعف والقوة ، والتأثير والتأثر ـــ ظل الاستعمار التركى يضرب جذوره فى كل أساليب الحياة العربية طوال ثلاثة قرون ، ويلونهـــا بألوانه التى اتسمت بالجهل ، والظلم والقسوة •

وكانت اللغـــة والأدب أكثر الضحايا مسخا وتشويها ، لأن ابداع العثمانيين فى ميدان الأدب كما يقول « كارل بروكلمان »(١) كان أقل وأضأل من ابداعهم فى حقل العلم نفســـه •

وقد احتفظوا حقبة طويلة من الزمان باللغـــة الفارسية ، حتى أن السلطان سليما الأول نفسه نظم ديوانا كبيرا بلغة الفرس ، وحاول

---

(١) انظر تاريخ الشـعوب الاسلامية لكارل بروكلمان ترجمـة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى (الطبعة الخامسة) سنة ١٩٦٨ ـ دار العلم للملايين ببيروت ص ٤٨٥ •

شعراؤهم فى لغتهم الخاصة أن يقلدوا فنون الشعر الفارسى(١) ، وكانوا يعدون الغزل تاج الفنون الشعرية قاطبة ، ولكن شعراءهم الغزليين سعوا الى المجد عن طريق واحد هو طريق التكرار والتوليد فى عالم ضيق محدود من المعانى والأحاسيس •

والواقع أن عددا من السلاطين شاركوا فى ذلك أيضا • وحتى القرن التاسع عشر كان زعيم هذا الفن الأكبر هو الشاعر « باقى » الذى توفى فى استانبول سنة ١٦٠٠ والذى حجبت ديباجته الموسيقية ضحالة احساسه الشعرى وسطحيته •

كذلك نزع الشعراء نزوعا شديدا الى تقليد المثنوى « لجلال الدين الرومى » و « جامى » و « نظامى » ذوى الاتجاه الصوفى الحديث « الرومانتيكى » حتى أبو اسحق الشاعر الفارسى الذى كان يمدح النهم ساخرا متهكما ، وجد بين العثمانيين من يقلده ويترسم خطاه •

فاذا كان هذا أدب الدولة الحاكمة الجديدة لمصر والعرب ، فليس غريبا أن يزداد الأدب العربى ضعفا وتخلفا ، خاصة أنه كان يعانى منهما فى عصر المماليك السابق على الفتح العثمانى مباشرة ، هذا بالاضافة الى جهل الحكام وتكالبهم على جمع المال وانفاقه على الشهوات وبث الفتن ، ومقاومة المنشقين طوال ثلاثة قرون ، الى أن تولى حكم مصر « محمد على » سنة ١٨٠٥ ، وانفصلت مصر سياسيا عن الامبراطورية العثمانية •

وكان فى ذلك أمل كبير فى أن ينهض الأدب العربى من كبوته • (ولكن الطبقة الحاكمة من أسرة محمد على وأتباعها كانت تعنى بالأدب التركى أكثر مما تعنى بالأدب العربى • وأخذت المطابع التى أنشأتها الحكومة فى القاهرة تطبع الأنظمة العسكرية باللغة التركية ، كما طبعت فوق ذلك سلسلة كاملة من آثار الأدب التركى الكلاسيكى (القديم) بدل أن تفكر فى اسباغ هذا الشرف على الأدب العربى)(٢) •

ولم يكن نظم الشعر فى ذلك العهد بأحسن حظا من أسلوب النثر ولغته وليس أدل على ذلك مما نظمه الشيخ عبد الله الشبراوى(٣) يرثى

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٨٦ . (٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٦١٤ •

(٣) الشيخ عبد الله الشبراوى من شيوخ الأزهر المعروفين توفى سنة ١١٧٢هـ •

انظر ترجمة الشبراوى فى الجبرتى ج ١ ص ٢٠٨ ، وكارل بروكلمان ج ٢ ص ٣٨١ •

أحمد الدلنجاوى المتوفى سنة ١١٢٣ هـ يقول :

سألت الشعر هل لك من صديق وقد سكن الدلنجاوى لحده
فصاح وخر مغشيا عليه وأصبح ساكنا فى القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر : أقصر فقد أرخت مات الشعر بعده

وهذا مثال آخر من نظمهم يتغزل فيه اسماعيل الخشاب(١) بقوله :

يا شقيق البدر نورا وسنا وأخا الغصن اذا ما انعطفا
بأبى منك جبينا مشرقا لو بدا للنيرين انكسفا
بغيتى منك رضاب ورضا وعلى الدنيا ومن فيها العفا

وهو — كما ترى — يصور تهافت المعنى ، وضحالة الفكرة ، وركاكة الأسلوب وكأن الشاعر فى نظمه ينحت من صخر لا روح فيه ولا حياة .

وأما النثر فلم يكن بأفصح من الشعر .. يقول الجبرتى(٢) — وهو من أعلام القرن الثامن عشر — متحدثا عن مواقف وأفعال بعض الأمراء المماليك مع أبناء الشعب المصرى :

« وسافر رضوان بك قرابة على بك الكبير الى المنوفية ، وأنزل بها كل بلية وعسف بالقرى عسفا عنيفا قبيحا يأخذ البلص والتساويف ، وطلب الكلف الخارجة عن المعقول الى أن وصل الى رشيد ، ثم رجع الى مولد السيد البدوى بطندتا (طنطا) ثم عاد وفى كل مرة من مروره يستأنف العسف والجور وكذلك قاسم بك بالشرقية وعلى بك الحسنى بالغربية » .

وفى هذا الأسلوب تصوير كامل لما وصل اليه أدب هذا العصر ولغته من التفكك والضعف وسيادة العامية ، وانهيار الفصحى لفظا ومعنى .

وفى رأيى أن هذا الضعف فى اللغة والأدب لا يتحمله الاستعمار

---

(١) كان الخشاب نادرة عصره فى المحاضرات والمذاكرات ، ونظم الشعر ، وعين كاتبا لحوادث الديوان فى عهد الحملة الفرنسية ، وكان صديقا للشيخ حسن العطار يتذاكران ويتناشدان الشعر فى مجالس لطيفة ولما توفى الخشاب سنة ١٨١٥م (١٢٣٠هـ) جمع العطار ما كان لصديقه من المنظوم فى كتاب ديوان الخشاب ، منه نسخة فى الخزانة التيمورية . انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢١٠ وتاريخ الجبرتى ج ٤ ص ٢٣٨ وشيخو ، ج ١ ص ٢٠ قصة الأدب فى العالم لأحمد امين ج ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) انظر الجبرتى ص ٨٢ ج ١ .

التركى وحده وانما يشترك معه العصر المملوكى فى ذلك بقدر كبير ، ذلك لأن الاحتلال العثمانى لم يكن فى الحقيقة سوى استبدال حاكم غير عربى من المماليك بحاكم آخر غير عربى من العثمانيين • وكان الشعب العربى أشبه بالمتفرج ازاء تبدل هذه الطبقات الحاكمة ، وفى أحسن الحالات كان يؤدى دورا ثانويا جدا فى الادارة والى حد ما فى الجيش . ولكنه لم يفقد هويته العربية الممثلة فى لغته وحضارته وتاريخه • وعلى الرغم من أن الحضارة العربية أصابها كثير من الركود فى هذه الحقبة تمكنت ــ بدافع من ماضيها المشرق وأصالتها الخالدة ــ من اعطاء الحاكم العثمانى الشىء الكثير مما أعوزه فى الحضارة والثقافة والحكم(١) •

* * *

٢ ــ بعد الحملة الفرنسية :

حين جاءت الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ م رأى المصريون لأول مرة مدافع نابليون تدوى فى الآفاق ، وترعد كالبروق ، على غير عهدهم بأدوات الحرب البدائية عند الأتراك ، كما رأوا وجوها غريبة ، وطبائع عجيبة تختلف عن الأتراك فى كل شىء •

وعلى الرغم من مقاومتهم العنيدة لهذا الاستعمار الجديد ، وقفوا يشهدون بكل حواسهم ومداركهم تلك المدنية الجديدة التى حملها اليهم « نابليون » خاصة أنه أنشأ مسرحا للتمثيل كانت تمثل فيه رواية فرنسية كل عشر ليال • كما أنشأ مدارس لأولاد الفرنسيين ، وجريدتين ومصانع ، ومراصد فلكية ، ودورا للنشاط الرياضى ، والنقش والتصوير ، وأسس مكتبة عامة بها الكثير من الكتب الفرنسية التى أحضرتها الحملة معها ، وبعض الكتب العربية التى جمعت من المساجد والأضرحة •

ولأن « نابليون » كان يريد اقامة امبراطورية له فى الشرق يمد سلطانه عن طريقها الى أوروبا والعالم أجمع • فقد عمل رجاله على تشجيع المصريين على القراءة والاطلاع وارتياد المكتبة التى أنشأوها • كما أنشأ المجمع العلمى المصرى على نظام المجمع العلمى الفرنسى فى أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وكان يهدف الى أن يصل من خلاله الى نشر المدنية الأوروبية بمصر • وكذلك القيام بالبحوث الطبيعية والصناعية والتاريخية

---

(١) انظر بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى الى حملة نابليون للدكتور عبد الكريم رافق ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ط دمشق سنة ١٩٦٨ طبعة ثانية .

ونشرها فى مجلة المجمع التى سوف تنشأ لهذا الغرض ، والتى ستساعد على وصول هذه البحوث الى أكبر مجموعة من المثقفين والمتعلمين ، هذا فوق حرصه على أن يكون لهذا المجمع دور ايجابى فى توضيح الأمور التى تستشيره فيها الحكومة سواء أكانت سياسية أم علمية .

وتألف المجمع من أربعة أقسام : قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعيات وقسم الاقتصاد السياسى ، وقسم الآداب والفنون ، ويتألف كل قسم من اثنى عشر عضوا .

وقد استفادت مصر من هذا المجمع ورجاله فوائد كثيرة ، وصارت بحوث أعضائه هى النواة الأولى لكل بحث خاص بمصر ، وبعد انحسار الحملة الفرنسية عن مصر ظل المجمع العلمى هو الأثر الباقى . وهذا ما دعا بعض المؤرخين الى القول بأن حملة نابليون على مصر كانت علمية أكثر منها حربية(١) .

وفى نظرى أن الأدب العربى فى مصر وغيرها من بلاد العرب طوال مدة الحكم العثمانى وأوائل حكم محمد على ظل حائرا بين الزلفى الى الأغنياء والكبراء فى المديح أو الترفع عن ذلك الى الأدب الدينى فى المدائح النبوية وغيرها . أما الأدب الدنيوى الذى يصور حياة الشعوب ويتعمق فى مشاكلها السياسية والاجتماعية ويفتح آفاقا جديدة فلم يكن سمة من سمات هذا العصر الا فى القليل النادر .

لهذا ظل الأدب راكدا فى شعره ونثره وسائر فنونه . ولم يستطع أن يمثل بؤس الشعوب ، وظلم الحكام ، أو ينفخ فى الأمة روح الثورة على الظالمين ، وكان أهم سبب فى هذا الضعف هو تخلخل الحياة الاجتماعية ، لأن الأدب مرتبط أشد الارتباط بالحياة . فاذا ساءت الحياة الاقتصادية والسياسية ، وأصبح الانسان ضائعا بين الفقر والظلم ، ضعف الأدب وانطمست أغراضه الانسانية ، وتحول الى متعة من متع الملوك والأمراء ، حتى اذا دبت الحياة فى الأمة ، وعاد اليها كيانها قومت العدل والحرية تقويما سليما ، وقاومت الظلم ، وطالبت بتوفير

---

(١) انظر الحملة الفرنسية ، وخروج الفرنسيين من مصر للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٨٥ ، ٩٢ ، ٥٩٠ ، ٦٧٠ ، ٦٨٢ ـ دار الفكر بالقاهرة بدون تاريخ ، وتاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ٩٧ وما بعدها مصر سنة ١٩١٩ .

الحياة الرفيهة وانتظمت مشاعرهـا فى الحب والكره ، والايجـاب والسلم ، وأدركت ادراكا سليما موقف الحاكم من المحكوم ، والمحكوم من الحاكم ، فاذا تحقق هذا نهض الأدب واستطاع تصوير الحياة تصويرا يشحذ الهمم ويطلق الآمال ويحقق الغايـات ، وهو بهذا يتجـدد فى موضوعاته وأساليبه ، وتتجدد معه حياة الأمة فتنطلق فى ميادين الانشاء والبناء ، وتسرع الخطو نحو غايات التكوين والتلوين •

ومصر قد توالى عليها من المظالم والمحن ما أفقد الشعب روحه ، وأضعف أدبه لغـة وأسلوبا خاصة فى عصر المماليـك والعثمانيين • وظلت قلادات من الزمن منكوبة بالغزو الاسـتعمارى فحرمت عـزة استقلالها ، وطمأنينة أهلها • وتمتعهم بالهدأة والراحة والسكون •

والاستقلال فى السياسة يولد الاستقلال فى الفكر ، والاستقلال فى الأدب ومنهما ينتج الابداع فى العـلوم والفنون والآداب ، وفقدان الاستقلال السياسى كفيل بضياع أنواع الاستقلال المختلفة علمية كانت أو فنية أو أدبية ، وسوف نعرض للمواقف الكثيرة التى تؤيد هذا الرأى أثناء تناولنا الحديث عن الشعر السياسى والحركات الوطنية من سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩٣٦ •

* * *

٣ ــ صور من صمود الشعب المصرى :

ولكن الحقيقة التاريخية التى لا يمكن انكارهـا أن الشعب المصرى كان يحاول دائما أن يتوازن مع نفسـه ، ومع العناصر الدخيلة التى توالت عليه من الحكام وأتباعهم من أصحاب الامتيازات ، وفى كل مرة كان يخرج من معاركه النفسية منتصرا على أعدائه ، ولو بالاحتفاظ بشخصيته المصرية ذات المقومات البارزة فى اللغـة ، والدين ، والسلوك وكانت ثوراته العنيدة والمتوالية فى العصر التركى والمملوكى دليلا على أنه شعب ذو أصالة تاريخية يهضم كل ما حوله من العوامل الخارجية ويحيلها الى شىء تقبله طبائعه ، وان كان فى بعض الحالات يمتد صبره الى آماد طويلة ، حتى تواتيه الفرصة فيلقى بثقله كله عليها ، ويأخذ منها ويعطيها بقدر ما فى هذه الفرصة من آمال وغايات ظل يترقبها جيلا بعد جيـل •

ويحدثنا عن ذلك الدكتور لويس عوض فيقول (١) : « والذين يصورون تاريخ مصر السياسى والاجتماعى فى العصر التركى والمملوكى على أنه كان عصر ضحول تام يسيئون فهم هذا العصر من تاريخ البلاد • ففى « خطط المقريزى » « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، والسلوك للمقريزى « السلوك لمعرفة دول الملوك » وفى « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لابن تغرى بردى و « الحوادث لابن تغرى بردى » وفى « صبح الأعشى للقلقشندى » و « زبدة كشف المماليك للظاهرى » وفى « التعريف للعمرى » وفى « ابن دقماق » الى جانب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس العظيم » و « عجائب الآثار » للجبرتى العظيم : ما يثبت أن ثورات المصريين سواء على الحكم الأجنبى أو على العلاقات الاقطاعية ، كانت لا تنقطع فى فترات عديدة من هذا العصر الكئيب • وكانت آخر هذه الثورات قبل مجىء بونابرت بسنوات قليلة ، وكانت ثورة عاتية انتهت بانفصال الصعيد الأعلى وتوزيع أرضه على الفلاحين ، وقيام حكم شبه جمهورى فيه على يد زعيم الهوارة شيخ العرب الأمير همام الكبير » •

وفى « تلخيص الابريز » لرفاعة الطهطاوى ما يوحى بأن مصر عرفت تجربة النظام الجمهورى قبل الثورة الفرنسية نفسها بسنوات قليلة ، فهو يصف حالة فرنسة عام ١٨٣٠ ابان ثورة لويس فيلب ملك الفرنسيين على شارل العاشر يقول (٢) : « اعلم أن هذه الطائفة « يقصد الفرنسيين » متفرقة فى الرأى فرقتين أصليتين وهما : الملكية ، والحرية ، والمراد بالملكية : أتباع الملك ، القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء ، والآخرون يميلون الى الحرية بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغى النظر الا فى القوانين فقط ، والملك انما هو منفذ للأحكام على طبق ما فى القوانين ، فكأنه عبارة عن آلة • ولا شك أن الرأيين متباينان ، فلذلك كان لا اتحاد بين أهل فرنسة لفقد الاتفاق فى الرأى ، والملكية • أكثرهم من القسيسين

---

(١) المؤثرات الاجنبية فى الأدب العربى الحديث (الفكر السياسى والاجتماعى للدكتور لويس عوض ص ٧ ، ٨ وما بعدهما ـ طبع دار المعرفة بالقاهرة الطبعة الأولى بدون تاريخ •

(٢) تخليص الابريز ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، طبع مصطفى فهمى الكتبى بجوار الأزهر سنة ١٩٠٥ •

وأتباعهم ، وأكثر الحربيين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية . فالفرقة الأولى تحاول اعانة الملك ، والأخـرى ضعفه واعانة الرعية . ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة الى ملك أصلا ، ولكن لمـا كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومةوجب أن توكل عنهـا من تختـاره منها للحكم ، وهذا هو مثل مصر فى زمن حكم الهمامية فكانت امارة الصعيد « جمهـورية التزامية » . وان دل هذا الكلام على شىء فانما يدل على أن رفاعـة الطهطاوى وهو من طهطا بالصعيد الأعلى قد نشـأ فى مركز هـذه التجربة الجمهورية التى هزت البلاد هزا عميقا فى زمانه(١) .

ولا شك أن ذاكرته ، وهو من مواليد سنة ١٨٠١ م كانت تعى الكثير عما جرى فى الصعيد أيام حكم الهمامية فى عهـد الأمير همام الكبير الذى استطاع أن ينفصـل بالصعيد عن الحكومة المركزية فى الفترة من سنة ١٧٦٥ م (١١٧٩ هـ) الى أن انهارت دولته على يد على بك الكبير سنة ١٧٦٩ م (١١٨٣ هـ) أى بعد أربع سنوات من استقلالها ذوويا .

ويحدثنا الجبرتى(٢) فيقول : « ان التحـدى والصدام الصريح بين الهمامية والحكومة المركزية بدأ فى سنة ١٧٣٦ م (١١٤٩ هـ) حتى استطاع همام الكبير الاستقلال بالصعيد ثم سقطت دولته بعد أربع سنوات من قيامها » .

وثورة الأمير همـام الصغير فى عهد محمد على حدثت أيام شباب رفاعة الطهطاوى لذلك يجب أن تؤخـذ أقواله على أنها تقرير شاهد عيان لدولة الهمامية عارف بحقائق أحوالها .

ويقول لويس عوض(٣) : « ان التركيب السياسى لجمهورية همـام كان يحمل أوجه شبه بحكم لويس فيليب — دوق أورليـان — ملك الفرنسيين الذى حل بالتأييد الشعبى محل حكم « شارل العاشر » ملك فرنسة ودربت البوربون ، وقد فصـل رفاعة الطهطاوى فى براعة مذهلة الفقه الدسـتورى الكامل فى فكرة « ملك الفرنسيين » وفكرة

---

(١) انظر رفاعة الطهطاوى لأحمد بدوى ص ٢٦ وما بعدها — مصر سنة ١٩٥٠م .

(٢) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى ج١ ص١٨١ وما بعدها طبع دار الفارس ببيروت سنة ١٩٧٠ .

(٣) المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ص ١٦ ، ١٧ وما بعدها .

«ملك فرنسة » ولعل هذا هو الجزء « الالتزامى » فى جمهورية همام أى قيام نوع من الملكية الشعبية المنتخبة ، وهو نظام مألوف فى تاريخ الثورات ، قريب من نظام التيرانوس أو « الطاغية » أو الملك المنتخب الذى عرفته اليونان القديمة ، وهو بمثابة رئيس جمهورية دائم يتمتع بسلطات واسعة مستمدة من القاعدة الشعبية بالبيعة أو الاستفتاء أو الانتخاب .

وقبل هذه الثورة الكبرى قامت عدة ثورات قادها الفلاحون والأعراب .

ففى « التعريف للعمرى » أن ثورة بدو مصر قامت فى ١٢٥٣م (٦٥١هـ) بزعامة الشريف حصن الدين ابن ثعلب الذى شنق فى عهد بيبرس الأول كما ورد فى « السلوك للمقريزى » وفى « صبح الأعشى »(١) وهى الثورة الوحيدة الشاملة التى اشترك فيها كل بدو مصر ، وقد أخمدت هذه الثورة بوحشية ، وكان هدفها اقامة سلطنة بدوية مستقلة عن السلطنة المملوكية فى مصر .

وفى ابن اياس أن ثورة زراعية كبرى قامت فى الصعيد عام ١٣٥٣م (٧٥٤ هـ) بقيادة ابن الأحدب شيخ قبيلة عرك ، وفى كلام ابن اياس عن هذه الثورة نجده يستعمل كلمة (العربان) وكلمة (الفلاحين) كأن مدلولهما واحد .

وقد دفعت ثورة الفلاحين التى قامت أثناء ثورة البدو السلطان صلاح الدين عند عودته الى مصر مظفرا بعد اخمادها الى أن يحظر على أى فلاح أن يركب الخيل أو يحمل السلاح ، ويفهم من هذا أنه لم تكد تنقضى مائة عام على ثورة الفلاحين والبدو من هوارة وبنى سليم لاستخلاص مصر من يد المماليك حتى قامت ثورة أخرى عظيمة الشأن اشترك فيها البدو والفلاحون لهذا الهدف نفسه .

وفى احدى ثورات الفلاحين نجد محاولة واضحة منهم لتجويع

---

(١) انظر صبح الأعشى فى صناعة الانشا للقلقشندى (أحمد بن على ابن أحمد القلقشندى) . (١٤ جـ) جـ ٨ ص ٩٩ ـ ١١٢ طبع القاهرة (تراثنا) دار الكتب الحديثة سنة ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ وانظر أيضا : القلقشندى فى اسر عنه لعبد المطلب حمزة (أعلام العرب) الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٦٣ .

العاصمة انتقاما من حملات التنكيل التى كان المماليك يقومون بها كما جاء فى « الحوادث » لابن تغرى بردى ، وقد حدثت أهم الثورات التى تم فيها الاستيلاء على القمح فى سنة ١٢٩٩ م (٦٩٩ هـ) ، فى مديرية البحيرة ، وفى ١٣٠١ م (٧٠١ هـ) و ١٣٥٢ م (٧٥٣ هـ) فى الصعيد وفى ١٣٨١ م (٧٨٣ هـ) و ١٤٠١ م (٨٠٤ هـ) و ١٤٦٧ م (٨٧٢ هـ) فى البحيرة ، وفى ١٤٩٦ م (٩٠٢ هـ) فى جميع أرجاء مصر وفى ١٤٩٨ م (٩٠٤ هـ) فى البحيرة والغربية . وفى ١٥٠٢ م (٩٠٨ هـ) فى الشرقية والغربية والصعيد ، وفى ١٥٠٦ م (٩١٢ هـ) و ١٥٠٧ م (٩١٣ هـ) فى الشرقية وفى ١٥١٢ م (٩١٨ هـ) فى البحيرة كما ذكر ابن اياس ، الى غير ذلك من الثورات الكثيرة التى ورد بعضها متفرقا عند الجبرتى وابن اياس والعمرى مما لا يتسع المجال لذكره فى هذه اللمحة التاريخية(١) .

ولكن الذى لا شك فيه أن بعض هذه الانفجارات القومية وهذه الحركات نحو انصاف الفلاحين ورفع الظلم عن طبقة العامة والبدو قد صاحبها نوع من ظهور الرأى العام السياسى والاجتماعى ، ولكن أيا كانت حالة هذا الرأى العام فهو دون شك كان فى حالة مضطربة لا تركز فيها ولا وضوح وهو بكل قطع لم يجد تعبيرا فى الأدب لسبب صغير هو أنه لم يكن هناك مظهر من مظاهر الكتابة يستحق أن يسمى أدبا .

ولكن الوقوف على تاريخ هذه الانفجارات الثورية فى مصر قبل الحملة الفرنسية والتعرف الى نظام الحكم المملوكى التركى ثم التركى المملوكى هو المقدمة اللازمة لفهم ما أصاب المجتمع المصرى الحديث ، والفكر المصرى الحديث من تطور خطير فى نظم الحكم ، وفى تطور العقائد السياسية والاجتماعية لأنه ما من شىء ينشأ فى فراغ تام ، والبذرة الكامنة فى تربة الخير هى أصل لكل نبات ان وجدت الرى والسقيا وضوء الشمس(٢) .

---

(١) انظر تاريخ الجبرتى جـ١ ص ١١٢ ـ ٢٠٧ ، جـ٢ ص ٣٣٦ ـ ٣٤٨ ، وصبح الأعشى للقلقشندى جـ ٩ ص ١٩٦ ـ ٢١٠ .

(٢) انظر المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث : لويس عوض جـ ٢ ص ١٢ الى ص ٤٦ . وكلمة (تطور) خطأ شائع مع انها ليست فى اللغة ، ولا اعتداد بأن المجمع اللغوى أجازها ـ لأن اللغة نقل ، واقرار هذه الكلمة وامثالها ليس من اختصاص المجمع .

وعلى الرغم من توالى الفتن والمحن الى مصر هذه المدة الطويلة من التاريخ ظهر بها بعض الأعلام الذين أمدهم الله بالعون ليحفظوا لغة كتابه من العقم ، وليصونوا دينه من الضياع ، وليضعوا علامة على الطريق تهتدى بها الأجيال عبر مسارات الزمن ، ولتكون هاديا لهم فى محاولاتهم الخروج من الظلمات الى النور .

أذكر منهم على سبيل المثال فى الشعر والأدب الشاب الظريف الذى ولد بمصر وتوفى بها غض الاهاب ناضر الجلباب سنة ٦٨٨هـ ، والبوصيرى صاحب البردة فى مدح الرسول . والذى ولد وتوفى بمصر سنة ٦٩٥هـ ، وابن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨هـ والقلقشندى المصرى جامع « صبح الأعشى » والمتوفى سنة ٨٢١هـ ، وعبد الله بن شرف الدين الشبراوى القاهرى الأزهرى المتوفى سنة ١١٧٢ هـ ، ويوسف الحفنى ، أبو المحاسن المصرى المتوفى سنة ١١٧٨ هـ ، وابن سلامة الادكاوى المصرى المتوفى سنة ١١٨٤هـ واسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٢٣٠هـ (١٨١٥م) .

وأما فى اللغة وعلومها فمنهم شهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩هـ صاحب « شفاء الغليل بما فى كلام العرب من الدخيل » ، و« طراز المجالس » ، و « ريحانة الألبا » ، و « زهرة الحياة الدنيا » وغيرها من الحواشى والشروح ، وأبو العرفان محمد بن على الصبان المتوفى سنة ١٢٠٦هـ صاحب « حاشية الصبان » المشهورة ، وهى حاشية على شرح الأشمونى على الألفية ، و « اسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى » ، وغيرها من المنظومات والشروح(١) .

وفى التاريخ نجد شهاب الدين أبا العباس أحمد بن محمد بن محمد ابن عبد السلام المتوفى سنة ٩٣١هـ ، وله « الفيض المديد فى أخبار النيل السديد » — فى مرسيلية — ، و « البدر الطالع من الضوء

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، تاريخ آداب اللغة العربية — جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ج ٤ ص ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، الجبرتى ج ٤ ص ٢٣٣ ، ٢٣٨ شيخو ج ١ ص ٢٠ ، ٣١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ — مشاهير الشرق لجورجى زيدان ج ٢ ص ٢٧٥ ، وبروكلمان ج ٢ ص ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ والخطط التوفيقية ج ٣ ص ٨٤ ، ج ١ ص ٧٥ .

اللامع » مختصر « الضـــوء اللامع » للسخاوى فى ـ فينة وباريس ـ وابن زنبل الرمال أحمد بن أبى الحسن على بن أحمـــد نور الدين المحلى الشـــافعى بن زنبل الرمال ـ المتوفى سنة ٩٦٠ هـ ، وله « فتح مصر » أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم ، وهو تاريخ الفتـــح العثمانى بمصر ، والوقائع والحروب مع الغورى وطومان باى ، ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية فى ٢١٨ صفحة ، وطبع بمصر على الحجر سنة ١٢٨٧ ، وعبارته ركيكة ومنه نســـخ فى فينة ، ولندن ، وباريس • وله أيضـــا « سيرة السلطان سليم خان والجراكسة » ، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية فى ٢٥٦ صفحة ، وغير ذلك مما يتحدث فيها عن السحر والنجامة ، وعجائب البحر •

ونور الدين المنهامى المتوفى سنة ٩٦٦هـ ، وله : « البدور السافرة فيمن ولى القاهرة » ، والاسحاقى ـ محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح ابن أحمد بن عبد المغنى على الاسحاقى ـ المتوفى سنة١٠٩٠ هـ صاحب « لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » ، وهو تاريخ مصر من فتحها العثمـــانى الى سلطنة مصطفى الأول سنة ١٠٣٢هـ، وطبع مرارا بمصر ، وفيه حكايات مخجلة لا مســـوغ لادخالها ســـوى انحطاط الآداب فى ذلك العصر ، وله أيضـــا « الروض الباسم فى أخبار من مضى من العوالم » ، وهو تاريخ الرسول والخلفـــاء الراشدين ، ومن بعدهم حتى سنة ١٠٣٢هـ ، ومنه نســـخة فى المتحف البريطـــانى وباريس ، وابن أبى السرور البكرى شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى المتوفى سنة ١٠٦٠هـ وله « التحفة البهية فى تملك آل عثمـــان الديار المصرية » و « الروضة الزاهية فى ولاة مصر والقاهرة » ، و « مختصر خطط المقريزى » المسمى « قطف الأزهار » وغير ذلك •

وفى العلوم الاسلامية نجد « عبد الرءوف المناوى » وهو عبد الرءوف زين الدين الحدادى المناوى المولود فى القاهرة سنة ٩٥٢ هـ والمتوفى سنة ١٠٣١هـ وله « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » ، وهو معجـــم يشـــتمل على ١٠٠٠٠ حديث و « الدر المنضود فى ذم البخل ومدح الجود » وغير ذلك من الكتب الصـــوفية ، والشروح والهوامش ، ونجيم المصرى زين العابدين المتوفى سنة ٩٧٠هـ صاحب كتاب « الأشباه والنظائر » فى الفقه الحنفى طبع فى مصر سنة ٢٩٨ هـ ، وأبو الأمداد

برهان الدين اللقانى من أساتذة الأزهر والمتوفى سنة ١٠٤١ هـ ، وله « جوهرة التوحيد » ، وهى أرجوزة فى علم الكلام وتوجد فى دار الكتب المصرية ، ونور الدين الأجهورى المتوفى سنة ١٠٦٦هـ ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية ، وله مؤلفات عدة فى دار الكتب المصرية ، وعبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ هـ وله « الدرر المنثورة فى بيان زبد العلوم المشهورة » ، وهى موسوعة فى علوم القرآن والفقه وأصوله ، والدين ، والنحو ، والبلاغة ، والتصوف ، و « الميزات الخضرية فى الجمع بين الأئمة الأربعة » ، طبع بمصر سنة ١٢٨٦هـ و « الميزات الكبرى الشعرانية » مدخل لجمع أقوال الأئمة المجتهدين ومقلديهم فى الشريعة المحمدية طبعت بمصر سنة ١٢٧٥ ، ١٣٠٢ فى جزءين ، و « مختصر مذكرة القرطبى » ، وطبع مرارا بمصر ، « دوافع الأنوار فى طبقات الأخيار » وتعرف بطبقات الشعرانى الكبرى ، وطبعت فى مصر مرارا فى مجلدين كبيرين ، و « الطبقات الوسطى » وغير ذلك من كتب الفقه والحديث(١) .

وأما فى الفلك فقد كان نتاجهم قليلا ، ويحاول فى معظمه تعيين أوقات الصلاة ، ومعرفة الطوالع والسعود والنحوس ، وممن اشتغلوا به فى مصر : بدر الدين سبط المارديني الموقت(٢) بالأزهر ، والمتوفى سنة ٩٣٤ هـ ، وعبد القادر المنوفى الموقت فى مدرسة الغورية والمتوفى سنة ٩٨٠هـ ، ومصطفى بن شمس الدين الشركسى الطاهرى الدمياطى المتوفى سنة ١٠٣٨ هـ ، ورضوان الرزاز الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ هـ ، وحسن ابن ابراهيم الزيلعى الجبرتى المتوفى سنة ١٠٨٨ هـ .

وأما علوم الطب والطبيعيات فقد أصيبت بالكساد ، واعترى الكثير منها الخرافات ، واشتغل بعض الأطباء بغير الطب ، وألفوا كتبا نذكر منها : « تحفة الراغب فى سيرة جماعة من أهل البيت الأطايب » للطبيب شهاب الدين ابن سلامة القليوبى المتوفى سنة ١٦٠٩م ، وقد طبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٠٧هـ ، وله أيضا : « حكايات غريبة وعجيبة » تعرف بـ « نوارد القليوبى » وقد طبع مرارا ، وقد لخص الى الانجليزية وطبع فى كلكتا سنة ١٨٥٦م وسنة ١٨٦٤م .

---

(١) انظر الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ١٠٩ .

(٢) الموقت (بالواو) ـ كالمؤقت ـ بالهمزة : الذى يعلن الأوقات .

وفى الحرب والصيد : « رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد » للشـــيخ محمد النجشى الخلوتى ، وفى الادارة والسياسة : « كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » — لمنصور الذهبى الكامل سنة ١١٣٦ هـ ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية(١) وغير ذلك مما ورد ذكره فى كتب التراجم والأعلام ، وليس له من القيمة ما يدفعنى الى تتبعه وعرضه فى هذه اللمحة التاريخية •

ولا أتصـــور أن الصواب قد جانبنى فى عرض هذه المواقف التاريخية والعلمية والأدبية فى العصرين المملوكى والتركى ، وذلك لأن المعروف والمتداول عنهما أنهما كانا عصرى انحطاط فى العـــلوم والفنون والآداب ، كما كانا عصرى ظلم وانحلال وتخلف فى السياسة والادارة والحكم ، فأردت أن أبين هنا أن المصريين على الرغم من صدق كل هذه الصفات على العصرين لم تمت قرائحهم ، وقيض الله من بينهم من حاولوا نفض الغبار عن رؤوسهم ، فاستطاعوا بالجهد والعنـــاء أن يكتبوا لنا شيئا يصـــور هذين العصرين تصويرا صادقا فى اللغة والأدب والدين والتاريخ والعلوم والفنون •

وليس لأحد فضل على هؤلاء العلماء والأدباء الذين أشرت اليهم لأن علمهم وأدبهم انما كان عن اجتهاد شخصى برز وسط مجاهيل من ظلمات الحكام والأحكام • وان دل هذا على شىء فانما يدل على أن دور مصر فى حفظ اللغة والأدب والتاريخ والدين والحضـــارة العربية دور رائد دائما فى كل العصور منذ فتحها عمرو بن العاص حتى عصرنا الذى نعيش فيه •

وكان لابد أيضـــا من ذكر هذه العجالة حتى أنتقـــل منها نقلة طبيعية الى القرن التاسع عشر حيث عصر محمد على والبعثات التعليمية ، وظهور الأفذاذ من العلمـــاء والمفكرين والشعراء والأدباء المصريين الذين تتابعوا فى هذا العصر وبعـــده حتى جاء القرن العشرون بكل ما فيه من تقدم وتنظيم علمى وأدبى وسياسى واجتماعى ، وقد أشرت فى أول هذا التمهيد الى الحملة الفرنسية على مصر وأثرها الفكرى فى مجريات الحياة المصرية حتى بعد ذهابها •

---

(١) راجع تاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان جـ ٣ ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

ولكى تكتمل الفائدة نقف وقفة المتأمل لعصر محمد على ومن تبعه من أسرته حتى الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ م الذى هو موضوع دراستنا •

* * *

٤ ــ الشعر والأدب فى عصر محمد على :

تولى محمد على ولاية مصر سنة ١٨٠٥م وآثار الحملة الفرنسية التى رحلت عن مصر سنة ١٨٠١م ما زالت باقية تحرك مشاعر المصريين وتستثير هممهم ، وتدعوهم الى الانطلاق لادراك ركب الحضـــارة الذى شاهدوا منه النزر اليسير ، ولكنه بالغ الأثر فى فكرهم وحياتهم على الرغم من قصر المدة التى التحمـــوا فيها مع الحملة الفرنسية بالجهـــاد ضدها تارة ، والالتقاء معها والتعلم منها تارة أخرى •

وقد أدرك محمد على منـــذ الوهلة الأولى أن حضارة الغرب أساسها العلم والتعلم ، وأنه لن يستطيع أن يقيم دولته التى يحلم بها دولة قوية ذات شأن وسلطان الا اذا قامت على دعائم العلم والمعرفة من أتباعه والمحيطين به أولا ومن المصريين ثانيا •

لذلك وجدناه بعد أن استقر له الأمر وقضى على المماليك فى مذبحته الشهيرة بالقلعة سنة ١٨١١م ــ يتجه نحو ارســـال البعوث الى أوربة سنة ١٨١٣م وفى سنة ١٨١٦م أراد أن يعد جيشا على النظام الأوربى فلقى من جنـــده الألبان مقاومة شديدة ، لأن ذلك النظام سوف يذهب بأهميتهم ويضعف نفوذهم ، فرأى أن ينفـــذ مشروعه بعيـــدا عنهم فانتخب مجموعة من مماليكه وأرسلهم الى الصعيد يتعلمون النظـــام العسكرى الحديث على أساتذة من الافرنج • واعتقـــد أن هؤلاء التلاميذ لا يلبثون أن يصيروا جنـــدا فتفرغ أماكنهم فى تلك المدرسة • فأنشـــأ فى قصر العينى سنة ١٨٢٥ م مدرسة اعدادية سماها المدرسة التجهيزية الحربية أدخل فيها نحو ٥٠٠ شاب بعضهم من صغار المماليك والبعض الآخر من أبناء الأتراك والأكراد والألبانيين والأرمن واليونان وغيرهم ممن كانوا فى خدمته ، وليس منهم وطنى واحد • فكانوا يعلمونهم القرآن الكريم والنحو وآدلب اللغة التركية والفارسية والعربية • وأما لغـــة التعليم فهى التركية ، ونظـــرا لأنهم ينوون ادخالهم المدرسة الحربية

كانوا يعلمونهم مبادىء الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الايطالية ، لأن اكثر أساتذة المدرسة الحربية كانوا يومئذ من الايطاليين • وكان قبل ذلك سنة ١٨١٦م قد أوفد جماعة من المماليك الى ليفورن وميلانة وفلورنسة ورومية لدراسة الحركات العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية ثم أرسل آخرين سنة ١٨١٨م الى انجلترة لدرس الميكانيكيات • وسلك الأبحر ، ونواميس السائلات ، ثم أنشأ المدرسة الحربية على النظام الفرنسى سنة ١٨٢٥م قرب أبى زعبل ، وجعل أساتذتها من الفرنسيين وسماها « مدرسة أركان حرب » • وفى سنة ١٨١٦م ذهبت أول بعثة علمية الى فرنسة ، وكانت مكونة من أربعة وأربعين طالبا عاد منهم بدون دراسة ثلاثة طلاب والباقون واحد وأربعون من بينهم ثمانية عشر مصريا على رأسهم رائد النهضة العظيم رفاعة رافع الطهطاوى • وكانت أغراض البعثة الحصول على أكبر قدر من المعارف الطبية والهندسية والزراعية والسياسية والطبيعية والكيميائية والترجمة والعلوم والبحرية وغيرها مما يساعد على النهضة العسكرية والسياسية • ثم توالت البعوث بعد ذلك الى أوربة ، وكل طلابها من الأزهر الشريف الذى كان له الفضل دائما فى حفظ اللغة والتاريخ والحضارة العربية والاسلامية ، وبلغ عدد الذين أرسلوا الى أوربة أفرادا وجماعات (بين سنة ١٨١٣ ، ١٨٤٩) تسعة عشر وثلاثمائة شخص ، كانوا دعامة الدولة الحديثة ، وأركان نهضتها ، وأعمدة تقدمها الفكرى والحضارى فى القرن التاسع عشر وما بعده •

وبعد عودة هؤلاء المبعوثين اتخذ محمد على من نوابغهم المعلمين والمترجمين لمدارسه ، وأطباء لجنده ، وموظفين لحكومته ، وعمالا فى ادارته ، وتعددت المدارس فى عهده ، وكانت تابعة فى أول أمرها للعسكرية ، ثم أنشأ لها ادارة خاصة سنة ١٨٣٦م سماها « ديوان المدارس » وهى التى سميت بعد ذلك « نظارة المعارف » وكان التلاميذ الوطنيون حتى هذا العهد قلة ، الى أن رأوا ما ناله المتعلمون من الجاه والمناصب فجعلوا يتكاثرون ويتسابقون فى ميدان المعرفة(١) وأخذ محمد

---

(١) انظر تاريخ التعليم فى عصر محمد على لأحمد عزت عبد الكريم ص ٩٣ ، ص ١٠٦ ــ ١٢٦ ، ص ٣٨٦ وما بعدها ــ القاهرة سنة ١٩٣٨ ، وتاريخ التعليم فى مصر لأمين سامى ص ٩٧ ــ ١٠١ •

على ينشىء المدارس الابتدائية والثانوية فى أنحاء القطر ، وأصبح التعليم كله باللغة العربية ، وفى سنة ١٨٣٩م أصبحت المدارس الكبرى فى القاهرة ١٦ مدرسة ، وبلغ عدد التلاميذ نحو ٩٠٠٠ تلميذ • كان هذا شأن التعليم فى عهد محمد على حتى توفى سنة ١٨٤٨ م(١) •

وحين انتقلت ولاية مصر الى ابنه ابراهيم ، توقع الناس تغييرا فى التعليم لأنه كان قد أعد اصلاحا مهما على أثر رحلته الى أوربة ، ولكن الأجل عاجله قبل مباشرة عمله ، وفى عهد خليفته عباس الأول وسعيد من سنة ١٨٤٩ حتى سنة ١٨٦٣ توقفت الحركة الفكرية وأغلقت أكثر المدارس ، وأصبحت الحياة العلمية والأدبية والفنية تشبه الى حد كبير ما كانت عليه فى القرن الثامن عشر ، فالشعر ما زال على ما كان عليه من حيث الخيال الضعيف ، واللغة الهزيلة ، والمعارف الضحلة ، والأغراض التافهة التى كانت تسود فى العصر العثمانى ، وتوقفت الحركة العلمية التى كان محمد على قد بدأها من أجل بناء جيشه ، وتحقيق أغراضه ، ولم يعد منها شىء فى عصر عباس الأول وسعيد • وأما الفنون فقد زادت ضعفا على ضعفها الذى كان موجودا طوال هذه المدة • ولولا وجود بعض الرواد المصريين الذين نهلوا من العلم حبا فى العلم ، والذين تعرفوا على نهضة أوربة أثناء وجودهم فى البعثات فى عصر محمد على ، وأرادوا نقل هذه النهضة الى مصر • لولا هؤلاء لكانت مصر ظلت واقفة مكانها تقترب من القرن العشرين وهى تحيا حياة القرن الثامن عشر •

وحتى تكتمل الصورة أمامنا يجب التعرف الى بعض هؤلاء الرواد ،

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات ص ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ـ الطبعة الخامسة والعشرون (دار النهضة مصر ـ الفجالة) تاريخ آداب اللغة العربية ـ جورجى زيدان ـ طبعة جديدة ـ مراجعة الدكتور شوقى ضيف . طبع دار الهلال ج ٤ ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ولمحة فى تاريخ الأزهر لعلى عبد الواحد وافى ـ القاهرة (١٩٣٦م) ، وتاريخ الجامع الأزهر لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٤٢م) ، وتاريخ الأزهر فى ألف عام لمحمد عبد المنعم خفاجى (القاهرة ١٩٥٥م) ، والتعليم فى مصر لأمين سامى ـ طبع مطبعة دار المعارف ١٩١٧م ـ تاريخ التعليم فى عهد محمد على لأحمد عبد الكريم طبع القاهرة سنة ١٩٣٨ ص ٩٣ ، ١٣٢ ، ٣٨٦ ، ٤٣٤ ، ٤٥٣ .

وعلى شيء من أعمالهم ، لأنهم هم عصب النهضة فى الشعر والأدب وغيرهما من العلوم والفنون • وهم الذين ساعدوا بفكرهم من جاء بعدهم على بعث الحياة الأدبية والفكرية فى ربوع مصر والعالم العربى •

وأعظم هؤلاء الرواد جميعا رفاعة رافع الطهطاوى المولود فى طهطا بالصعيد سنة ١٨٠١م والمتوفى سنة ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ)• وبآثار هذا الرجل يبدأ تاريخ الفكر السياسى والاجتماعى فى الأدب العربى الحديث(١) •

وهو بكتابيه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » الذى صدر فى سنة ١٨٣٤م و « مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » الذى صدر فى سنة ١٨٦٩ م وبعض ما نشره من فصول فى الفكر السياسى والاجتماعى فى « الوقائع المصرية »(٢) أيام كان رئيس تحريرها أصبح بعد ذلك أبا للفكر المصرى الحديث ، وذلك لأنه تصدى فيما كتب لتحليل مقومات الحضارة الأوربية ، وخاصة فى وجهها السياسى والاجتماعى ، وبشر بفلسفة سياسية واجتماعية فى مصر سواء من خلال الكلمة المكتوبة ، أو من خلال تعاليمه لتلاميذه العديدين فى مدرسة الألسن ، أو فى غيرها من الأجهزة الثقافية التى أشرف عليها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وفلسفته بوجه عام كانت تقوم على ثلاثة أركان « الحرية » و « القومية » و « الزمنية » أو ما يسمونه تقليديا بالعلمانية • كان هذا كما يقول لويس عوض(٣) فى مرحلته الأولى ، أما فى مرحلته الأخيرة بعد نضوجه ، فهو قد وضع الى جانب هذه

---

(١) انظر رفاعة الطهطاوى لأحمد أحمد بدوى ص ١٨ ــ ٣٠ وما بعدها • القاهرة سنة ١٩٥٠ ، ومجلة الثقافة (مقالات عنه) عدد ٢٣٠ ، ٢٣٥ •

(٢) « الوقائع المصرية » أول صحيفة عربية عامة انشأها محمد على سنة ١٨٢٨ وكانت تصدر أولا بالتركية ثم بالعربية والتركية ، وأخيرا صارت تصدر بالعربية بعد أن نظمت فى عهد اسماعيل وما زالت حتى الآن • يراجع فى ذلك تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان ج ٤ ص ٥٢ ، وتاريخ الصحافة العربية للنيكونت فيليب دى طرازى ج ١ ص ٤٩ وتاريخ الوقائع المصرية لابراهيم عبده طبع القاهرة سنة ١٩٤٢م •

(٣) انظر المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث للدكتور لويس عوض ج ٢ ص ١٧٥ ومابعدها •

الأسس جميعا أسس الراديكالية المصرية ، أو بعبارة أخـرى أن رفاعة الطهطاوى تطور فى أواخر حياته من الليبرالية المطلقة الى الراديكالية(١) .

ولم يقتصر فكر رفاعة الطهطاوى على ميدان واحد من ميادين الفكر ، وانما تشعب فى مجالات عدة ، شأنه شأن المفكرين الكبار فى أوائل عصر النهضة فى أوربة ، فقد كتب فى التاريخ والجغرافية واللغة والفقه والهندسة والطب والسياسة والاجتماع والقانون ، وله أيضـا منظومات شعرية كثيرة(٢) ، منها قوله فى باريس يعبر عن الحنين الى وطنه وأهله والاشادة بمفاخره ، قال فى مطلعها(٣) :

ناح الحمام على غصون البان فأباح شـيمة مغـرم ولهـان

ثم يقول :

ولئن حلفت بأن مصر لجنـة وقطوفهـا للفـائزين دوانى
والنيل كوثرها الشـهى شرابه لأبر كل البـر فى أيمـانى

وقال أيضـا فى الوطنية :

محبـة الأوطـان من شعب الايمـان
فى أفخـر الأديـان آيـة كل مؤمـن

---

(١) **الليبرالية** : تنـادى بأن رأس المـال هو أهم عنصر من عناصر « القيمة » فى الانتاج ويعد ريكادو امام الاقتصاد الليبرالى الكلاسيكى .

الراديكالية : وجاء برودون وسـتيوارت مل وشـارا على الاقتصـاد الليبرالى الكلاسيكى ودعوا الى أن « العمل » هو أساس القيمة الأول ، وبذلك نزعما الحركة الراديكالية التى كانت أول انشقاق خطير أحس به المجتمـع البرجوازى الأوربى .

(٢) يراجع فى رفاعة الطهطاوى تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ وتراجم مشاهير الشرق له أيضـا ج ٢ ص ١٩ ، رفاعة رافع الطهطاوى لجمال الدين الشيال (طبع القاهرة سنة ١٩٤٥) والخطط الجديدة لعلى مبارك ج ١٣ ص ٥٣ ، وعصر محمد على للرافعى ص ٤٧٠ ، وشعراء الوطنية له أيضـا من ص ٧ الى ص ١٢ ، وأدب المقالة الصحفية فى مصر لعبد اللطيف حمزة ج ١ ص ١٠٣ وشيخو ج ٢ ص ٨ .

(٣) انظر شعراء الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، والفنون الأدبية واعلامها (فى النهضة العربية الحديثة) لأنيس المقدسى من ص ١٠٨ ـ ١٣٧ طبع دار الكتاب العربى ببيروت سنة ١٩٦٣ م

وقال يصف الجيش المصرى ويشيد بمفاخره :

لنـا فى الجيش فرسـان لهم عند اللقـا شـان
وفى الهيجـاء عنـوان تهيـم بـه صـواهلنا
مدافعنا القضـا فيهـا وحكم الحتف فى فيهـا
وأهونهـا وحافيهـا تجـود بـه معاملنـا
لنـا فى المـدن تحصـين وتنظيـم وتحسـين
وتأييـد وتمكيـن منيعـات معاملنـا

ويقول عبد الرحمن الرافعى عن شعره : « انه متقدم نسبيا اذا قارناه(١) بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التى سبقته كالشبراوى والعطار والخشاب وغيرهم ، ويعد شعره مجاز الانتقال الى دولة الشعر الحديث التى حمل لواءها البارودى واسماعيل صبرى ، وشوقى وحافظ(٢) .

وهكذا نجد أن رفاعة رافع الطهطاوى خدم اللغة والأدب ، كما خدم الحياة السياسية والاجتماعية ، ومهد بفكره وعلمه لظهور مصر الحديثة على يد تلاميذه ومعتنقى فكره وآرائه . وكان معه فى عصره من الشعراء السيد على الدرويش المصرى المتوفى سنة ١٨٥٣م (١٢٧٠هـ)وكان من خيرة شعراء مصر فى أوائل القرن الماضى ، وكانت له منزلة رفيعة بين الأمراء والوجهاء(٣) . والشيخ شهاب الدين المصرى المتوفى سنة ١٨٥٧م (١٢٧٤هـ) ، والذى اشترك فى تحرير الوقائع المصرية ، وله مجموعة فى الأدب تسمى « سفينة الملك ، ونفيسة الفلك » وديوان شعر مرتب على حروف المعجم ، وطبع بمصر سنة ١٢٧٧ ، وقد تفقه فى الأزهر على الشيخين العروسى والعطار(٤) ، وابراهيم مرزوق

---

(١) كلمة قارناه : لا تؤدى المعنى المراد هنا ، والذى يؤديه هو كلمة « وازناه » غير أن كتاب العصر الحديث يخطئون فيها جميعا ، وشاع منهم وبينهم هذا الخطأ .

(٢) شعراء الوطنية ص ١٠ ـ ١٢ ، ١٥ مع تصرف .

(٣) انظر أعيان البيان للسندوبى ص ٤٦ وأعلام من الشرق والغرب لمحمد عبد الغنى حسن (طبع دار الفكر العربى بالقاهرة) ص ٥٦ ، وجورجى زيدان جـ ٤ ص ٢١٢ ، وشيخو جـ ١ ص ٨٤ .

(٤) أعيان البيان للسندوبى ص ٣٥ وتراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد تيمور ص ١٣٨ .

المصرى المتوفى سنة ١٨٦٦م (١٢٨٣هـ) وله ديوان شعر طبع بمصر سنة ١٢٧٨ هـ ، وهو مرتب حسب الموضوعات(١) .

ومن علمـاء اللغـة الشيخ حسن العطار الذى تولى مشـيخة الأزهر ، وكان محل تقدير واحترام من محمد على ، وله فى علوم اللغة انشـاء العطار الذى طبع بمصر كثيرا ، ومنظومة فى النحو شرحها تلميذه الشيخ حسن قويدر ، وحاشيته على شرح الأزهرية فى النحو ، وعلى السمرقندية فى البلاغة ، وغير ذلك مما كان له دور كبير فى حفظ اللغة والارتقاء بهـا فى هذه العصور ، وقد توفى سنة ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ)(٢) ، والشيخ حسن قويدر الخليلى تلميذ العطار وصديقه ، وقد ولد بمصر سنة ١٧٨٩ م (١٢٠٤ هـ) وتوفى سنة ١٧٢٢ م (١٢٦٢ هـ) وكان عالمـا بأسرار اللغة وآدابها . ومن آثاره « نيل الأرب فى نظم مثلثات العرب » وهو مطبوع بمصر سنة ١٣٠٢ هـ ، وشرح « منظومة العطار » فى النحو ، و « زهرة النبات فى الانشاء والمراسلات » وهو لم يطبع ، وهناك أمثلة من منظوم قويدر ومنثوره فى كتاب أعيان البيان للسندوبى(٣) .

وفى التاريخ عبد الرحمن الجبرتى المتوفى سنة ١٨٢٥ م (١٢٤٠ هـ) ومن أعظم آثاره كتابه المشهور « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » المعروف بتاريخ الجبرتى ، وقد طبع سنة ١٢٩٧ هـ فى أربعة مجلدات ، ويقال انه طبع طبعة قبل هذه صادرتها الحكومة لأن فيها طعنا فى أعمال محمـد على . ثم طبع بعد ذلك باللغة الفرنسية ، وأعيدت طباعته فى القاهرة سنة ١٨٨٨ ، وله أيضا « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » وقد طبع سنة ١٢١٧ هـ وترجم الى الفرنسية(٤) وكان هناك غير هؤلاء

---

(١) انظر شيخو جـ ١ ص ٨٧ وأعيان البيان للسندوبى ص ١٩١ .

(٢) انظر الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٤٨ وشيخو جـ ١ ص ٥١ ـ ٥٣ ، وتاريخ الجبرتى جـ ٤ ص ٢٣٣ .

(٣) انظر أعيان البيان للسندوبى ص ١٧ وما بعدها ، وتاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر لشيخو جـ ١ ص ٥٣ وتاريخ آداب اللغـة العربية لجورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٤) انظر الخطط الجديدة لعلى مبارك جـ ٨ ص ٧ وشيخو جـ ١ ص ٢١ وتاريخ الجبرتى جـ ١ ص ٣٨٦ ـ ٤٠٨ . وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ودائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة محمد ثابت الفندى ، وأحمد الشنتناوى ، وابراهيم زكى خورشيد ، وعبد الحميد يونس عن الأصلين الانجليزى والفرنسى ـ طبع القاهرة سنة ١٩٣٣ .

بعض الرجال الذين نبغوا فى الادارة والاقتصاد والقضاء وأثروا فى الحياة المصرية تأثيرا سوف يتضح لنا حين نتعرض للمدة المحصورة بين سنة ١٨٦٣ — وسنة ١٨٨٢ م حين وفد الاحتلال الانجليزى الى مصر ، وكذلك فى المدة التى تلت ذلك الزمن مع وجود الاحتلال حتى سنة ١٩٣٦ م ، تلك السنة التى رأينا أن تقف عندها دراستنا هذه .

* * *

٥ — الشعر والأدب فى عصر اسماعيل :

توقفت الحياة أو كادت فى مصر فى عصر عباس الأول وسعيد من سنة ١٨٤٩ م الى سنة ١٨٦٣ م وبعثت من جديد فى عصر اسماعيل الذى تولى حكم مصر سنة ١٨٦٣ م وليس بها الا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ، ومدرسة طبية وصيدلية . فاتجه أولا الى فتح ما أغلق من المدارس التى كانت موجودة فى عهد محمد على ، وأخذ ينشىء غيرها من المدارس التى كان يرى حاجة الدولة اليها . ووجدت مرة أخرى مدارس نشطة لدراسة العلوم والهندسة والطب والحرب ، وعاد الى ارسال البعوث الى أوربة ، وأصبح غرض التعليم غير محصور فى تخريج الموظفين بل يراد به أيضا ترقية نفوس الأمة واحياء آداب العرب ، ولهذا سهل سبل الاتصال بين العلماء المصريين وغيرهم من العلماء الأوروبيين الذين كانوا يفدون على مصر فى ذلك الوقت كما حدثت نهضة أدبية تمثل البعث فى روح الأدب العربى ولغته وأساليبه لم يكن من الممكن حدوثها لولا حب اسماعيل للأدب ورجاله ، وتقريبه لهم ، وتقربه اليهم — وسنرى ذلك واضحا فى الحديث عن أعلام هذا العصر(١) — كذلك أنشأ نظارة المعارف ، وعهد اليها بتنظيم المدارس على نمط جديد . وأنشئت مدرسة الادارة ثم صارت مدرسة الحقوق ، ومدرسة دار العلوم — المعروفة الآن بكلية دار العلوم — ومدرسة الصنائع والفنون فى بولاق ، ومدرسة المعلمين ، وبسط يده للمؤلفين ، ونشر ألوية المدنية والسكينة على ربوع البلاد وأنشأ المكتبة الخديوية ،

---

(١) انظر مصر فى عهد اسماعيل لعبد الرحمن الرافعى جـ ١ ص ١٠١ — ١٠٧ ، ١٢٣ ، ١٣٦ ط ثانية مطبعة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٦ ، جـ ٢ ص ١٧٨ — ٢١٢ ط أولى القاهرة سنة ١٩٣٢ وتاريخ التعليم فى عصر اسماعيل لأحمد عزت عبد الكريم ص ٩٨ — ١٢٠ وما بعدها القاهرة ١٩٤٥ .

وبدأ الأجانب ينزحون الى مصر للكسب والتجارة ، ومنهم العلماء والأدباء ، فكان اختلاط هؤلاء بالمصريين مع كثرة المطابع ووفرة المدارس ، وانتشار الصحافة ، واقتباس التمثيل ، وترجمة العلوم ، والأندية الأدبية ، والمجامع العلمية ، وتعلم اللغات الأجنبية ، ونقل الحضارة الأوروبية ، والحرية الشخصية ، كان كل أولئك سببا فى خصب القرائح ، وسعة المدارك ونهوض اللغة ، وتقدم الأدب ، وانتقاله من حالة الجمود الى حالة النشاط والحركة وتلونه بألوان لم تكن موجودة قبل ذلك ، وفى عهده أيضا عنيت الحكومة بانشاء الكتاتيب فى سائر أنحاء القطر ، فبلغ عددها بضعة آلاف ، وزاد عدد التلاميذ على مائة ألف من البنين والبنات(١) .

وظهر فى هذه المدة مجموعة من الرجال كان لهم أكبر الأثر فى الحركة الفكرية والعلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، وعلى يديهم بعث الشعر العربى من جديد بعثا نقله فى أغراضه وأساليبه الى ما يتلاءم وروح العصر الحديث ، وجعله بعد أن كان شعر مناسبات ومدائح وتملق شعرا يغوص فى أعماق المجتمع ، وينفعل مع قضايا الوطن مؤثرا فيها ومتأثرا بها ، يستثير الهمم ، ويحرك المشاعر ، ويفتح الآفاق ، ويبعث فى النفوس الأمل .

ومن هؤلاء الشعراء : على أبو النصر المنفلوطى المتوفى سنة ١٨٨٠ م (١٢٩٨ هـ) . وقد عاش زمن محمد على ، وعباس ، وسعيد ، واسماعيل ، وكانت له مكانة خاصة لدى الجميع وزاعت شهرته وأوفده محمد على الى الآستانة ، وسافر مع اسماعيل اليها أيضا ، وله ديوان مرتب على حروف المعجم ، طبع بمصر سنة ١٣٠٠ هـ ، وفيه منتخبات من أكثر أبواب الشعر(٢) . وكان يزامنه محمود صفوت الساعاتى ويتصل به ، وتوفى الساعاتى فى العام نفسه الذى توفى فيه على أبو النصر

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات ص ٤١٨ ، وتاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٥ ، ٢٦ ، وتاريخ التعليم فى مصر لعزت عبد الكريم الأجزاء الثلاثة .

(٢) انظر تاريخ آداب اللغة العربية ، جورجى زيدان جـ ٤ ص ٢١٧ ، شيخو جـ ٢ ص ١٥ ـ ١٧ .

١٨٨٠ م (١٢٩٨ هـ) وله ديوان طبع سنة ١٩١٢ م وهو مرتب حسب الموضوعات(١) ، و « عبد الله باشا فكرى » الذى يعد من نوابغ المصريين فى الأدب والشعر فى هذه الفترة ، والمتوفى سنة ١٨٨٩ م (١٣٠٧ هـ) بعد أن شارك فى الكثير من الوظائف حتى صار ناظرا للمعارف(٢) وانتدبته الحكومة سنة ١٨٨٨ م (١٣٠٦ هـ) لرئاسة الوفد المؤلف لحضور مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى استوكهلم ، وتوفى وهو يدون رحلته الى هذا المؤتمر ، فأتمها ابنه أمين فكرى ونشرهـــا سنة ١٨٩٢ م وفيها كثير من نظم المؤلف غير المقالات والخطب(٣) .

ومن أحسن شعراء القرن التاسع عشر الشيخ على الليثى ، وكان متمكنا من اللغة والأدب ، وتوفى سنة ١٨٩٦ م (١٣١٣ هـ) وكان يرافق الخديوى اسماعيل فى حله وترحاله ، والأدباء والشعراء من لداته وأهل عصره يطارحونه ويكاتبونه ، ولم ينشر شعره فى كتاب مما يعد خسارة كبيرة لأثر من آثار أعـــلام هذا العصر(٤) .

وقد عاش مع الليثى فى زمن واحد شاعر شـــاب وصحفى أديب وثائر خطيب ووطنى عظيم هو السيد « عبد الله النديم » الذى يعد من أعظم المحركين للثورة العرابية والداعين لها والمدافعين عنها ، وكان ملازما لعرابى زعيم الثورة فى معارك « كفر الدوار والتل الكبير » . وكانت مجلته « الطائف » تصدر فى معسكر الجيش المصرى . وظل مخلصا

---

(١) انظر تاريخ اللغة العربية ، جورجى زيدان ج ٤ ص ٢١٧ ، وشيخو ج ٢ ص ١٧ ـ ١٨ . وأعلام من الشرق والغرب لمحمد عبد الغنى حسن ص ٤٠ .

(٢) انظر عبد الله فكرى لمحمد عبد الغنى حسن ص ٤٧ ـ ٥٢ ، ٥٥ ، أعلام العرب رقم ٤٢ ، القاهرة سنة ١٩٦٥ .

(٣) انظر شيخو ج ٢ : ٩٥ ـ ٩٦ وجورجى زيدان ج ٤ ص ٢١٩ ، وشعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل المـاضى للعقـاد (طبع مطبعة حجازى) بالقاهرة ص ٧٧ ـ ٨٦ .

(٤) انظر شيخو ج ٢ ص ٩٨ ـ ٩٩ ، وتراجم أعيان القرن التاسع عشر وأوائل الرابع عشر لتيمور ص ١٤٠ وجورجى زيدان ج ٤ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ . وشعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل المـاضى للعقاد ص ٩٩ ـ ١١٠ .

للثورة فى محنتهـا بعد الهزيمة ، وعجزت قوات الاحتلال والحكومة عن العثور عليـه بعد نفى عرابى وزملائه لأنه اختفى وسط الشعب المصرى الأصيل الذى حماه وصانه ، ولم يش به أحد على الرغم من المكافآت السخية التى رصدت لمن يرشد عنه(١) ، وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثنـاء اختفائه فى قصيدة تفيض وطنية وايمانا وفخرا وشجاعة ، وهى من غرر قصائده ومنها(٢) :

أتحسـبنا اذا قلنـا : بلينـا ... بلينـا أو يروم القلب لينـا ؟
نعـم للمجـد نقتحم الدواهى ... فيحسـب خـامل أنا دهينـا
تناوشـنا فتقهرنـا خطـوب ... ترى ليث العـرين لهـا قرينا
سواء حربهـا والسـلم انـا ... أناس قبـل هدنتهـا هدينـا

وقد عرف مكانه سنة ١٨٩١ م ونفى خارج مصر ، وفى أوائل عهد عباس الثانى عفى عنه فعـاد الى مصر وأنشأ مجلة « الأستاذ » سنة ١٨٩٣ م التى تجلت فيها روحه الوطنية مما أغضب الانجليز وأتباعهم فأبعد عن مصر ثانية(٣) وتعطلت صحيفته سنة ١٨٩٣ م وودع قراءه وداعـا مؤثرا فى آخر عدد صدر منها ـ فى ١٣ يونية سنة ١٨٩٣ م ـ قال : « ما خلقت الرجال الا لمصابرة الأهوال ، ومصادمة النوائب ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخـه من العظمة والاجلال ، وان كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فانى أودع اخوانى قائلا :

أودعـكم والله يعلـم أننى ... أحب لقـاكم والخلـود اليكم
وما عن قلى كان الرحيـل وانما ... دواع تبدت فالسـلام عليكم

وتوفى بالآستانة ودفن بها سنة ١٨٩٦ م (١٣١٤ هـ) ـ وهى السنة التى توفى فيها الشيخ على الليثى ـ وقد شيعت جنازته فى احتفال

---

(١) عبد الله النديم للدكتور على الحديدى (أعلام العرب) ص ٢٧٩ ـ ٢٩٤ ـ القاهرة سنة ١٩٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨١ ـ ٢٨٤ .

(٣) انظر عبد الله النديم « خطيب الوطنية » للدكتور على الحـديدى ص ١٦٣ ، ١٩٨ ، ٢٤٣ ، ٢٦٠ ـ ٢٧٠ ، ٢٩٥ سنة ١٩٦٢ ، أعـلام العرب رقم ٩ .

مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء ، يتقدمهم السيد « جمال الدين الأفغانى »(١) .

وعلى الرغم من حياته القصيرة التى عاشها من سنة ١٨٤٥ الى سنة ١٨٩٦ فانه أدى للوطن خدمات جليلة ظلت آثارها فى نفوس أبناء الأمة تتابع حتى وقتنا هذا ، وبقى اسمه رمزا لكل حر ثائر يقدم روحه هينة رخيصة فداء للوطن ودفاعا عن حريته وشرفه .

ولقد بقيت كلمته الشريفة فى خطبه وعلى صفحات مجلاته وغيرها تفعل فعلها فى روح الأمة حتى أيقظتها وهيأت لغيره من الرجال من أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ليتبعوا خطاه وينهجوا نهجه ويضحوا تضحيته .

ولم يحرم هذا العصر من ظهور شاعرة أديبة نشأت وتربت فى بيت كله علم وأدب هى « عائشة التيمورية » شقيقة أحمد تيمور (باشا) صاحب الخزانة التيمورية ، وكان ميلادها سنة ١٨٤٠ م (١٢٥٦ هـ) ووفاتها سنة ١٩٠٢ م (١٣٢٠ هـ) وكانت تنظم الأزجال والموشحات والقصائد بالعربية والفارسية والتركية وتهتم بنشرها . ولها ديوان بالتركية « مشكوفة » طبع فى الآستانة ، وديوان بالعربية « حلية الطراز » طبع فى مصر مرارا وكتاب فى الأدب « نتائج الأحوال » طبع بمصر أيضا(٢) وكان يمكن أن نجد لها نتاجا أغزر من ذلك لولا أنها

---

(١) انظر شعراء الوطنية لعبد الرحمن الرافعى (طبع مكتبة النهضة المصرية طبعة أولى سنة ١٩٥٤ ـ ١٣٧٣هـ) ص ١٣ ـ ١٧ وتراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لتيمور ص ٣ وما بعدها ، وزعماء الاصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين (طبع لجنة التاليف والترجمة والنشر) ص ٢٠٤ ، وشعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للعقاد ص ٨٧ ، والثورة العرابية للرافعى ص ٥٣١ ، وشيخو ج ١ ص ٩٩ ، والجزء الثانى من سلسلة أدب المقالة الصحفية فى مصر لعبد اللطيف حمزة (طبع دار الفكر العربى) ص ١١٤ وما بعدها .

(٢) انظر شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للعقاد ص ١٤٩ ـ ١٥٤ ، وكتاب عنها (لمى زيادة) وزعيمات النهضة الحديثة (نشر معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية طبع القاهرة ١٩٥٤) ص ٣ وما بعدها ، وعصر اسماعيل للرافعى ج ١ ص ٢٧٣ ، ومعجم المطبوعات لسركيس ، عمود ٢٥٦ ـ ٢٥٨ ، وبلاغة النساء فى القرن العشرين لفتحية محمد ، وتاريخ الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين لشيخو ص ١٥ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢٢٤ .

امتحنت بموت والدهـا وزوجهـا ، ثم بموت ابنتها وكانت الصدمات عنيفة فخفت صوت شعرهـا ، ولكنها تعد من رائدات النسـاء فى الأدب والشعر فى القرنين التاسع عشر والعشرين(١) .

ويعد محمود سامى البارودى المولود سنة ١٨٤٠ م والمتوفى سنة ١٩٠٤ م (١٣٢٣ هـ) رائدا للشعر الحديث ، وعلما من أعلامه الكبار الذين كان لهم الفضـل فى نهضته ونشاطه وخروجه من عصور الانحطاط والركاكة والضعف الى عصر التقدم والارتقـاء فى الفكر والأسلوب والغرض ، ويعد البارودى بحق صاحب السيف والقلم ، فقد خاض المعارك الحربية وأبلى فيها بلاء حسنا . وقدم من ألوان البطولة ما وضعه فى المكان اللائق بالأبطـال بين زعماء الوطن ومفكريه . وكان أحد الضباط الذين شاركوا فى الحرب مع تركية ضد روسية سنة ١٨٧٧ ، وعين مديرا للشرقية . ثم محافظا للعاصمة . وفى سنة ١٨٧٩ م اختاره شريف باشا وزيرا للمعارف والأوقاف وحين قامت الثورة العرابية انضم لرجالهـا الأبطـال ، وكان من زعمائها المشـار اليهم بالبنان ، وتولى رياسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢ م وحين وقعت الهزيمة نفى مع زملائه الى « سرنديب » بجزيرة « سيلان » أو « سرنديب » وظل فى منفـاه حوالى سبعة عشر عاما ، ولم يكن هناك من مؤنس له فى وحدته وغربته غير القراءة والتزود بالمعرفة فجادت قريحته بالشعر المؤثر فى الحنين الى الوطن ، والحزن على فراقه مما يعد آية فى البلاغة ، وحين صدر العفو عنه فى أواخر القرن التاسع عشر كان قد كف بصره وكان لذلك أثر كبير على نفسـه فاعتزل السياسة ، وظل فى عزلته بعد عودته الى الوطن لا يلتقى الا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء والحافظين لعهده ، الى أن كانت وفاته سنة ١٩٠٤ م كما أشرت قبل ذلك .

---

(١) انظـر عائشة التيمورية : لى زيادة طبع دار الهلال سنة ١٩٥٦ بعناية الأستاذ طاهر الطناحى . وكانت مى قد نشرت مقالات عنهـا بالمقتطف خلال سنوات ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ثم جمعتها فى كتاب وأضافت عليها اضافات عديدة . وبعد وفاتها قامت دار الهلال بنشره . وانظر أيضـا باقات من حدائق « مى » لفاروق سعد من ص ٥٥٣ ـ ٥٥٩ منشورات زهير بعلبكى ببيروت ط أولى سنة ١٩٧٣ . ونسـاء خالدات لأنور محمد (الهيئة العامة للكتاب) القاهرة سنة ١٩٦٥ .

وهو وان كان قد حرم فى حياته من الأمان والاطمئنان والوفاء الا أن فكره وشاعريته قد خلداه ، وأورثاه بعد وفاته مجدا سيظل يتمناه الكثير من المفكرين والأدباء سواء فى العربية أو غيرهـا من لغات العالم .

ومن روائع شعره فى مقاومة الظلم والصمود أمام المحن والخطوب قـوله(١) :

اذا المرء لم يدفع يد الجور ان سطت
عليـه فلا يأسف اذا ضـاع مجـده
ومن ذل خـوف الموت كانت حيـاته
أضر عليـه من حمـام يـؤده
وأقتـل داء رؤيـة العين ظـالما
يسىء ويتـلى فى المحـافل حمـده
عـلام يعيش المرء فى الدهر خـاملا
أيفرح فى الدنيـا بيـوم يعـده ؟
عفـاء على الدنيـا اذا المرء لم يعش
بهـا بطـلا يحمى الحقيـقة شـده

ويقول داعيا الى الشورى وتقوية الجيش فى أوائل عهد توفيق(٢) :

أمران ما اجتمعا لقـائد أمـة الا جنى بهما ثمـار السـؤدد
(جمع) يكون الأمر فيما بينهم (شورى) وجند للعدو بمرصد

ومن روائع حكم الرجال قوله(٣) :

يا أيها السادر المزور من صلف مهـلا فانك بالأيـام منخدع
دع مايريب وخذ فيما خلقت له لعـل قلبك بالايمـان ينتـفع
ان الحيـاة لثوب سوف تخلعه وكل ثوب اذا ما رث ينخـلع

ونحن نلاحظ فى أسلوبه ومعانيه رونقا وجمالا ودقة وجلالا تجعله يختلف عمن كانوا يحيون عصره من الشعراء ، وعمن سبقوه فى العصرين العثمانى والمملوكى .

---

(١) ديوان البارودى جـ ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٣٩١هـ ١٩٧١م .
(٢) المصدر السابق ص ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٣) ديوان البارودى جـ ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

ولقد استطاع البارودى أن يصل عصره بعصور الشعر العربى المزدهرة ، وأن يدرب أنغامه ومواضيعه على تصوير الحاضر الذى تحياه أمته ، فكان باعث النهضـــة الحديثة فى الشعر العربى بطريقة لا اندفاع فيها مع الجديد فى تهور . ولا توقف مع القديم فى غير تحفظ ، بل هى توازن موازنة دقيقة بين القديم والجديد ، موازنة تقوم على الاحيـــاء لأصول شعرنا التقليدية دون أن تطغى هذه الأصول على حيـــاة الشاعر ومحيطه وبيئته ومشاعره ومشاعر قومه • وقد أعاد بذلك الى شعرنا العربى من الفصاحة والبلاغة والرونق والجمال ما طال العهد على فقدانه واختفائه منذ القرن الرابع للهجرة ، عصر الشعراء الممتازين الذين كانوا يفرضون أنفســـهم على العالم العربى فرضا • فأتاح ذلك لمصر أن تتبوأ مكانا مرموقا فى تاريخ الشعر العربى الحديث لم تظفر به فى أى عصر من عصورهـــا العربية •

وقد ظل الشعراء بعد البارودى يعيشون فى ظلاله ، ويرشفون من حياضه وينهلون من موارده حتى وصلوا بالشعر الى المنزلة الرفيعة التى تألق فيها بين فنون الأدب المختلفة •

وقد جمعت منتخباته الشعرية المنتقاة فى ديوان ضخم طبع بمصر فى أربعة أجزاء وكتب عنه الكثيرون من الأدباء والشعراء والمفكرين فلم يختلفوا فى أنه رائد الشعر العربى الحديث ، وزعيمه بلا منازع(١) •

---

(١) انظر فصول فى الشعر ونقده للدكتور شوقى ضيف (طبع دار المعارف) ١٩٧١ ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٥ ، وله ايضـــا الأدب العربى المعاصر فى مصر ص ١٧٣ ؛ والبارودى رائد الشعر الحديث وشعراء الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ص ١٨ ــ ٢٩ ، وله ايضـــا عصر اسماعيل والثورة العرابية وتراجم مشاهير الشرق ج ٢ (ط ٢) ص ٣٣٣ ؛ « والبارودى » كتـــاب عنه لمحمـــد صبرى (طبع مطبعة الشباب بالقاهرة) ١٩٢٣ وكتـــاب لعمر الدســـوقى (طبع دار المعارف ١٩٥٣) وشعراء مصر وبيئاتهم فى الجيـــل المـــاضى للعقاد ومعجم المطبوعات العربى لسركيس ص ٥١٥ ، والأعلام للزركلى سنة ١٠١٢ ومصادر الدراسة الأدبية لداغر ، ص ١٥٩ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، وتاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٤٩٢ ــ ٤٩٥ ، والشعر العربى المعاصر ، تطوره وأعلامه لأنور الجندى ص ١٩ ــ ٢٧ •

وبجانب هؤلاء الشعراء الرواد ظهر جماعة من أئمة اللغة ساعدوا على صيانتها وتمكنها من الوقوف فى وجه التيارات الجارفة التى كانت تهدف — عن قصد مرة وغير قصد أخرى — الى تدمير اللغة العربية ، وان تجعل للأمة لسانا غير لسانها العربى وأدبا وفكرا غير أدبها وفكرها العربى ، قاصدة من خلال ذلك كله الى هجر لغة القرآن ؛ كى تتمكن بعد ذلك من جعله تراثا يتبرك به بدلا من وجوده دستورا ولغة وعلما وأدبا وفنا وتاريخا وحضارة فى دنيا العرب والمسلمين .

وكان الحكم التركى والمملوكى يساعد على ذلك بسبب حكامه تارة ، أو استعجام اللغة العربية عليهم تارة أخرى ، مما هيأ للمبشرين وأعداء اللغة والدين أن ينفذوا الى جوانب الحياة الفكرية المصرية والعربية ، حتى كادوا يدمرون هذين الحصنين — اللغة والدين — لولا حفظ الله لهما أولا ، وتصدى هؤلاء الأعلام من رجال اللغة والشعر والأدب لهم ثانيا .

وأما أعلام اللغة فمنهم :

« الشيخ محمد الدسوقى » المتوفى سنة ١٨١٥ م (١٢٣٠ هـ) الذى تثقف على يد مجموعة من العلماء الأفاضل ، من بينهم حسن الجبرتى والد الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ .

وقد استطاع بالجهد والمثابرة أن يتمكن من العلوم اللغوية والاسلامية ، وبعض العلوم الرياضية كالهيئة والهندسة والتوقيت ، وله « حاشية الدسوقى » على مغنى اللبيب فى النحو ، وقد طبعت بمصر سنة ١٢٨٦ هـ فى مجلدين ، وحاشيته على « المختصر » لسعد الدين التفتازانى فى البلاغة ، وقد طبعت بمصر سنة ١٢٧١ هـ فى مجلدين(١) .

وقد سبقت الاشارة الى مجموعة أخرى من علماء اللغة الذين سبقوا الدسوقى أو لحقوه حتى كان عصر اسماعيل(٢) فوجدنا رائدا ومعلما فى اللغة والشعر والأدب هو الشيخ — حفنى ناصف — المولود فى ١٦ من سبتمبر سنة ١٨٥٥ م (١٢٧٢ هـ) ، والمتوفى فى ٢٥ من فبراير سنة ١٩١٩ م . وهو الذى نقل الكتابة العربية من الطريقة البديعية

---

(١) انظر تاريخ الجبرتى جـ ٤ ص ٢٣١ وجورجي زيدان جـ ٤ ص ٢٣١ .
(٢) انظر ص ٢٢ ـ ٢٨ من البحث .

المسجوعة الكثيرة التورية الى طريقة الترسل الحالية ؛ وعمل على تنقية اللغة العربية من الألفاظ العامية والدخيلة ، وسعى لوضع مصطلحات صحيحة للعلوم التى كانت تدرس بالانجليزية ، وتقرر تدريسها بالعربية(١) واشترك فى الثـورة العرابية خطيبا وداعيـة ، واعتقل شـهرا فى ثكنة عسكرية وانتخب مع حمزة فتح الله وعبد الله فكرى ومحمود رشاد ممثلين لمصر فى مؤتمر المستشرقين فى فينا ، وأجرى بحوثا متعددة عن اللهجات العربيـة ، ومعرفـة ما يمتاز به كل منها وقد أجرى دراسة للهجـات المصرية العاميـة ، واشترك أيضـا فى مؤتمر المستشرقين فى أثينا وقدم رسالتين عن مارية القبطية وهاجر ، كما اشترك فى ترجمة القوانين وصياغتها ، وفى مدرسـة الحقوق كان معلما للانشاء القضائى ، وقد تعلم على يديـه مصطفى كامل ، وعبد الهادى الجندى ، وأحمد شوقى ، ولطفى السيد ، وزكى أبو السعود ، وعبد الخالق ثروت ، واسماعيل صدقى ، وعزيز خانكى ، وطلعت حرب ، وعبد العزيز فهمى ، وأحمد زكى شيخ العروبة ، وطه حسين وجميعهم من أعـلام الفكر والسياسة والقانون والأدب فى القرن العشرين .

وكلفته وزارة المعارف بوضع الكتب الأولى فى القواعد والنحو والصرف والبلاغـة وتولى مناصب متعددة منها : وظيفة النائب العمومى ، والقضـاء الأهلى عشرين عاما ، واشترك فى انشـاء الجامعة سـنة ١٩٠٨ م وانتخب رئيسا لهـا لدى تكوينها وكان من أوائل أساتذتها كما اشترك فى تأسيس المجمع اللغوى الأول ونادى دار العلوم ، وأعاد كتابة مصحف عثمان ، وغير ذلك من المحاضرات والندوات التى ساعدت على بناء جيل كان له دور كبير فى بعث الأدب واللغـة والشعر وارتقائه الى ما هو عليـه الآن . ومن المعروف أن شوقيا وحافظا كانا يعرضان عليه شعرهما قبل نشره ، ومن شعره قوله(٢) :

المرء بالفكر لا باللحية الطولى والفخر بالفضل لا بالرتبة الأولى
وبالخلائق تمتاز الخـلائق لا بشـارة تجعل المعلوم مجهولا

---

(١) انظر مقدمة ديوان حفنى ناصف لطه حسين : الشـعر العربى المعاصر تطوره وأعلامه لأنور الجندى ص ٥١ ـ ٥٥ ، وشعراء مصر وبناتهم للعقاد ص ٢٢ .

(٢) انظر شعر حفنى ناصف : جمع مجد الدين حفنى ناصف وتقديم طه حسين ص ١١٣ ـ القاهرة دار المعارف بدون تاريخ .

وقال يخاطب أحد الرؤساء(١) :

أحييت آمـــالى وكنت أمتهـــا   من طول ما لاقيت من اخوانى
أدلى باخلاص لهم وأذود عن   أعراضهم بجوارحى ولســـانى
ومحضتهم ودى فلمـــا أيسروا   كانت بدايـــة أمرهم نســـيانى

ومن مؤلفاته كتاب « مميزات لغـــة العرب » الذى قدمه الى مؤتمر المستشرقين فى فينا سنة ١٨٨٦ و « حياة اللغة العربية » وهو مجموع محاضراته التى ألقاها فى الجامعة المصرية ، وكتاب « القطار السريع فى علم البديع » ورسالة فى البحث والمناظرة ، وأخرى فى المنطق ، وكتابا « الأمثال العاميـــة » ، و « بديع اللغـــة العاميـــة » وأكثر كتبه غير مطبوع(٢) •

* * *

٦ ـ جيـــل التحدى والصمود :

ونستطيع الآن أن نقول فى ثقة واطمئنان : ان الأمة المصرية لم تكن عقيما فى وقت من الأوقات ، بل كانت تلد رجالا ينفضون عنها غبار الزمن كلما حاول أعداؤهـــا دفنها تحت هذا الغبار •

وكثيرا ما كان يأتيها المخاض فى وقت غير ملائم ، فيواجه وليدهـــا بعواصف مدمرة ، وأعاصير قاتلة ، ولكنه يقاومها فى صبر واصرار حتى ينتصر ويبقى حيا بين الأحيـــاء •

لهذا كان تقدمهـــا الأدبى والفكرى وئيدا منذ القرن الخامس عشر حتى أوائل القرن العشرين • حيث وجدت عوامل مساعدة على التقدم والانطلاق ، وأخرى تحاول أن تعود بمصر الى الوراء أو أن تهوى بها الى القاع •

ولقد كنت حريصا على ابراز بعض الشخصيات التى كان لها أثر كبير فى الحياة الأدبية والفكرية فى مصر أقول بعضها : لأن هناك الكثير من الرجـــال من طويت صفحاتهم قبل أن تكتمل أو من ضيعتهم الأحداث فلم تبق لهم أثرا •

ومن رجـــال الصحافة الأوائل ابراهيم المويلحى الذى يعد من عظماء أئمة الانشـــاء الصحفى فى القرن التاسع عشر ، وقد اشترك فى تأسيس

---

(١) شعر حفنى ناصف ص ٢٣٣ .

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٤٥٥ ـ ٤٥٧ ، وشعراء مصر وبيئاتهم للعقاد ص ٢٢ والشـــعر العربى المعاصر لأنور الجندى ص ٥١ ـ ٥٥ •

جمعية المعارف لنشر الكتب الهامة ، وأنشأ مطبعة لطبع الكتب سنة ١٢٨٥ هـ وأصدر جريدة « نزهة الأفكار » التى لم يظهر منها الا عددان ، وآخر جرائده « مصباح الشرق » وكانت أسبوعية ذات أسلوب عصرى قلده فيه الكثيرون(١) ، وقد توفى سنة ١٩٠٦ م (١٣٢٣ هـ) .

ومن أعلام الصحافة والأدب الشيخ على يوسف الذى يعد بحق مؤسس الصحافة الاسلامية العصرية ، وقد أنشأ مجلة « الآداب » سنة ١٨٨٥ م بالاشتراك مع الشيخ أحمد ماضى ، وحين ظهرت المقطم سنة ١٨٨٩ م — وكانت ميالة الى الاحتلال — أصدر هو ومعه الوطنيون الأحرار جريدة « المؤيد » لتكون لسان الأحرار ومتنفسا للوطنيين يردون فيها على المقطم ، ويعرضون قضاياهم ، وقضايا المسلمين فى كل مكان وظلت على عهدها حتى وافته منيته سنة ١٩١٣ م (١٣٣١ هـ) ونال صاحبها المنزلة الرفيعة ، وتولى مشيخة السجادة الوفائية(٢) .

ومن المؤرخين الأعلام على — باشا — مبارك المتوفى سنة ١٨٩٣ م (١٣١١ هـ) وله — فوق فضله فى تنظيم المدارس ودار الكتب — كتاب « الخطط التوفيقية » التى تعد من أهم الكتب التاريخية والجغرافية عن مصر والتى أكمل بها ما بدأه المقريزى ، وقد طبع بمصر سنة ١٣٠٦ هـ فى عشرين جزءا ، وله أيضا « علم الدين » وهو رواية دينية عمرانية فى عدة مجلدات طبعت بمصر ، و « خلاصة تاريخ العرب » وهو ترجمة كتاب « سديو » فى تاريخ العرب وآدابهم وقد طبع بمصر سنة ١٣٠٩ هـ(٣) .

---

(١) انظر جورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ومشاهير الشرق جـ ٢ ، (ط ٢) ص ١١٣ .

(٢) انظر الفصول للعقاد ص ٢٠٧ — ٢١٣ ومرآة العصر فى تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر لاليس زخورا صر ٥٣٧ والأعلام للزركلى صر ٦٥٨ والجزء الرابع من أدب المقالة الصحفية فى مصر لعبد اللطيف حمزة وهو خاص بترجمته ودراسته . النظرات للمنفلوطى جـ ٣ ص ٤٦ والجزء الأول من المختار لعبد العزيز البشرى ص ٢٤٦ ، وجورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٥٢ ، ومصادر الدراسة الأدبية لداغر ص ٧٦٨ وما بعدها .

(٣) انظر ترجمته لنفسه فى الخطط التوفيقية جـ ٩ ص ٣٩ وما بعدها ، وزعماء الاصلاح لأحمد أمين ص ١٨٩ وما بعدها ، والجزء الأول من عصر اسماعيل للرافعى ص ٢١٩ — ٢٥٥ وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

وأمين فكرى المتوفى سنة ١٨٩٩ م (١٣١٧ هـ) وله « جغرافية مصر والسودان » ألفها فى عصر اسماعيل ، وهى أطول جغرافية فى بابها طبعت سنة ١٢٩٦ هـ ، وله أيضا « ارشاد الألبا الى محاسن أوربا »(١) يعرض فيه رحلته الى أوربا سنة ١٨٩٢ م و « الآثار الفكرية » جمع فيه مآثر أبيه — عبد الله باشا فكرى — ومنظوماته ، وقد طبع بمصر أيضا(٢) .

وبجانب هؤلاء الشعراء والأدباء والمؤرخين والعلماء ورجال الصحافة الذين أشرت اليهم والى أدوارهم فى بعث النهضة الحديثة فى مصر ، هناك الثوار والمصلحون الدينيون والاجتماعيون الذين أقاموا صرح الحياة الوطنية ، وساعدوا على تنظيم أمور الدين والدنيا فى مصر العزيزة ، وبقيت آثارهم حتى الآن تشد من أزر مصر وتنير لها الطريق الى المستقبل على أسس ثابتة ودعائم راسخة من الايمان والحرية والحضارة والفكر .

ومن أعلام الثوار وأعظمهم أحمد عرابى المولود فى ٣١ من مارس سنة ١٨٤١ م فى قرية « هريد رزق » من قرى مديرية الشرقية(٣) . والذى تعلم فى الأزهر مدة خمس سنوات فقط من سنة ١٨٤٩م حتى سنة ١٨٥٤م ثم التحق بالجيش فى ٦ من ديسمبر سنة ١٨٥٤م جنديا عاديا وذلك تنفيذا لما قرره سعيد باشا من تجنيد أولاد العمد والمشايخ ، ولاجادته القراءة والحساب ، عين كاتبا بدرجة « أمين بلوك » بالأورطة الرابعة من « آلاى » — كتيبة — المشاة الأولى ، وفى سنة ١٨٥٨م رقى الى رتبة الضباط ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ثم رتبة « يوزباشى » سنة ١٨٥٩م و « صاغ » فى السنة نفسها ، ثم رتبة « بكباشى » سنة ١٨٦٠م ، وفى سبتمبر من السنة نفسها رقى الى « قائم مقام » ، وكانت هذه الترقيات المتوالية نتيجة لما أراده سعيد باشا من ترقية الجند واغراء غيرهم على الانخراط فى سلك الجندية ، وكان عرابى محل عناية

---

(١) هكذا كتبت « أوربا » بالألف ، وهو خطأ شائع ذائع حتى الآن ، والصواب أوربة .

(٢) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٦٤ وتراجم مشاهير الشرق ، له أيضا جـ ٢ ص ٢١٦ ، وشيخو جـ ٢ ص ٩٦ .

(٣) يطلقون عليها الآن فى محافظة الشرقية « هريدة رزين » .

من سعيد . فلما تولى اسماعيل أهمل الضباط الوطنيين واعتنى بالشراكسة مما أغضب عرابيا وزملائه ، وجعلهم يبدأون فى تأليف جماعات وطنية من الضباط المصريين . ويمكن احتساب أن سنة ١٨٧٥م كانت بدء دعوة عرابى الوطنية ، وكان ذلك فى عهد الخديوى اسماعيل وفى يونية سنة ١٨٧٩م أصدر الخديوى توفيق أمرا بترقية عرابى الى رتبة « أميرآلاى » وجعله ضمن « ياورانه » ، وعينه أميرآلاى لآلآلى المشاة الرابع الذى كان مركزه بالقاهرة ، ويعرف « بآلاى » العباسية ، وظل يشغل هذا المنصب حتى قام بالثورة سنة ١٨٨١ م (١) ، وان كانت الثورة قد بدأت بعرابى وزملائه من الضباط الذين تذمروا من سوء معاملة رؤسائهم لهم ، وخاصة عثمان رفقى باشا وزير الحربية فانها لا تعد ثورة عسكرية فحسب بل هى أيضا ثورة قومية ، اشتركت فيها طبقات الأمة ، واذا أردنا أن نستقصى أسبابها وجدناها على نوعين : أسباب خاصة أو مباشرة ، وهى المرتبطة بطبقة الضباط والجند وموقفهم من الحكومة وموقف الحكومة منهم ، وأسباب عامة ، وهى التى تتصل بحالة الشعب والعوامل التى دفعته الى مناصرة الثورة وتأييدها .

ولقد كان من الممكن لهذه الثورة أن تنجح وأن تدفع مصر الى العصر الحديث بكل أبعاده الفكرية والعلمية والحضارية لولا صراع الدول الكبرى فى ذلك الوقت — خاصة انجلترة التى حرصت على فرض نفوذها على أكبر قدر من ربوع الأرض — وظهور بعض الخونة الذين مكنوا الجيش الانجليزى من احكام قبضته على جيش عرابى وعلى المصريين عامة .

وقد كان تتابع هذه الزمرة الخائنة والمنتفعة والخائفة والمرتعشة — على مسرح الوطنية المصرية قرابة خمسة وسبعين عاما هى مدة احتلال القوات الانجليزية لمصر من سنة ١٨٨٢م الى سنة ١٩٥٤م — هو الذى مكن الانجليز من البقاء فى مصر طوال هذه المدة ، وأعطاهم

---

(١) انظر (عرابى الزعيم الثائر) وهو كتاب عنه لعبد الرحمن الرافعى من كتب الهلال طبع دار الهلال بمصر سنة ١٩٥٢م ، وله أيضا (الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى) مطبعة النهضة ط أولى سنة ١٩٣٧ م

من الامكانات ما ساعدهم على التغلب على الثورات والحركات الوطنية التى لم تخمد مرة الا لتنتفض أخرى ، والتى كان يصحبها دائما انطلاق فكرى وأدبى وشعرى يساندها ويبقى بعدها يحرك مشاعر الأمة ، ويبث فيها الأمل والحياة .

وقد ظل صدى ثورة عرابى يملأ أسماع الدنيا حتى وقتنا هذا فيما كتبه عبد الله النديم ، والبارودى ، وغيرهما من الأدباء والشعراء ، ولئن كانت الأحداث الكثيرة المتلاحقة قد غطت على كثير من أحداث وموقف ثورة عرابى ، ان شيئا لم يستطع أن يطفىء من جذوة كلمات النديم والبارودى وتلامذتهما الذين حملوا مشعل الحركات الأدبية والوطنية فى القرن العشرين .

وقد رأينا من نهض سريعا ليحمل اللواء بعد سقوطه من يد عرابى ويدافع عنه حتى الموت ، وهو ذلك الزعيم مصطفى كامل الذى ولد سنة ١٨٧٤م وتوفى سنة ١٩٠٨م بعد أن جاهد جهادا مريرا أنهك قواه وطوى عمره ، وهو فى ريعان الشباب وقد خلف من المؤلفات مقالاته فى اللواء وغيره ، وجمع أهمها فى كتاب يسمى « تاريخ مصطفى كامل » وله كتاب « المسألة الشرقية » وكتاب « الشمس المشرقة على اليابان » وفوق هذا كله كتاب « الوطنية الخالدة » الذى غرسه فى قلوب المصريين بمداد قلبه وروحه ، والذى ظل أثره يتتابع بين الأجيال المصرية حتى وقتنا هذا(١) .

ومع هذا المصلح الوطنى الثائر كان يوجد مصلح اجتماعى ثائر

---

(١) انظر ما كتبه عنه أخوه على فهمى كامل فى كتابه مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا (طبع القاهرة ١٩٠٨ ـ ١٩١١) فى ثلاث مجلدات ، ومصطفى كامل باشا لعبد الرحمن الرافعى (القاهرة ١٩٣٩) ومصطفى كامل لفتحى رضوان ، وزعيم النهضة مصطفى كامل لمحمد ثابت البندارى والجزء الخامس من أدب المقالة الصحفية فى مصر لعبد اللطيف حمزة وهو خاص به ، وتراجم مصرية وغربية لمحمد حسين هيكل ، وأبطال الوطنية لمحيى الدين رضا ، وأبطال الحرية لمحمد فتحى عمر وأعلام الصحافة العربية لابراهيم عبده ص ١٣٨ ، ومذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق ، الجزء الثانى ، ومعجم المطبوعات لسركيس عمود ١٧٥٤ ، ومصادر الدراسة الأدبية لداغر ص ٦٤٩ ، وما به من مراجع ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢٨٢ .

أيضا هو الأستاذ الامام محمد عبده ، الذى نبع من ريف مصر الأصيل وحيث ولد بقرية « محلة نصر » من اقليم البحيرة سنة ١٢٦٦هـ — كما ذكر الأستاذ أحمد حسن الزيات — أو سنة ١٢٥٨هـ — كما ذكر الأستاذ جورجى زيدان — •

وقد نشأ نشأة الأوساط من القرويين ، فحفظ القرآن الكريم فى كتاب القرية وأرسل فى طلب العلم الى الجامع الأحمدى بطنطا فالأزهر الشريف ، ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤هـ ، وعمل مدرسا للأدب والتاريخ بدار العلوم ومدرسة الألسن ، وأسندت اليه بعد ذلك رياسة تحرير « الوقائع الرسمية » واصلاح اللغة العربية ، وحين قامت ثورة عرابى أسهم فيها بالعلم والعمل ، وأفتى بخلع الخديوى توفيق فلما أخمدت الثورة ، واحتل الانجليز مصر حكم عليه بالنفى ، فقصد سورية ولبث فيها ست سنين شرح فى أثنائها كتابى « نهج البلاغة » و « مقامات البديع » ثم غادرها الى باريس حيث كان أستاذه جمال الدين الأفغانى هناك • فأنشآ معا جريدة « العروة الوثقى » ونشرا بها دعوة الدين والعلم والأدب والاصلاح • وأجاد هو اللغة الفرنسية واطلع على علوم الغرب ، ثم عاد الى مصر بعد أن عفا عنه الخديوى وعين مستشارا فى محكمة الاستئناف ، وعنى مع ذلك بتدريس البيان وتفسير القرآن بالأزهر • فكان درسه مجمعا لرجال القانون والأدب والصحافة والتعليم ، وتولى منصب الافتاء فظل فيه حتى توفاه الله فى الاسكندرية ودفن بالقاهرة وكان ذلك سنة (١٣٢٣هـ) ١٩٠٥م على اتفاق بين مؤرخى الأدب بعد أن ترك أثرا خالدا فى اللغة العربية وأساليب الكتابة الصحفية والأدبية ، وساعد على احياء الكتب العربية القديمة ، وسن فى الأزهر تدريس الأدب ، وأفتى فى الدين بما أبطل البدع وأظهر الحقائق وأنار الطريق ، وعمل على التوفيق بين العلم والدين فأخذ يفسر القرآن بلسان العلم والعقل ، وكتب رسالته فى التوحيد ، فقرب العقائد من الأفهام ، وحسر عنها ظلال الابهام وقاوم موجة المبشرين ، واستطاع أن ينتصر للدين بالأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة التى لم يستطع شك المتشككين أن ينال منها ، وكتاب « الاسلام والنصرانية » ورده على هانوتو الفرنسى من تلك الأسلحة التى أجهزت على تلك الشبه المبتدعة التى حاول هانوتو وغيره من المبشرين أن يدمروا بها الاسلام أو أن يثيروا الشك فى أحكامه ومبادئه •

ولهذا يمكننا القول بأن الامام محمد عبده يعد من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين الذين اصطفاهم الله لنصرة حقه فى وقت عز فيه النصير ، وجعله داعية لمبادىء دينه ، دافعا للفساد والمفسدين • وبجانب ذلك كان وطنيا ثائرا هاج النفوس الحرة وبعث الآمال السارة ، وخطط طرائق المستقبل لأمة مسلمة ترتفع أقدارها بالايمان والعلم(١) •

وبجانب ذلك الثائر الوطنى ، وهذا المصلح الاجتماعى — مصطفى كامل ومحمد عبده — ظهر رجل ثالث تقمص الدعوة لتحرير المرأة ، ولكن بطريقة حطمت المثل العليا والقيم الخلقية المعروفة — فيما بعد — ونزلت بالمرأة المسلمة الى حضيض التقليد الأعمى للأوربيات ، دون وعى أو تعقل أو تروية ، ذلك هو قاسم أمين المتوفى سنة ١٩٠٨ م (١٣٢٦ هـ) (٢) والذى اندفع فى تهور الى المناداة بالغاء الحجاب

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٤٤٣ — ٤٤٨ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٨٠ — ٢٨١ ، وتاريخ الأستاذ الامام لرشيد رضا (مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٩٣١) ، ومحمد عبده لعثمان أمين (القاهرة سنة ١٩٤٤) وكذلك رائد الفكر المصرى له أيضا (طبع القاهرة سنة ١٩٥٥) ومحمد عبده لمصطفى عبد الرازق (القاهرة سنة ١٩٤٦) ومحمد عبده لعبد المنعم حمادة (القاهرة سنة ١٩٤٥) والشيخ محمد عبده لعبد الجواد سليمان (القاهرة سنة ١٩٥١) والشيخ محمد عبده لمحمد صبيح (القاهرة سنة ١٩٤٤) وزعماء الاصلاح لأحمد أمين ص ٢٨٥ وأدب المقالة الصحفية فى مصر جـ ٢ ص ٦٢ — ١١٣ ، وكنز الجوهر فى تاريخ الأزهر لسليمان أحمد ص ١٦٥ وتاريخ الصحافة جـ ٢ ص ٢٨٧ ، ورواد النهضة الحديثة لمارون عبود ص ١٩٥ ؛ ومعجم المطبوعات لسركيس عمود ١٦٧٧ والأدب العربى المعاصر فى مصر لشوقى ضيف (طبع دار المعارف) ص ١٩٠ .

ملاحظة : ومع كل هذه الاطراءات المشيدة بالشيخ محمد عبده وجهاده واجتهاده حمل عليه الشيخ يوسف النبهانى فى شعره حملة شعواء ، رماه فيها بالمروق من الاسلام ، وبأنه كان ماسونيا ، وخارجا عن نهج أئمة المسلمين •

(٢) انظر تاريخ حياة قاسم أمين لفرج سليمان فؤاد ، دار المعارف القاهرة بدون تاريخ •

واباحة الاختلاط بين الرجال والنساء . وقد استطاع أن يجهر بدعوته تلك — فى أجواء محافظة — وبمساعدة قوى خفية غير اسلامية فكان من آثارها انتشار السفور واباحية خروج المرأة واختلاطها بالأجانب فى غير تورع ولا احتشام ، واستغلت دعوته أسوأ استغلال ، واستعملها ضعاف النفوس فى الدعوة الى التحلل باسم التحرر ، فانطلقت المرأة — دون قيد — مؤثرة ومتأثرة فى مسارات الحياة الاجتماعية والثقافية بمصر والعالم الاسلامى(١) .

وقد كتب فى ذلك كتابين « تحرير المرأة » الذى طبع بمصر سنة ١٨٩٩م و « المرأة الجديدة » طبع سنة ١٩٠٠م ، وأثار ظهور الكتابين صحة شديدة فى ذلك الوقت ، وظلا موضع صراع بين المتدينين وغير المتدينين فى الصحف طوال نصف قرن تقريبا ، وقد استند فى كتابيه لدعم دعوته — فيما يزعم — الى الأدلة القرآنية والتاريخ والحديث النبوى ، وان كان قد جانبه الصواب وانحرف انحرافا بينا فى تفسيره لكثير من الآيات القرآنية والنصوص التاريخية والفقهية ، والأدلة العقلية ، ولكنه على الرغم من ذلك وجد الأنصار والمعاونين والمعاونات وعدوه محرر المرأة ، وصاحب الفضل الكبير على النهضة الاجتماعية والتعليمية بالنسبة للمرأة خاصة . وكانت معارضة قاسم أمين أكثرها مقالات صحفية ، وليس فيها من الكتب الا كتاب « تربية المرأة والحجاب » لمحمد طلعت حرب الذى اقترن اسمه من بعد بشئون الاقتصاد والمال .

وان دل هذا على شىء فانما يدل على أن الغالبية العظمى من الأدباء والمفكرين — وأكثرهم محرومون من الثقافة الدينية ومنساقون وراء التقليد الأعمى للأوربيين — كانت تؤيد هذه الدعوة برأى أو بآخر ، وأن بعض الأقلام المتحللة كانت تريد أن تطرق هذا الميدان ، ولكنها كانت خائفة وجلة ، وتقدم هو الى الميدان واقتحمه بلا خوف ولا فزع ، وهذا شأن المندفعين الذين يتعرضون للقضايا الكبرى — دون عقل أو تفكير — ويتحملون مسئولياتها الشديدة دون مبالاة أمام الله والناس والتاريخ .

---

(١) انظر كلمات لقاسم امين ص ٢٣ — ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٨ — ٤٢ ، ٤٨ — ٦٠ مطبعة الجريدة بمصر سنة ١٩٣٨ .

ومن الانصاف له أن نقـــرر انه بعد أن شهد الثمرات المرة لدعوته ندم أشـــد الندم ، ولمـــا توفى قالت زوجته : لو كان قاسم يعـــلم أن دعوته لتحرير المرأة ستؤدى الى تحللهـــا لدفنهـــا فى صدره ومنعهـــا الوجود .

ولقد كنت أريد أن أعرض موجـــزا لبعض آرائه فى كتابيه اللذين أشرت اليهما ، ولكن المجال هنا ليس فيه متسع لهذا الاستطراد(١) .

ومن أعلام القرن التاسع عشر أيضـــا الذين كان لهم أدوار متعددة فى الأدب والشعر والسياسة والوطنية « اسماعيل صبرى » المولود فى ١٦ من فبراير سنة ١٨٥٤م والمتوفى فى ٢١ من مارس سنة ١٩٢٣م بعد أن عاش سبعين عاما حافلة بالفكر والجهاد والوطنية وقد آثرت أن يكون الحديث عنه هو ومصطفى لطفى المنفلوطى فى خاتمة هؤلاء الرواد لأنهما كانا آخـــر من رحل عن الدنيا ، وأبعد أثرا فى حياة شعراء وأدباء القرن العشرين ، كما كانا أوفى غاية فى تطويع اللغة وتيسيرها لأسلوب العصر الحديث .

وقد اتبع أسلوبهما الجزل الرقيق معظم الأدباء والشعراء فى النصف الأول من القرن الحـــالى ، وتتلمـــذ على يديهمـــا الكثير من الأدباء والشـــعراء الذين أثروا فى النهضـــة الحالية وجعلوا من اللغة العربية وآدابها لغة حديثة ، وأدبا عالميا .

واسماعيل صبرى كان شاعرا رقيقـــا مجيدا ، عميق الوجدان مقلا فى شعره ، محتاطا فى نشر ما تجـــود به قريحته ، ولذلك خلف أشـــعارا قليلة . وقد أحب الشعر فى مطلع حياته وقرأ القديم منه وأنعم النظر

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر لمحمد محمد حسين (ط دار الارشاد ببيروت ١٩٧٠) جـ ١ ص ٢٩٣ ـ ٣١١ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٨١ ، وتراجم مشاهير الشرق له أيضـــا جـ ١ ص ٢٣٥ ، وقاسم أمين لأحمد خاكى (طبع دار احيـــاء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٤٤) وتاريخ حياة قاسم أمين لفرج سليمان فؤاد (طبع القاهرة) وفى أوقات الفراغ لمحمد حسين هيكل ص ٩٦ ـ ١٤٨ وبين الكتب والناس لعباس العقـــاد ، ورواد النهضـــة الحديثة لمـــارون عبود ص ٢٠٧ ، ومصادر الدراسة الأدبية لداغر ص ١٣٨ .

فيه . وأحب البحترى بالذات ، وأتيح له أن يقرأ فى الأدب الفرنسى عندما أرسل فى بعثة لدراسة الحقوق فى جامعة « اكس » بفرنسة ، ومن مزاج شعر البحترى وغيره من الأشعار القديمة ، والشعر الفرنسى تكونت طاقته الشعرية . وكان لداته من الأدباء يلقبونه بشيخ الشعراء ، واعترف له بذلك زملاؤه شوقى وحافظ ومطران وعبد المطلب ونسيم وغيرهم ، وانك لتلمح تقدير شوقى لزعامته من قوله فى رثائه(١) :

أيام أمرح فى غبارك ناشئا ... نهج المهار على غبار خصاف
أتعلم الغايات كيف ترام فى ... مضمار فضل أو مجال قوافى

ومن قول حافظ فى رثائه أيضا(٢) :

لقد كنت أغشاه فى داره ... وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع ... لطيف يحس نبو الوتر

وتتجلى فى شعره القومى روح الحب الخالص للوطن ، والشجو الحزين على مآسيه ، والاستمساك بالعزة والكرامة ، والشمم والاباء ، ولقد عبر بأرق القصائد عن شعور مواطنيه وترجم عن آمالهم وآلامهم(٣) ، ووصف النقاد شعره بأنه « لطيف لا تعمل فيه ، ولكنه كذلك لا قوة فيه ولا حرارة » . وأن أدبه « أدب الذوق ولم يكن أدب النزعات والخوالج ، وأدب السكون ولم يكن أدب الحركة والنهوض »(٤) .

ويرى الدكتور محمد صبرى أن شخصية اسماعيل صبرى المضيعة تتجلى فى خمس أو ست قصائد قصيرة ، ضرب فيها على وترين : وتر الحكمة ووتر الوجدان ، وأنه كان ينزع الى قول الحكمة ، ولكنه لم يوفق فيها كما وفق فى شعره الغنائى الذى امتاز به على جميع معاصريه بلا مراء(٥) . ويقول عنه أيضا : « انه كان يحب النور والجمال ، وكان

---

(١) الشوقيات ج ٣ ص ١٠٨ .
(٢) ديوان حافظ ج ٢ ص ١٦١ .
(٣) شعراء الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ص ٣٠ ـ ٣١ .
(٤) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٣٤ .
(٥) كتاب (أدب وتاريخ) لمحمد صبرى ص ١٢٩ ، وكلمة « معاصر » لم ترد فى اللغة ، وهى خطأ شائع .

يحب من أجلهما الحيـــاة ، ويقف منها موقف المتعبـــد ، وكان كثيـــرا ما يذكر الموت ويخشـــاه لا جبنا به ولا خوفا بل حبا فى الحيـــاة والنور والجمال »(١) •

وقد أجمع النقاد على أن صبريا نضـــج فى الكهولة وقت أن كان البارودى فى منفاه ، وكان ينشر شعره فى مجلة « روضة المدارس » منذ عام ١٨٧٠ م كل أسبوعين فى الوقت نفسه الذى كان شوقى ينشر فيه شعره فى الوقائع المصرية • وقد تولى بعد عودته من فرنسة مجموعة من الوظائف الهامة فى الدولة ، فقد التحق بالقضاء حتى عين وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) سنة ١٨٩٩م واعتزل الخدمة فى سنة ١٩٠٧م • وفى خلال هذه الحقبة ما بين ١٩٠٧ م حتى وفاته ١٩٢٣ م انقطع للشعر والترجمة فكتب كثيرا من شعره الغنائى وترجم قصة الثعلب والغراب عن « لافونتين » وترجم كثيرا من قصائد « ألفريد دى موسيه » و « لاجرتين فرلين » وغنى عبـــده الحامولى من شـــعره قصـــيدة « الحلو لمـــا انعطف »(٢) • ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى انه عاش حياته لم يزر انجليزيا قط ، ولم يذهب يوما الى الوكالة البريطانية فى حين أنها كانت ــ مع الأسف ــ مقصـــد الكبراء والعظمـــاء فى ذلك العهد ، وطالمـــا استماله اللورد كرومر الى زيارته ليكسبه الى صف المناصرين للاحتلال فاستعصم وأبى • ويقول أيضـــا : انه كان محافظا للاسكندرية سنة ١٨٩٦ ــ ١٨٩٩م وأراد مصطفى كامل أن يلقى به خطبة من خطبه الوطنية الكبرى ، فأوعزت اليه الحكومة أن يمنع اقامة الاجتماع الذى أعد لالقـــاء الخطبة ، بحجة المحافظة على الأمن والنظـــام ، فأبى صبرى على الحكومة ما أرادت ، ورخص باقامة الاجتمـــاع ، وصارح الحكومة بأنه مســـئول عن الأمن والنظـــام ، وألقى مصطفى كامل خطبته(٣) وســـوف يكون لنـــا معه وقفة فى تناولنا للشعر السياسى والحركات الوطنية فى المـــدة من سنة ١٨٨٢م حتى قيام الحرب العالمية الثانية التى هى موضوع الدراسة والبحث •

---

(١) كتاب « أدب وتاريخ » لمحمد صبرى ص ٢٨١ •

(٢) الشعر العربى المعاصر تطوره وأعلامه ، لأنور الجندى ص ٤٩ .

(٣) شعراء الوطنية ص ٣١ ، وانظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٤٩٦ ــ ٤٩٩ •

وأما السيد « مصطفى لطفى المنفلوطى » فهو ذلك الأديب الموهوب الذى ارتقى بأسلوبه ومعانيه رقيـا نقله من أدباء القرن التاسع عشر الى الأدباء المتقدمين فى القرن العشرين ، وكان له دور كبير فى التأثير على كثير من الكتاب والأدباء الذين قلدوه ليجودوا أسلوبهم ويرتقوا به الى مشارق عظمة اللغة العربية ، وفصاحة القـرآن وبلاغته ، ونلمح فى أدبه الطبع الفياض البعيـد عن الصنعة والتكلف • ومن المعـروف أن النثر الفنى فى عصره كان يعد لونا حائلا من أدب القاضى الفاضل ، أو أثرا مائلا لفن ابن خلدون ، ولكن أسلوبه هو كان أسلوبا فريـدا أنشأه الطبع القوى على غير مثال ، وقد عالج الأقصوصة أول الناس ، وبلغ فى اجادتها شـأوا ما كان ينتظـر ممن نشأ كنشأته وفى جيل كجيله • ويحدثنا عنه أحمد حسن الزيات(١) فيقول : « كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه ، فهو مؤتلف الخلف ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسـق الأسلوب ، منسجم الزى ، لا تلمح فى قوله ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الفدامة(٢) ، كان صحيح الفهم فى بطء ، سليم الفكر فى جهد ، دقيق الحس فى سكون ، هيوب اللسـان فى تحفظ ، وهـذه الخلال تظهر صاحبها للناس فى مظهر الغبى الجاهل فلذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ، ويكره الخطابة ، ثم هو الى ذلك رقيق القلب ، عف الضمير ، سليم الصدر ، صحيح العقيـدة ،

---

(١) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٤٦١ •

(٢) « الفدامة » ورد معناها فى « لسان العرب » جـ ١٢ ص ٤٥٠ الفدم من الناس : العيى عن الحجة والكلام مع ثقـل ورخاوة وقلة فهم . وهو أيضـا الغليظ السمين الأحمق الجافى . والثاء لغة فيه • وحكى يعقـوب ان الثاء بدلا من الفاء والجمع فدام • والأنثى فدمة وثدمة . وقد فدم فدامة وفدومة ، قال الليث : والجمـع فدم . والفدم الثقيـل من الدم • والمفـدم يأخوذ منه • وفى الحديث (انكم مدعوون يوم القيامة مفدمة أفواهكم بالفدام) • أى أنهم يمنعون عن الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم وجلودهم • وفى القاموس المحيط جـ ٤ ص ١٥٩ الفدم العيى عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم والغليظ الأحمق الجافى • وفى مختـار الصحاح ص ٤١٤ مادة فدم : الفدام بالكسر ما يوضـع فى فم الابريق ليصـفى به ما فيه ، والفـدام بالفتـح والتشـديد مثله ، ومنه رجـل فدم اى عيى ثقيل بين الفدامة والفدومة • وقد آثرت أن أعرض معنى هذه الكلمة لا للحشو والزيادة ، وانما لأنها غير مستعملة الآن فى أساليبنا مع أنها ذات دلالة قوية فى موضعها • وقد أصـاب الزيات فى وضعها فى مكانها •

طاهر الذيل ، سليم السلوك ، نفـاح اليد ، موزع العقـل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وانسانيته • وهو مولـود سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ) فى منفلوط من أعمـال محافظة أسيوط • ونشأ فى بيت علم وفضل ، توارث أهله القضـاء الشرعى ونقابة الصوفية قرابة مائتى سنة ، وعرف أثنـاء دراسته بالأزهر بذكاء العقل وتوقد القريحة وروعة الأسلوب ، فقربه الأستاذ الشيخ محمد عبده اليه ، ورسم له الطريقة المثلى الى الغاية من الأدب والحيـاة ، وعن طريق صلته بالامام محمد عبده اتصل بسعد باشا زغلول وبالشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » •

وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر فى تكوين المنفلوطى الأديب بعد استعداد فطرته وارشاد والده • وقد اتهم وهو طالب فى الأزهر بأنه هجا الخديوى عباس حلمى الثانى بقصيدة نشرها فى احدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس ، وقضى فى السجن مدة العقوبة وبعد موت الشيخ محمد عبده اعتكف فى بلده جزعـا وحزنا • ثم عاوده النشـاط فأخذ يكتب فى « المؤيد » وتولى بعض الأعمـال التى كان آخـرها وظيفة كتابية بمجلس النواب فى عهد سعد زغلول وظل بها حتى توفاه الله سنة ١٩٢٤م وهو فى العقد الخامس من عمره •

ومن مؤلفاته ومترجماته التى يكاد يكون جيلنا كله وما قبله قد قرأها أو اطلع عليها على الأقل كتاب « النظـرات » فى ثلاثة أجـزاء جمع فيه ما نشره فى المؤيد من الفصـول فى النقد والاجتمـاع والوصف والقصص(١) ، وكتاب « العبرات » وهو مجموع من الأقاصيص المنقولة والموضوعة • ثم « مختارات المنفلوطى » من أشعار المتقدمين ومقالاتهم • وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : « تحت ظلال الزيزفون » أو « مجدولين » لألفونس كار ، و« بول ، وفرجينى » أو « الفضيلة » لبرنار دى سان بيير ، وسيرانو دى برجراك أو « الشاعر » لأدمون روستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، فأضافت الى ثراء الأدب العربى ثروة ، وكانت للفن القصصى الحديث قوة وقدوة(٢) •

---

(١) انظر النظرات للمنفلوطى : جـ ١ ، ٢ ، ٣ الطبعة الثامنة مصر سنة ١٩٤٠ والعبرات عاشرة ١٩٥٠ ، ومختاراته طبع ١٩٣٨ •

(٢) انظر تاريخ الأدب العـربى للأستاذ أحمد حسن الزيات ص ٤٦٠ ـ ٤٦٤ .

الفصل الثانى

بواعث النهضة وعواملها

وفى تصورى بعد هذا العرض التاريخى أن مصر حملت راية العربية ونافحت عنها فى صبر وعنـــاء شديدين طوال أربعة قرون متوالية من الزمان المدبر سنة (١٥٠٠م الى ١٩٠٠م) ، وأنها استقطبت العـــرب جميعا فوفد اليها المفكرون والأدباء وأهل الرأى اما للمشاركة فى الجهد الدائب ، أو للتعلم فى الأزهر الشريف ـــ حصن اللغة والدين •

ولم يكن فى حســـبان الأتراك أو المســـتعمرين الفرنسيين والانجليز أن مصر ستمتص وجودهم ، وتحيل فكرهم الى فكر عربى يخـــدم اللغة والدين بدل أن يحولهم الى مسخ مشـــوه بلا لغة ولا قومية ولا دين • وكان الفضـــل فى ذلك الى المجاهدين الذين تصدوا لكل ألوان الاستعمار السياسية والاقتصادية والفكرية والدينية والأدبية واستطاعوا أن يبعثوا الفكر المصرى والعـــربى من مرقده ، وأن يخططـــوا لمصر الحديثة ما يدفعها الى الأمام لتتبوأ مكانتها التى تتفق ومركز القلب من العالم ، كما هو وضعها الجغرافى والحضارى والتاريخى •

ومع الرجال كانت هناك الوسائل التى أدت الى حركة البعث ، وهى لا تقل أهمية عن الأعلام الذين استخدموها وطوعوها لتحقيـــق الأهداف القومية والانسانية ، ومن أهم صورها وألوانها أن مطبعة بولاق التى أنشئت فى سنة ١٨٢١م فى عهـــد محمد على أخذت تخـــرج للأدباء كتبا قويمة غير مســـجوعة ولا مطرزة بفنون البديع ومحسناته ، كما أخذت تخرج بعض الدواوين القديمة التى تخلو خلوا تاما من مصطلحات البديع ومصطلحات العـــلوم ـــ فضلا عن حساب الجمل(١) وما يتصل به من لف ودوران فى الألفاظ وعقـــد وكلف فى الكلمـــات

---

(١) يوزن سكر ، وقد يخفف •

والحروف — وترتقى بأسلوبها وأفكارها على مدارج الضعف والاسفاف اللذين كانا من طبع العصر وطبائع أهله •

وقد امتدت الأيدى تتلقف الكتاب المطبوع كأنه أعجوبة وتنظر فيه العيون فى غرابة ، واكتشف الأدباء أن هناك صورا أخرى للعربية غير أسجاعهم المرذولة ، وفنون بديعهم وتمارينهم الشعرية المملة • فهذا ابن المقفع يكتب « كليلة ودمنة » من لغة سهلة ، لا تكلف فيها ولا تصنع ، وانما فيها الانطلاق والاسترسال والانفكاك من كل ما يعوق الأسلوب ويتعثر بمعانيه • وكان هذا الاكتشاف بمثابة ميلاد جديد للأدب العربى • ميلاد بين الأصلاب والأرحام يربط الحاضر بالماضى ، ويعيد للأمة توازنها بعد أن فقدت صلتها بماضيها مدة تبلغ أربعة قرون أو تزيد •

كذلك طبعت أيضا دواوين الشعراء القدماء من الجاهليين والاسلاميين والعباسيين من أمثال امرىء القيس ، وحسان بن ثابت وأبى نواس والمتنبى ، فوجد الشعراء فيها شعرا غير الذى يعرفونه ، حيث لا تطغى على أشعارهم أى زينة لفظية ، ولا يستر معانيهم أى مصطلح علمى ، ولا يسجنون الشعر فى شىء من هذه الحصون الهندسية التى تعالت أسوارها بتوالى عصور الاضمحلال والضعف ، وما أصاب اللغة فيها من وهن شديد وكأنهم فى مراجعتهم لهذه الدواوين كانوا يقرأون فكر أمة أخرى غير أمتهم ويتذوقون لغة غير لغتها التى عرفوها ومارسوها فى كتاباتهم وأشعارهم ومن هنا زهد الكتاب فيما كانوا يظنونه مثلا أعلى فى عصرهم ، وزهد معهم الشعراء أو بدأوا يزهدون ، فقد عرفوا أن وراء شعرهم الآسر شعرا حيا فيه نضارة وغضارة وحسن وفتن ، وجمال وجلال • وكأنما كانت مطبعة بولاق — بما نشرت من كتب ودواوين قديمة — نافذة ، أو قل : نوافذ دخل منها هواء قوى فى هذه السجون العفنة ينقيها ، ويعيد الحياة الى من كانوا فيها •

وقد طبعت هذه المطبعة مئات من أهم الكتب العربية فى الطب والرياضيات والطبيعيات والحربية والتاريخ والأدب والشعر والتفسير والحديث وسائر العلوم ، ومن بينها كتب تركية وفارسية وافرنجية ، ولكى نعرف قيمة ما قدمته هذه المطبعة للأدب والفكر ، لابد أن نرجع الى الوراء حين كانت الكتب والدواوين تنسخ ، وحين كان الراغبون فى العلم ينفقون من أجل ذلك مئات الدراهم والدنانير ليحصلوا

على نسخة واحدة ، مما جعل الكتب مقصورة على أهل اليسار الذين يستطيعون شراءها ونقلها بأثمان باهظة ، ولذلك كان ظهور المطبعة بمصر ، كما كان بأوربة عاملا مهما ادى الى أن يطلع الناس على الآثار السابقة والكتب النفيسة بأثمان يسيرة ، وأن يقرأوا نسخا صحيحة مضبوطة ، وأن يتداولوا المعرفة على أوسع نطاق وفى أقصر وقت • وكم كانت دهشة الناس فى مصر كبيرة حين عرفوا — بعد ظهور هذه المطبعة — أنهم كانوا يتنكبون الطريق ، وينحرفون عنها فى نثرهم وشعرهم جميعا ، وأن هناك من الكتابة والشعر العربى ما يزدان بالجمال والعذوبة والرقة بعيدا عن أسجاعهم المرذولة ، ولغتهم الجافة ، ومعانيهم الهزيلة •

وتوالت الكتب المطبوعة فى الظهور ، وامتدت الأيدى تتلقفها من كل لون وفن ولم تتعطل هذه المطبعة الا بضع سنين فى المدة التى بين محمد على واسماعيل •

وحين تولى اسماعيل سنة ١٨٦٣م أعاد الحياة العلمية سيرتها الأولى أيام محمد على ، فأنشأ المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، وأحيا مدرسة الألسن ، وأسس دار « الأوبرا » ودار الكتب المصرية ، وأخذ يرسل البعوث الى أوربة • وكانت الطباعة من أهم ما عنى به كما عنى بالصحف والمجلات • فكان ذلك كله سببا فى نهضة أدبية محققة ، واتسعت العين التى تنظر الى الأساليب القديمة فى النثر والشعر ، اذ دفعت الصحافة أصحابها دفعا الى أن يفكروا فى لغة قريبة من الجمهور ، ليس فيها تعسف السجع ، ولا ارتباكات البديع ، وانما فيها السهولة والقرب منه ، وفيها اليسر والانطلاق ، والصورة التى تتفق والنهضة العلمية والأدبية التى بدأت تباشيرها تلوح فى سماء مصر واللغة العربية • •

وجاء توفيق بعد أبيه اسماعيل سنة ١٨٧٩ م ، وفى عهده اندفعت حركة الطباعة والتأليف وازد اتصال المصريين بأوربة وبالحضارة الأوربية ، واتسعت الترجمة عما كانت عليه فى عهد اسماعيل ، وأخذ المترجمون يستعملون أساليب حرة ليس فيها انحرافات السجع ولا محسنات البديع كما كان فى ترجمات رفاعة الطهطاوى وزملائه • وزاد اطلاع الأدباء على الأساليب الأوربية وآداب الغرب ، فلم يجدوا فيها سجعا ولا بديعا ، وانما وجدوا أساليب سهلة مرسلة ، لا التواء

فيها ولا تعقيد . فتأثر بذلك الأدباء والشعراء ، كما تأثر به أيضا المسهمون فى الحركة العلمية . وكانوا يشعرون أن أساليب السجع والبديع تقف سدا يحول بينهم وبين ما يريدون التعبير عنه بلغتهم العربية من المعانى العلمية الأوربية فحاولوا هم أيضا أن رجعوا بالأساليب العربية الى صورها الطبعية القديمة حتى تستطيع أن تحتمل فى غير عجز ولا قصور معانيهم العلمية الجديدة ، وحتى يكون الاطلاع عليها وتعلمها بلغتنا القومية سهلا ميسرا كما هو باللغة الأجنبية المنقولة عنها .

كانت هذه التحولات الطبعية ، والأحداث والمواقف المتلاحقة التى تتابعت فى القرن التاسع عشر دافعا لأن يفكر الكتاب فى تغيير الأساليب النثرية على لسان الشيخ محمد عبده وأمثاله من كتاب « الوقائع المصرية » ، كما جعلت شعراءه يفكرون فى منظوماتهم الشعرية وما صارت اليه من تعقيدات ومهاترات وظهرت جماعة من الشعراء تحاول أن تلائم بين ما ترى وما تعرف وأن تتخطى قيود الماضى ، وترتفع فوق اسفاف الحاضر ، ومنهم على أبو النصر ، ومحمود صفوت الساعاتى ، وعبد الله فكرى ، وعبد الله النديم ، وعلى الليثى ، ولكنهم لم يوفقوا كل التوفيق وان كانوا قد ارتفعوا بأسلوبهم بعض الشىء عمن كانوا قبلهم ممن كان الشعر عندهم صنعة لا روح فيها كالسيد على الدرويش وشهاب الدين ، فقد صنعا القصائد المنفصلة الحروف والمعجمة والمهملة ، وذات القافيتين ، والمتعلقة بالضوابط الفقهية والفلكية ، وأثقلوا على الشعر حتى صار كالألغاز ، أو هو الألغاز عينها .

ويقول الدكتور شوقى ضيف عن محمود صفوت الساعاتى الذى جاء بعدهما وتوفى قرب نهاية القرن التاسع عشر سنة ١٨٨٠م(١) : « انه اشتهر عنه أنه يحفظ ديوان المتنبى وأنه لم يتلقن صناعة النحو والصرف ، وأنه يجرى فى أحوال كثيرة على الطبع ، وأنه لا يرهق نفسه بأثقال الصناعة ، ومع ذلك نجد فى ديوانه قصيدة يمدح بها بعض أمراء الحجاز ، وهى تجرى على هذا النمط :

أيا من به صار الزمان سعيدا ... ومن كل من والاه آنس عيدا
فصار مجيدا من أطاع ، ومن عصى ... بصارمه الهندى صارم جيدا

---

(١) فصول فى الشعر ونقده (ط دار المعارف سنة ١٩٧١) ص ٢٦٧ وما بعدها .

فكم جاز بيدا بالحجاز وذكره الينا مع الركبان جاء زبيدا(١)

وواضح أنه يجانس بين الكلمة وبعض الحروف ، فحرف النون مع كلمة « سعيدا » فى الشطر الأول يقابلان « آنس عيدا » فى الشطر الثانى ، و « صار مجيدا » تقابل « صارم جيدا » فى البيت الثانى و « جاز بيدا » تقابل « جاء زبيدا » فى البيت الثالث • وهذه كلها انحناءات وتعقيدات فى الأسلوب يراد بها احداث الجناس ، واظهار مقدرة الشاعر على أن يبلغ من ذلك كل ما يبتغى ، فهو لا يجانس جناسا طبعيا بين كلمة وكلمة بل يجانس بين كلمتين وكلمة وبعض كلمة ، حتى يقيم الدليل البين على احسانه وتفوقه • وهذا هو معنى قولنا : ان صناعة الشعر لم تتخلص من العوائق الموروثة ، فبقى الساعاتى يفكر فى عمل شعره بعقلية الجيل السابق له ، واستمر خاضعا للالتواءات والانحرافات التى سبقته ، حقا انه تخلص منها فى كثير من جوانب شعره ، ولكنه كان يحن اليها من حين الى حين ، فاذا بنا نعثر عنده على هذه الجناسات المعقدة التى تحيل القصيدة أبياتا مفككة ، كل بيت يعبر عن جناس صعب ، يشد أول البيت الى آخره ، وكأنه يشده من شعر رأسه كما يقولون وليس هذا هو كل ما نجده فى ديوانه ، فنحن نجد عنده توريات وتشطيرات وتخميسات مختلفة ، كما نجد عنده تضمينات أو اقتباسات لأبيات سابقة يحوطها بشطوره من مثل قوله :

حجبوك عن مقل الأنام مخافة من أن تبوح بحسنك الأنوار
فغدوت بالستر الجميل محجبا كى لا تخمشن خدك الأبصار
وتوهموك فلم يروك فأصبحت آراؤهم فى أمرها تحتار
وتخيلوك بفكرهم حتى بدت من وهمهم فى خدك الآثار

فهذان بيتان ليسا من عمله ، فكهما على هذا النحو ، فأتبع الشطر الأول منهما بشطر من عنده ، وقدم للشطر الثانى بشطر آخر • واحتذى الصنيع نفسه فى البيت الثانى فأتعب نفسه ، ولم يأت بشىء ، ولكن أهل عصره كانوا يعجبون بمثل هذا التضمين ، وكانوا يرون فيه آية البراعة ، فاعتد به فى صناعته ، كما اعتد بالتاريخ وحساب الجمل •

وهذه الصورة العامة لصناعة الساعاتى تنطبق على كل من سميناهم من لداته العصريين ، وغاية ما فى الأمر أن بعضا منهم كان سريع

---

(١) بلدة باليمن •

الخاطر ، حاضر البديهة ، حلو الفكاهة والمساجلة ، لا تفوته نكتة ولا نادرة ، فأعده ذلك ليكون نديما وسميرا لاسماعيل أو لتوفيق أو لكليهما على نحو ما كان الشيخ على الليثى .

ومن المعروف أن الشيخ على الليثى كان يمتاز بالملح والنوادر وأنه كان حاضر البديهة ، ولكننا لا نجد فى شعره ما يعبر عن نزعات انسانية أو عواطف عميقة فهو ما بين مديح وتهنئة أو تعزية أو عتاب .

وقد حاول عبد الله النديم أن يجدد فى شعره فذكر بعض المخترعات ، ووصف الطرق الحديدية فقال فى وصف القطار(١) :

نظر الحكيم صفاته فتحيرا ... شكلا كطود بالبخار مسيرا
دوما يحن الى ديار أصوله ... بحديد قلب باللهيب تسعرا
ويظل يبكى والدموع تزيده ... وجدا ، فيجرى فى الفضاء تسترا
تلقاه حال السير أفعى تلتوى ... أو فارس الهيجا أثار العثيرا
أو سبع غاب قد أحس بصائد ... فى غابه فعدا عليه وزمجرا
أو أنها شهب هوت من أفقها ... أو قبة المنطاد تنبذ بالعرى

ومن خلال ما نلحظه من معان فى هذه الأبيات وهى قليلة عند شعراء هذا العصر نجد أن التجديد غير مستقيم لأنه لا يسلك منزعا أدبيا واضحا ولا يهدف الى غايات انسانية عامة ، ولا الى التعبير عن تجارب نفسية دقيقة . ويقول الدكتور شوقى ضيف(٢) :

« والحق أن الشعر عند النديم وأصحابه لم يظفر بما كنا نأمله له من تغذية الشعور ، فضلا عن تغذية العقل . فقد استمر فيه كثير من الآلية القديمة . واستمر لا يعبر عن الشاعر وكنهه وأعماق نفسه وخواطره . وان من المبالغة أن نسميه شعرا بالمعنى الدقيق لكلمة شعر ، فليس فيه وهم ولا حلم ، وانما فيه الصنعة والسير فى الدروب القديمة من مديح وغير مديح ، وحتى المجون كانوا ينظمون فيه مجاراة للسابقين لا تعبيرا عن شعور حقيقى ولا حوادث حقيقية » .

ولهذا وجدنا معظم هؤلاء الشعراء لا يهتمون ببقاء شعرهم أو

---

(١) عبد الله النديم « خطيب الوطنية » للدكتور على الحديدى (أعلام العرب ٩) ص ٤٨ وما بعدها مكتبة مصر سنة ١٩٦٢ ، وفصول فى الشعر ونقده لشوقى ضيف ص ٢٦٩ .

(٢) فصول فى الشعر ونقده ص ٢٧٠ .

انتشـــاره لانه ليس نسيج روحه وذهنه وانما هو شيء عارض لا يهتم بنسبته الى عمله ونفسه • وقد لعن علي الليثي من ينشر نسخة ديوانه المخطوط • وأراد عبد الله النديم أن يحرق ديوانيه الصغير والأوسط • ولم نجـــد عن غيرهما ما يرتفع الى درجة التعبير الجيد عن ســـمو في العواطف أو يتصـــل بالنفس وينطلق من الفؤاد • وضاعت الحكمة والمعاني المبتكرة • وتاهت الأحداث والمحن التي وقعت في القرن المـــاضي ، فلم يأت التعبير عنها عنـــد هؤلاء صادقا أو دالا عليها • كما لم يتركوا للحياة الأدبية شيئا يدور مع الزمن • ويفعـــل في النفوس فعل الأعمال الأدبية الخالدة •

* * *

١ ـ رائد الشعر الحديث :

وطال الانتظار ، وربة الشعر تبكي حظها • وفنون الأدب منكسة أعلامها حتى ظهر الشاعر الذي كانت تبحث العربية عنه على ربوع أرضها العريضة فيعييها أن تجده • ذلك الشاعر المطبوع الذي ولد شاعرا والذي ملأ جلده الشعر والفن ، والذي جاء شعره على غير ما عرف من شـــعراء عصره ، وأقصـــد به محمود سامي البارودي الذي قدمت ترجمة عن حياته في ثنايا هذا البحث(١) ، فلقد كان شعره صورة صادقة لحياته من حيث هو انسان وقائد ورئيس ، كما كان ســـجلا لأحداث مصر مع ثورة عرابي والهزيمة والاحتلال ، وقصة بديعة لحياته في الحرب ، وفي السلم ، في النفي والعذاب والتشريد والآلام •

انها تجربة نفســـية تفيض بالعواطف والأحاسيس وتشكل في مجموعها ملحمة رجل ، وتاريخ شعب • وهذا هو الفرق بينه وبين من عاشوا في أيامه ، يقول في مقدمة ديوانه(٢) : « ان الشعر لمعة خيالية يتألق وميضـــها في سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدي بها السالك » •

وهو تعريف الشعر لا يصدر الا عن شاعر يؤمن بالفيض والاندفاع ، والهبة والالهام ، ولا يرى أن الشعر قوالب من البديع والتورية ، والتشطير والتضمين والتخميس والتسديس وغير ذلك مما هو نوع من الصناعة ولا يسمو بالعواطف ، ولا يعبر عن الوجدان ، واذا كان

---

(١) انظر ص ٣٤ ـ ٣٦ من هذا البحث •

(٢) انظر مقدمة ديوان البارودي •

شعراء عصره يحرصون على تعلم العروض والقوافى ويجرون وراء العقد المحبوكة ، والالقاب البهلوانية ، والأساليب الملتوية التى لا تنتج شعرا وان كانت تصنع نظما ، فانه لم يتعلم الشعر على طريقتهم ولم يصنعه أو يتصنع فيه كصنعتهم ، وانما لجأ الى نبعه عند الشعراء الجاهليين والاسلاميين والعباسيين يغترف منه قراءة وحفظا وتذوقا وارتواء حتى اذا ثبتت فى نفسه سليقة الشعر العربى أخذ ينظمه عن فيض وجدانى وأحاسيس عاطفية صادقة .

ومعنى ذلك كما يقول الدكتور شوقى ضيف(١) : « أنه لم يسلك مسلك أمثاله من تعلم العروض والنحو ومحسنات البديع ولعب التضمين ، والحروف وحساب الجمل ، وانما سلك مسلكا جديدا وهو مسلك صحح به موقف الشعر والشعراء ، فقد خرج بهم من آفاق الجمود والتقليد السيء المشبوه القبيح الى آفاق تقليد جديد ، وهو تقليد واسع لا ينحصر فى النماذج القريبة أو العصرية المليئة بالأثقال الهندسية البغيضة . فعلى الشعراء أن يمدوا أبصارهم الى آفاق الفن العليا ، الى العصر العباسى وما قبله من عصور ، فيقلدوا فحول الشعراء القدماء ، ويتركوا أمثال الخشاب والدرويش والشيخ شهاب الى النابغة وزهير وجرير وبشار وأبى نواس وأبى فراس والمتنبى والشريف الرضى وأضرابهم . وهذه هى صناعة الشعر عند البارودى فى جملتها ، فهى ارتداد الى النماذج الفنية القديمة وفرار من القوالب العصرية المعقدة . وافتتح ذلك بمعارضته لأبى نواس والمتنبى وأبى فراس والشريف الرضى والنابغة وابن النبيه والطغرائى .

وروى المرصفى فى « الوسيلة الأدبية » بعض هذه المعارضات ليدل على جودة شعره ، ومدى احسانه وتفوقه بالقياس الى هؤلاء الأعلام الممتازين ، وانه ليعلق على قصيدته :

* تلاهيت الا ما يحن ضميره *

التى نظمها معارضا قصيدة أبى نواس المشهورة :

* أجارة بيتينا أبوك غيور *

بقوله : « انظر هداك الله لأبيات هذه القصيدة ، فافرزها بيتا

---

(١) فصول فى الشعر ونقده ص ٢٧٣ ، والبارودى رائد الشعر الحديث لشوقى ضيف أيضا ص ٩٦ ـ ١١٠ طبع دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٤م .

بيتا تجد ظروف جواهر ، أفردت كل جوهرة لنفاستها بظرف ، ثم اجمعها ، وانظر جمال السياق وحسن النسق ، و (انى) أكلك الى سلامة ذوقك وعلو همتك ان كنت من أهل الرغبة فى الاستكمال لتتبع هذه الطريقة المثلى » •

ويعلق على قصيدة أخرى له عارض بها أبا نواس أيضا بقوله : « تأمل قوالبها تجد الاجادة فيها واضحة ، والسلامة من أدنى متعلق ظاهرة ، بحيث لا تجد فيها موضعا للو أو ليت » • ويقول بعد استعراض قصيدة الشريف الرضى :

* لغير العلا منى القلى والتجنب *

ومعارضة البارودى لها بقصيدته :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهو ويلعب

ويقول المرصفى بعد ذلك : « ان فى الخمر معنى ليس فى العنب » وما يزال كلما ذكر معارضة له أثنى عليه وأطنب •

ولا شك فى أن هذا ثناء قيم لأن الشيخ حسين المرصفى كان أستاذ عصره فى العربية ، وتذوق آثارها ونماذجها الفنية ، وقد شعر بهناءة وفرحة حقيقية وهو يعرض شعر البارودى ، فلا يجد فيه أعشاب البديع ولا آفات عصره من أرقام وأعداد حسابية ، وتمرينات وألعاب هندسية ، وانما يجد فيه الطبيعية والانطلاق دون عوائق وسدود •

والحقيقة أن المتصفح لشعر البارودى يرى نفسه وقد انتقل الى روعة الشعر العربى فى عصوره المتقدمة ، ويحس بطبع متدفق لا تصنع فيه ولا تعمل ، ويشهد شعرا يصف الطبيعة المصرية ، والثورة العرابية وما صاحبها من قلق واضطراب فى نفوس المصريين ونفسه ، كما يرى فيه آثار مصر القديمة وتاريخها • انه بحق شعر يصور البارودى ، ويصور عصره ووطنه ، وهذا الشعر — بما جاء فيه من صور وألوان تعبر عن حاضر الشعب المصرى بكل ما فيه من أمل وألم ، وعن الماضى العربى بكل ما فيه من فن وروعة — يعد شعرا جديدا لم يألفه شعراء القرن التاسع عشر، ولم يعرفه كل شعراء العربية فى عصور الانحطاط ويعد البارودى بصياغته الفخمة الجزلة ، وألفاظه

الرائعة ، ومعانيه الحية المتجددة ، باعث الشعر العربى الحديث بلا منازع .

وقد دلتنا دراسة ديوانه على أنه كان لا يزال يصقل فى شعره ويحبر ويجود فى لفظه ، ولازمه ذلك حتى آخر حياته . ولهذا يعد ديوانه حقا ثمرة كفاح وجهاد طويلين حيث غير فيه كثيرا مما نظمه قبل طبع الديوان ، ونحن نشاهد ذلك واضحا فى الفرق بين ما عرضه الشيخ حسين المرصفى من شعره فى « وسيلته الأدبية » التى طبعت سنة ١٢٩٢ هـ أى قبل طبع الديوان بنحو ثلاثين عاما وبين ما جاء فى الديوان من الشعر نفسه ، ففى قصيدته التى عارض بها أبا فراس قال قبل الديوان(١) :

وخيل يرج الخافقين صهيلها نزائع معقود بأعرافها النصر

وفى الديوان أبدل كلمة « يرج » بكلمة « يعم »(٢) ، وجاء فى القصيدة نفسها قوله :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

وقد أبدل الشطر الثانى لثقله فى طبعة الديوان بشطر آخر جعل البيت يستوى على هذا النحو :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم ملول من الأيام شيمته الغدر

والشطر الجديد أضبط وأحكم ، وأكثر حبكة من حيث اللفظ والمعنى وأكثر دقة ، ومثل ذلك بيت جاء فى القصيدة الدالية التى صور فيها حنينه الى مصر فى أثناء حربه مع الدولة العثمانية فى البلقان ، وهو يجرى على هذا النمط :

ومن شيمتى حب الوفاء ولم يكن ليخلص ود لم يحطه الوفا بعد

وفى البيت تكرار غير مستحب لكلمة الوفاء ، وفيه كلمة بعد التى تنبو فى القافية نبوا واضحا ، ومن أجل ذلك أبدله فى الديوان بقوله(٣) :

---

(١) انظر الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى جـ ٢ ص ٢٨١ طبع القاهرة سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) .

(٢) ديوان البارودى جـ ١ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٣٩١هـ (١٩٧١م) .

(٣) ديوان البارودى جـ ١ ص ١٨٩ .

ومن شيمتى حب الوفاء سجية ... وما خير قلب لا يدوم له عهد

وفى قصيدته التى عارض فيها أبا نواس اختلاف كبير بين أبياتها القديمة والجديدة ، فقد بدأها قديما بقوله :

تلاهيت الا ما يحن ضمير ... وداريت الا ما ينم زفير
وهل يستطيع المرء كتمان أمره ... وفى الصدر منه بارح وسعير

وافتتحها حديثا فى الديوان بقوله(1) :

أبى الشوق الا أن يحن ضمير ... وكل مشوق بالحنين جدير
وهل يستطيع المرء كتمان لوعة ... ينم عليها مدمع وزفير

وهكذا استمر البارودى يحذف أحيانا ويضيف احيانا البيت والأبيات كما استمر يبدل فى الكلمات والألفاظ ، يبتغى الربط والضبط واحكام الايقاع والدقة فى التعبير والوصف ، يحدوه فى ذلك كله ذوق مسعف ، وقريحة بارعة ، يستلهمها التوفيق فى رفع البناء وعمده وكأنما كل لبنة فيه وكل لفظة جاءت لتسند أختها وتشدها شدا يكفل لها كل ما يريد من عذوبة الرنين • وبذلك كانت أساليبه جزلة صلبة متينة ، وكانت فى الوقت نفسه خالية من كل شوائب البديع وما يطوى فيه أو يتصل به من شعوذة أو تعقيد(2) •

وحول هذا يقول الدكتور هيكل(3) :

« ان رسالة البارودى لم تكن تجديد الشعر العربى بل كانت « بعث » الشعر العربى من مرقده ، وتمزيق الأكفان التى احتوته مئات السنين » •

ويقول العقاد(4) : « ان البارودى هو صاحب الفضل الأول فى تجديد أسلوب الشعر وانقاذه من الصناعة والتكلف العقيم ورده الى صدق الفطرة وسلامة التعبير ، وأنه جمع بين احكام الصنعة وشرف العبارة ، وصدق الابانة عن كل سريرة من سرائره » •

---

(1) ديوان البارودى ج 1 ص ٢٨٨ •

(2) فصول فى الشعر ونقده ص ٢٧٨ ، وانظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٤٩٢ ــ ٤٩٥ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢٢٤ ، والشعر العربى المعاصر ــ تطوره وأعلامه لأنور الجندى ص ١٩ ــ ٢٧ •

(3) مقدمة ديوان البارودى •

(4) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٣٦ •

ويقول عبد الرحمن الرافعى(١) : « محمود سامى البارودى هو امام الشعراء المحدثين قاطبة ، وباكورة الأعـلام فى دولة الشـعر الحديث وأول من نهض به، وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين فبعث النهضة الشـعرية من مرقدها بعد طول الخمود » .

ويقول أحمد حسن الزيات(٢) : « ان كان لامرىء القيس فضل فى تمهيد الشعر وتقصيده ، ولبشـار فى ترقيته وتجويده ، فللبارودى كل الفضل فى احيائه وتجديده . كان الشعر فى عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة ، نظم مرتبك ، وتكلف باد وصناعة فاشية . ومعنى غير مستقيم ، فجلاه فى خاطره ، وصقله على لسانه ، فجاء منضدا للفظ ، نقى المستشف .

وليس فى مقدورى من قول أنهى به الحديث عن البارودى الا أنه يعـد بحق باعث الشـعر العربى من مرقده بعد ألف عام أو يزيد وأنه قفز به فى الأسلوب والمضمون الى العصر الحديث قفزة أدخلته فى دائرة الفكر الحديث لفظا ومعنى .

وقد أعانه على ذلك ثقافته الواسعة ، واتجاهه الى الأدب العباسى ، وتأثره بالأدبين التركى والفارسى ، وتجاربه الضخمة فى المعارك والحروب والثورة العرابية ، والسجن والنفى والتشريد ، وبجانب هذه العوامل المؤثرة ، عاطفته المشبوبة ، ونفسيته البالغة الاعتزاز بالكرامة والوطن ، وأنفته وتعاليه عن الدنايا والصغائر ، وانصهاره فى قضايا وطنه وأمته ، وقدرته على تصور مقتضيات العصر ، وثقته فى النفس المصرية ، وايمانه بالعروبة والاسلام ، وقد جاء شعره معبرا أصدق تعبير عن انفعالات نفسه وهو يقول(٣) :

« ان خطرات الشعر صحبتنى فى أيامى كلها ، ولم تفارقنى الا فى أقلها . لقد كنت فى ريعان الفتـوة واندفاع القريحة بتيـار القوة ألهج به لهج الحمام بهديله ، وآنس به أنس العديل بعديله ، لا تذرعا الى وجه أنتويه ، ولا تطلعا الى غنم أحتويه ، وانما هى أعراض حركتنى ، واباء جمح بى ، وغرام سال على قلبى ، فلم أتمالك أن أهبت فحركت به جرس « لو هتفت » ، فسريت به عن نفسى » .

---

(١) شعراء الوطنية ص ١٨ .
(٢) تاريخ الأدب العربى ص ٤٩٣ .
(٣) انظر مقدمة ديوانه .

وحسب البارودى فضلا على العربية ، وعلى الشعر خاصة أن يكون أستاذ شوقى وحافظ فى الأسلوب ، وخليل مطران فى النزعة الوجدانية ، وأن يكون أول من حمل لواء الشعر السياسى والوطنى فى مصر وفى العالم العربى كله بعد غفلة طال مداها ، وتنكب للطريق عند من سبقوه ، أرهق النفوس ، وأضعف اللغة ، وأفسد القرائح •

* * *

٢ ــ الركون الى العامية ودوافعه الثقافية والسياسية :

وحتى نكتمل صورة القرن التاسع عشر بما له وما عليه ، لابد أن نشير هنا الى « محمد عثمان جلال » ومجموعة من زملائه ممن تعلموا اللغة الفرنسية وأجادوها ، وحاولوا النقل عنها الى العربية ، فتعثروا فى هذه الأدغال الملتفة من سجع وبديع فى النثر وأرقام جمل وتشطير وتضمين فى الشعر ، فرأوا أن يهجروا هذه اللغة الفصيحة المليئة بالعقد الى لغتنا العامية أو الى لغة بين عاميتنا وفصحانا ، فالمهم أداء المعنى لا الصورة التى يؤدى فيها ، وما يمكن أن يوضع عليها من حلل البديع وما يتصل به ، وكان رائدهم فى فكرتهم ما عرفوه عن تاريخ الآداب الأوربية الحديثة ، فقد كان الأوربيون فى العصور الوسطى يتخذون اللغة اللاتينية أداتهم للتعبير عن تموجات عقولهم ومشاعرهم وكانوا ينشئون بها آدابهم ، وينظمون فيها أشعارهم ، ولم يكونوا يعنون بلغاتهم المحلية أى عناية ، فلما جاء القرن الخامس عشر والسادس عشر حدث تحول هائل فى حياة الناس تحت تأثير الاستكشافات الجغرافية الحديثة ، وتحت تأثير التجارب العلمية الجديدة ، وأحسوا أن اللغة اللاتينية ليست لغتهم الطبعية التى ينبغى أن يصبوا فيها أفكارهم وخواطرهم ، فاتجهوا الى لغاتهم المحلية ، ولم تلبث هذه اللغات أن رسخت ، وتوطدت ، وأصبحت لها آداب عظيمة كما نعرف عن الأدبين الفرنسى والايطالى •

ورأى محمد عثمان جلال وأضرابه هذا التحول الذى صارت اليه اللغات المحلية فى أوربة ، ففكروا أن يحدثوا ذلك بلغتنا المصرية الدارجة ، وأن يتخذوها مثلهم اللغوى الأعلى فى حياتهم الأدبية ، فهى لغتهم الطبعية التى تعودوا أن يشعروا ويعبروا فى حياتهم اليومية العادية

بها ، وهى لغة حرة ليس فيها حواجز البديع ، ولا خنادق حساب الجمل ، ولا ممرات التشطيرات والتخميسات والاقتباسات والتضمينات ، وانما فيها السهولة ، وفيها الحيوية التى يريدها الشاعر والكاتب لألفاظه وأساليبه .

ومن هذا المنطلق حاول هو وزملائه أن يستعملوا العامية بدلا من الفصحى ، وأن يؤلفوا بها الكتب ، وأن يكتبوا بها المقالات وأن ينظموا الشعر والرجز .

وبدأ ذلك محمد عثمان جلال فنقل رواية « تارتوف » لموليير الفرنسى ووضعها فى قالب عربى بلغة مصر العامية وسماها « الشيخ متلوف » وقد مثلت على المسارح فى مصر سنة ١٩١٢ م ، وبعدها فى فترات كثيرة وطبعت ونشرت ونقل أيضا أساطير « لافونتين » الى رجز عامى ، وهى طائفة من القصص الخرافية ألفها صاحبها على لسان الطير والحيوان ، وملأها بالعبر والأمثال ، وسماها محمد عثمان جلال « العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ » وطبعت ونشرت أيضا . ومما جاء فيها قوله فى صاحب الدجاجة والطماع(١) :

كان البخيل عنده دجاجة ... تكفيه طول الدهر شر الحاجة
فى كل يوم مر تعطيه العجب ... وهى تبيض بيضة من الذهب
فظن يوما أن فيها كنزا ... وأنه يزداد منه عزا
فقبض الدجاجة المسكين ... وكان فى يمينه سكين
وشقها نصفين من غفلته ... اذ هى كالدجاج فى حضرته
ولم يجد كنزا ولا لقية ... بل رمة فى حجره مرمية
فقال لا شك بأن الطمعا ... ضيع للانسان ما قد جمعا

و « العيون اليواقظ » كلها تجرى على هذه الشاكلة من الرجز ، ومحمد عثمان جلال فيها خفيف الروح ، عذب الحديث يقول عنه أحمد شفيق فى مذكراته(٢) :

« ومما نذكر من زجله الظريف بيتان ارتجلهما أمام رياض (باشا) يشكو تأخره عن أقرانه الموظفين فى الترقية » :

---

(١) انظر العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ لمحمد عثمان جلال ص ٢٠١ القاهرة ١٩٠٨ .

(٢) انظر مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا ج ١ ص ١٦٧ طبعة أولى مصر ١٣٥٢هـ (١٩٣٤م) .

الخير عـم النـاس وفاض ما حـد الا واسـتكفى
الا أنا يا سـيدى ريـاض وقعت من قعـر القفـه

وقد تولى محمد جلال عثمـان مناصب حكومية كثيرة ، وتولى القضـاء فى محكمة الاستئناف ، واستصحبه الخديوى توفيق فى رحلته داخل القطـر المصرى وله أرجوزة وصف فيها رحلة « توفيـق » من « بنها » الى « زفتة وميت غمر » وفيها يقول(١) :

وقد صـحا ديك القرى وصاحا وأيقظ التاجـر والفـلاحا
أقبلت النـاس الى الـوداع من نفسـها تجرى بغير داع
وأتبعونا فى المسـير البتـة حتى وصلنا معهـم لزفتـة
لكن رسا الوابور حكم الأمـر بالموكب العـالى على مت غمر

وله أيضـا ترجمة « بول وفرجينى » منقولة عن الفرنسية أيضا بالأسلوب العامى ، وبطريقته الفكاهية وروحه المرحة • ولكن حركته بكل ما جاءت به لم يكتب لها النجـاح ، وان كانت فى أول أمرها قـد أحدثت ثورة فى الأسـلوب ، وتضـاربا بين مؤيديه ومعارضيه ، الا أنها سرعان ما انطفأت ، لأن المعارضين من أصحاب الفصحى احتجوا بالقرآن الكريم ، ونماذج الأدب العربى الرفيع ، ونبهـوا الى أن فى اتخـاذ العامية لغة أدبية ما يجعلنا نفقـد تراثنا الدينى والفنى جميعا • وأن وجه الشبه بين اللغة اللاتينية والعربية غير صحيح لأن العربية لغة القـرآن ، وهى خالدة بخلوده ، وليس فى استطاعة قوم مهمـا أوتوا من الفصاحة والبيان احلال لغة محل لغة القرآن ، واللهجـات المتعـددة فى الأمة العربية لا تعدو كونها تعبيرا ميسرا للتعامل اليومى ، لا ترتقى فى بنائها وأسلوبها وفكرها الى لغة العلم والأدب •

وكان من أهم أسـباب انتصار الفصحى على العامية حركة البارودى فى الشـعر ، تلك الحركة التى بينت استيعاب العربية لكل أفكار العصر وأسـاليبه ، وكذلك حركة كتاب الوقائع المصرية فى النثر • فانهم جميعا رفعوا عن الأسـلوب الفصيح عقال السجع ، وغشـاوات البديع وعوائق الاقتباس والتضمين وأرقام التأريخ والتشطير والتورية وكل ما ينحرف به عن جادة الافصاح السليم عن الشعور الصادق وما يختلج فى النفس

---

(١) العيون اليواقظ ص ٢٧١ •

من أحاسيس وعواطف انسانية ، وقد توفى محمد عثمان جلال سنة ١٨٩٨م (١٣١٦هـ)(١) .

وبجانب هؤلاء الأعلام الذين أثروا فى النهضة الفكرية وساعدوا على بعث الشعر العربى ونهضته الحديثة ، توجد عوامل أخرى كان لها دور كبير فى ذلك من بينها علاقة مصر بالغرب خاصة فرنسة وانجلترة .

فاذا نظرنا الى علاقة مصر بفرنسة وجدنا أنها تنقسم الى قسمين : القسم الأول بدأ بالحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م وكان مظهره العداء الشديد من المصريين للمستعمر ومقاومته بكل الوسائل والسبل ، وفى الوقت نفسه الانبهار به وبعلمه وتقدمه ، ومحاولة التعرف على أسرار ذلك وتقليده والسير على هداه . والقسم الثانى يمتد من بعد زوال الحملة سنة ١٨٠١ م الى ١٨٨٢ م حين جاءت الجيوش الانجليزية الى مصر غازية ، ووطئت أقدامها أرض وادى النيل تعبث بها عبث المفسدين نفسيا وخلقيا وفكريا واجتماعيا .

وليس معنى ذلك أن فرنسة كانت وحدها فى الساحة المصرية منذ حملتها حتى احتلال الانجليز لمصر ، ولا أن الانجليز انفردوا وحدهم بكل شىء بعد الاحتلال ، ولكنهما كانتا معا ، احداهما : قارة بالسلطان والقوة ، والثانية فى الظل كما كان وضع فرنسة وقت الحملة ، والثانية تارة أخرى صاحبة الحول والطول كما حدث بعد الاحتلال الانجليزى ، ولكن فرنسة ظلت على الرغم من ذلك فى وجدان المصريين علما وفنا وأدبا ، وعلى أرضهم نغما وحركة بل وثورة فى حالات كثيرة .

وفى تصورى — بصرف النظر عن مطامع الفرنسيين فى أرض مصر وقت الحملة سنة ١٧٩٨م — أن المصريين تعرضوا تعرضا شديدا

---

(١) انظر فصول فى الشعر ونقده للدكتور شوقى ضيف ص ٢٧٨ — ٢٨٠ ، وشعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للعقاد ص ١١١ ، والجزء الأول من عصر اسماعيل للرافعى ص ٢٧٢ ، وشيخو ج ٢ ص ١٠٠ — ١٠٢ ، والمسرحية فى الأدب العربى الحديث لمحمد يوسف نجم ص ٢١٨ وما بعدها ، ص ٢٧٣ ، ص ٤٣٠ ، والفن القصصى فى الأدب المصرى الحديث لمحمود حامد شوكت ص ٧١ وما بعدها ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ٢٢١ .

نظريا وعمليا وسط ظلام الحكم التركى لأهم المؤثرات التحررية التى جاءت بها الثورة الفرنسية • فقد وجد المصريون لأول مرة فى تاريخهم غازيا على الرغم من وعيده المتسم بالقوة والجبروت والعنف لمن يقاومه يشيد بحضارتهم الغابرة ، ويمجد شخصيتهم القومية ، ويعترف بكيانهم القومى ، فيتحدث فى بيانه عن « الأمة المصرية » أو كما يقول عبد الرحمن الرافعى : « ان فكرة انشاء حكومة أهلية من المصريين هى أظهر ما فى المنشور من الوعود التى أراد أن يجتذب بها قلوب المصريين •

والواقع أن نابليون بونابرت فى هذا المنشور قد استثار الروح القومية المصرية ، ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ، ويوجه خطابه الى المصريين ، ويعدهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد فى البلاد »(١) • وكان تأثر المصريين بالنظم التحررية التى جاءت بها الثورة الفرنسية تأثرا واضحا — بعد الحملة الفرنسية على مصر — سبق فى شكله ومضمونه بعض الدول الأوربية التى كانت تقاوم الثورة الفرنسية ، وترفض مبادئها وأهدافها الجديدة التى ظهرت فجأة فى القرن السابع عشر •

وقد عرفت مصر النظم الحديثة للحكم بتشكيل نابليون لديوان القاهرة فى ٢٥ من يوليو سنة ١٧٩٨م من تسعة من أكابر الشيوخ المصريين واعطائهم من السلطات ما يعادل سلطات الوزراء فى هذا العصر ، ودعم ذلك بمرسوم تشكيل دواوين الأقاليم فى ٢٧ من يوليو سنة ١٧٩٨م ، وهو ينص على أنه « يتألف فى كل مديرية من مديريات القطر المصرى ديوان من سبعة أعضاء يسهرون على مصالح المديرية ويعرضون عليه — أى على بونابرت — كل الشكاوى التى تصل اليهم ، ويمنعون اعتداء القرى بعضها على بعض ، وعليهم مراقبة الأشخاص السيئى السيرة ومعاقبتهم ، والاستعانة على ذلك بالقوات التى تحت امرة القواد الفرنسيين ، وارشاد الأهالى الى ما تقتضيه مصلحتهم(٢) ، وعلى الرغم من أن الحكم المصرى كان مجرد واجهة

---

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى جـ ١ ص ٨٨ •

(٢) المصدر السابق ص ٩٢ وما بعدها ، وتاريخ الجبرتى جـ ٢ ص ١٩٣ وما بعدها ، والحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر لمحمد فؤاد شكرى ص ٣١٢ ، ٤٠٢ ، ٤١٩ ، ٦٢١ •

للحكم الفرنسى لا نستطيع أن نتجاهل ثلاث نتائج خطيرة لهذا الوضع الجديد الذى جاءت به الحملة الفرنسية •

أولاها : أن المصريين قبل مجىء بونابرت لم يكن لهم مكان فى نظام الحكم لا فى الحقيقة ولا فى الظل ، وكانوا يعيشـــون فى عهد الأتراك والمماليك فى عزلة مطلقة عن سلطات الدولة من حيث هى كيـــان سياسى ، •• أى : أن الشعب المصرى كله بكافة طبقاته كان معزولا عزلا سياسيا عمليا أيام الأتراك والمماليك • وقد كان الاعتراف سواء كان شكليا أو واقعيا من نابليون ــ لا بمجـــرد حقهم فى المشاركة فى حكم البلاد ــ بل بأنهم وحدهم أصحاب الحق فى هذا الحكم ، ولا حق لســـواهم ، وعزل من عزلوهم من المماليك والأتراك قرونا طويلة • كان هذا بمثابة ثورة كبرى فى نظام الحكم بمصر ، تولدت عنها فيما بعد مختلف تيارات الكفاح الوطنى والدستورى لمباشرة هذه السلطة ، والانتقال بها من مجـــرد حق قانونى الى واقع فعلى •

أما النتيجة الثانية لهذا الوضع الجديد : فهى أن الحكومة المصرية بمختلف أجهزتها فى القاهرة والأقاليم كانت بمثابة تدريب أولى للمصريين على تقلد الســـلطة ومسئولياتها ، فكانت الخطـــوات الأولى نحو حكم مصرى مائة فى المـــائة • وكان احتكاك العقلية المصرية بالعقلية الفرنسية ، واطلاع المصريين على فلسفة الحكم الفرنسى وعلى أجهـــزة الادارة الفرنسية وأساليبها ــ ذا أثر كبير فى تكوين الفكر المصرى ، لأن فرنسة كانت يومئذ فى مقدمة دول العـــالم فى الفلسفة السياسية والاجتماعية والقانونية ومن أكثرها عصرية فى أساليب الادارة والتنظيم ، ومن أرسخها قدما فى العلوم والفنون والآداب و « التكنولوجيا » •

وأما النتيجة الثالثة : فهى أن الحكم المصرى استطاع أن يستخلص للمصريين الكثير من حقوقهم الضائعة لدى الأتراك ومن مصـــالحهم الحيوية لدى الفرنسيين ، وأن يحل ــ فى الدوائر ــ الكثير من المشكلات المعلقة التى كانت لا تتعارض مع مصالح الفرنسيين •

وكما أنشـــأ بونابرت مجلس الوزراء الأول فى مصر أنشأ أيضـــا « البرلمـــان » الأول ، وكان ذلك أيضـــا بهدف استقرار الأمور بين يديه واستتباب الأمن والنظام فى ربوع البلاد •

يقول الرافعى : « أراد نابليون أن يستنير بآراء أعيان العاصمـــة والأقاليم فى المســـائل التى تفرعت عن النظـــام الجديد ففى ٤ من سبتمبر

سنة ١٧٩٨م دعاهم الى الاجتماع فى جمعية عامة تمثل أعيان البلاد ليستشيرها فى النظام النهائى للدواوين التى أسسها ، وفى ادارة الحكومة ووضع نظامها الادارى والمالى والقضائى ، وحدد لانعقاد هذه الجمعية بالقاهرة يوم أول أكتوبر ثم عدل الميعاد الى ٥ من أكتوبر ، وسميت هذه الجمعية : الديوان العام ، تمييزا لها عن ديوان القاهرة »(١) .

ومراسيم تشكيل الديوان العام واختصاصاته(٢) تبين بوضوح أنه كان أشبه شيء بجمعية تأسيسية ذات طابع تشريعى . وهى تعد أول تجربة عرفتها مصر فى الحكم النيابى .. جاءت بدخول الفرنسيين وانتهت بخروجهم . ولا ينتقص من قدرها أنها جاءت وليدة رغبة الاستعمار الفرنسى فى اقامة واجهة من الحكم المصرى يؤلبها من ناحية على الترك والمماليك ، ويستخدمها من ناحية أخرى حلقة اتصال بين الشعب وسلطة الاحتلال . ولكن الذى لا شك فيه أن هذه التجارب فى التنظيم « الديمقراطى » على الرغم من قصر مدتها واختفائها باختفاء الحكم الفرنسى .. تركت أثرا عميقا فى ذاكرة المصريين شأنها فى ذلك شأن يقظة القومية المصرية خاصة والقومية العربية عامة ، بحيث أصبحت جزءا لا يتجزأ من التفكير السياسى المصرى والعربى ، وعمق تيارها جيلا بعد جيل على الرغم من قوة العوامل والمحاولات التى استهدفت عدم خروج مصر من دائرة التخلف والاستسلام الذى عرفته طوال العصور الوسطى حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وأسفرت هذه التجربة عن تيارين : تيار حكم الشعب لنفسه ، وتيار النزعة القومية اللذين امتزجا حتى تحولا الى سيل عرم اكتسح كل ما أمامه من معوقات الاستقلال والحكم الشعبى .

واذا كان العملاق النائم قد احتاج الى صدمة خارجية كمجيء بونابرت ليستيقظ من سباته فانه لم يعد الى النوم بعد أن رحل بونابرت ورجاله ، بل لقد تدرج فى النهوض كى يحطم الأغلال السياسية

---

(١) تاريخ الحركة القومية للرافعى جـ ١ ص ١٠١ .

(٢) انظر فى ذلك المصدر السابق ص ١٠٣ وما بعدها ، وتاريخ الجبرتى جـ ٢ ص ٢٣٨ ، وما بعدها ، والحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص ٣٦٦ .

والاجتماعية والاقتصادية بكفاحه المتصل واعتماده على فكره وارادته ، يقوده مفكروه وزعماؤه نحو الاستقلال وتركيز السيادة الشعبية .

وقد امتد أثر ما يحدث فى مصر الى جميع أرجاء العالم العربى لأن مصر دائما تمثل القلب من الأمـة العربية ، التى تسلم دائمـا بسلامتها ، وتنزوى وتذبل بانزوائها وذبولها .

واذا كان رفاعة الطهطاوى بعد ثلاثين عاما من انتهـاء الحملة الفرنسية ، قد وضع الأساس الفكرى لفلسفة الحكم المصرى ولمبادىء القومية المصرية والعربية ، فانه فى الحقيقة لم يبدأ من الصفر لأن تجربة الديوان فى عهد نابليون كانت ما تزال ماثلة فى الأذهان ، واتضحت أبعادها لديه بصورة أعم وأشمل ، بعد أن ذهب الى فرنسة على رأس البعثة الأولى فى عصر محمد على ، واطلع هناك على نظام الحكم الفرنسى ، وعلى أفكارهم وفلسفاتهم فى التشريع والآداب والفنون ، فهو يعد بحق نتاج الفكر الفرنسى ، وحصيلة التجربة المصرية ، ورائد النهضة المصرية الحديثة(١) . وأكبر قوة ثقافية فى مصر طوال القرن التاسع عشر ، بل وامتد تأثيره الى غيرها من البلاد العربية(٢) .

ويتضح لنا من كتابه « مناهج الألباب »(٣) أن بعض كتبه كانت تطبع فى بيروت ، وهو يذكر بالتحديد أنه أثناء نفيه بعد موت محمد على الى السودان ، ترجم « وقائع تليماك » لفنيلون ، وأن هذا الكتاب نشر فى بيروت ، أما تأثير رفاعـة الطهطاوى فى المثقفين المصريين ابان القرن التاسع عشر ، فقد كان مزدوجا من خلال اشرافه الشخصى على ادارة مدرسة الألسن ، ورياسته لتحرير « الوقائع المصرية » أو مجلة « روضة المدارس » حيث أصبح مهيمنا على تكوين جيـل من المثقفين

---

(١) انظر ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ من هذا البحث .

(٢) انظر تاريخ الفكر المصرى الحديث : للدكتور لويس عوض ج ١ ص ٤٧ ـ ٦٢ وما بعدها الهلال ١٩٦٩ وله أيضـا المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ص ٩٠ وما بعدها ط أولى دار المعرفة بدون تاريخ .

(٣) انظر مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية لمحمد رفاعة الطهطاوى ط ثانية سنة ١٣٣٠ هـ ـ ١٩١٢م مطبعة شركة الرغائب بالحمزاوى بمصر .

المعلمين أو المترجمين أو الكتاب ، أو الاداريين الذين صاغ أكثرهم على شاكلته وصنعهم على عينه ووجههم وفقا لخطة ثقافيـــة واضحة يسرت أهم المراجع العلمية والأدبية وأحدثها وكذلك من خلال كتبه الكثيرة التى كان المثقفون يتداولونها ويتأثرون بها • وقد طبع كتابه « تخليص الابريز » ثلاث طبعات فى سبعين سنة ، ــ الأولى سنه ١٨٣٤ ، والثانية فى ١٨٤٩ ، والثالثة فى ١٩٠٥ ــ أما كتاب « مناهج الألباب » فقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٨٦٩ والثانية سنة ١٩١٢ م(١) •

هذا عدا كتبه الأخرى فى التربيـــة والعلوم والتاريخ ، فهناك ــ اذن ــ تيار قوى من الرأى العـــام تكون بفضل كتابات رفاعة الطهطاوى وبفضـــل كتابات تلاميذه الكثيرين • وكان تأثير الفكر الفرنسى واضحا كل الوضوح عند رفاعة الطهطاوى وعند تلاميذه • ونحن نعرف أن معظم البعثات التعليمية فى عهد محمد على ومن بعده فى عصر اسماعيل كانت تتجه الى فرنسة ، وأنها كانت تجد هناك كل عون واخلاص فى التوجيه العلمى والأدبى والسياسى والاجتماعى وسبب ذلك أن فرنسة كانت تنافس انجلترة على النفوذ والسلطان فى كثير من بلاد العالم ، خاصة بلاد الشرق وبصفة أخص مصر قلبها ومحورهـــا جميعا ، فكانت فرصة لفرنسة انتهزتها بعلم وبصيرة لنقل أفكارها وتعاليمها الى مصر ، لتكسب بذلك نفوذا فكريا يساعدها على نشر مبادئها وآرائها فى العالم العربى من جهة وليكون تمهيدا لنفوذهـــا السياسى والعسكرى من جهة أخرى •

وكان تأثير ذلك على الأدب واضحا ، لأن الأدب معان وأساليب ترتفع وتهبط بارتفاع الثقافة وهبوطها ، فاذا تثقفت جماعات من أبناء الشعب ثقافات متعددة سواء عن طريق البعثات أو الاحتكاك بالعلماء من الأجناس الأخرى ، فان ذلك يعود على الأمة بالخير ويضع فى تربتها بذورا ما تلبث أن تحور نباتا حسنا فى مختلف فروع العلوم والآداب ،

---

(١) وهذه الطبعة عرفت هكذا « كتاب مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » تأليف أوحد زمانه ، ونادرة عصره وأوانه ، المجـد فى نفع وطنه بنشر النافع ، المرحوم الأمير المعظم رفاعة بك رافع ، ناظر قلم ترجمة وأعضـاء مجلس القومسيون ، طبعة ثانية عنى بتصحيحها طبقا للنسـخة المطبوعة بدار الطباعة الأميرية الكبرى ، حقوق الطبع محفوظة لحفيد المؤلف السيد محمد رفاعة ، مطبعة شركة الرغائب بشارع المنجـلة بالقـرب من الحمزاوى بمصر سنة ١٣٣٠هـ ــ ١٩١٢م (٤٥٠ صفحة) •

وقد يبدو الأثر سريعا ، والثمر دانيـــا فى الأدب أكثر •• حيث التأليف والترجمة والخطب والشعر والمحادثة ، والمناظرة وما الى ذلك مما تموج به منتديات الأدباء والعلماء •

وقد تفاعل الشعب المصرى مع هذا الرعيل من أبنائه ، يتلقف ما يكتبه ويناقش ما يراه ، ويتابع أفكاره فتحسن بذلك أسلوب الكتابة ، وارتقت معانيها ، وهذبت ألفاظها ، وأصبح فى مصر نوع جديد من الحياة ومن التفكير لم يكن معروفا قبل ذلك ، ولم يكن فى الامكان تحقيقه من غير ما تم فعلا من الاتصال بين الشرق والغرب ويجدر بنا أن نشير هنا الى حقيقة :

هى أن تلك الثقافات الوافدة كانت مفيدة فى الحياة المصرية الى درجـــة بعيدة ، ولكنها كانت أيضا ذات خطر جسيم ، •• اذ كان من الممكن ــ لولا وجود « الأزهر » الشريف ــ جامعة الاسلام العريقة ــ أن تقضى على اللغـــة العربية الفصحى أولا ، ثم تنقل اللسان المصرى الى اللغة الفرنسية أو الانجليزية أو غيرهما من اللغات كما حدث فى الجزائر والمغرب ، وكثير من بلاد آسية وافريقية ثانيا ، ثم تنقض على الدين الاسلامى فتمحوه ثالثا • ولكن الله أراد غير ذلك ، فكانت طلائع طبقة المثقفين من أبناء الأزهر والمعاهد الدينية فأقاموا توازنا فكريا واجتماعيـــا ودينيا بين ما هو وافد من الغرب ، وبين ما يتصل باللغة العربيـــة والدين الاسلامى ، وبذلك لم يستطع الفكر الجديد أن ينتصر كليـــا فيدمر كل شىء ، كما لم يستطع الفكر القديم أن يسود فيوقف عجلة الحياة عن السير فى اتجاهات التقدم والتجديد •

ويشير الى ذلك الدكتور أحمد أمين(١) فيقول : « وبجـــانب ذلك كان هناك طبقة أخرى من مثقفى الأزهر والمعاهد الدينية الأخرى يحيون حيـــاة قديمة وعلى نمطهم القديم ، وعلى تفكيرهم المألوف ، وقلما يصل اليهم شىء من الثقافة الغربية ، فكان هناك احتكاك آخر من جنس آخر هو احتكاك بين العقلية القديمـــة والعقلية الحديثة ، والعلـــم القديم ، والعلم الحديث ، والأدب القديم والأدب الحديث ، والفنون والصناعات

---

(١) انظر قصة الأدب فى العالم للدكتورين (أحمد أمين ، زكى نجيب محمود) جـ ٣ ص ٢٨٣ طبع مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م .

القديمة ، والفنون والصناعات الحديثة ، وبعبارة أخرى كان هناك احتكاك في الأمة الواحـدة بين طائفتين ومدنيتين وعقليتين .. كالاحتكاك الذى وصفناه بين الشرق والغرب . وأثر ذلك فيما نحن بصدده الآن من وجود أساس لمدنيتين وعقليتين ظلتـا تعملان جنبا الى جنب وتؤثر كل منهما في الأخرى أثرا يضعف ويقوى بالأحداث الى يومنا هذا » .

وعلى الرغم من هذا الصراع الذى عرف بين الأدباء باسم المقلدين والمجددين ، أو انصـار القديم وأنصـار الجديد ، أرى أن مصر في هذه الحقبة كانت في حاجة ملحة الى العنصرين ، وكان من فضل الله عليهـا أن يشتد الصراع بينهما حتى تشحذ الأفكار ، وتنبلج الآراء ، وتستضيء الجماعات ، ويدور الحوار الذى هو الموجه دائما الى دارات التقدم ، والهادى أبدا الى سواء السبيل .

وقد ظل هذا الحوار هادئا لينا منذ سنة ١٨٣٣ م ، أى منذ صدر كتاب رفاعـة الطهطاوى رائد النهضة « تخليص الابريز في تلخيص باريز » حتى سنة ١٨٨٢ م ، أى : حتى وقوع الاحتلال الانجليزى لمصر ، وسـقوط الثورة العرابية بين أنيـاب المستعمر ، وأطماع المنافقين والمخادعين من المصريين .

وسوف نتعرض لذلك بتفصيل أوفى حين نتحدث عن الاحتـلال والاستقلال ، وما حدث من صراع فكرى بين هذا وذاك .

على هذه الصورة كان اتصـال مصر بفرنسة بعد حملة نابليون ، لقـاء فكرى ، واقتباس علمى وعزل سياسى ، وفى جميع الحالات كانت فرنسـة تحاول أن تبدو بريئة من دم ابن يعقوب ، فهى لا تطمع في احتلال أو استغلال ، كما لا تهدف الى النيـل من اللغة أو الدين ، ولكن على الرغم من هذا المظهر البرىء كانت أفعالهـا ومواقفها مع كثير من الدول التى احتلتها ، والتى كانت تخضع لنفوذهـا في ذلك التاريخ ، وما تلاه تدل على أنهـا كانت تحاول التمكن من مصر لغويا وثقافيا ودينيا واجتماعيا لتحولها بعد ذلك هيكلا ممسوخا لا هو بالعربى ولا بالفرنسى ولم يحل بينها وبين غايتها الا وجود الأزهر ، ونفر من بنيه وهبهم الله الثبات واليقين ، وقوة الحجة والايمان بالله والوطن والعروبة أمثال رفاعـة الطهطاوى ، وحفنى ناصف ، وعبد الله النديم ،

والشيخ محمد عبده ، وغيرهم ممن صانوا اللغة والدين فى هذه الحقبة السوداء •

وأما انجلترة فقد كانت عينها على مصر ترقبها منذ القرن الثامن عشر ، وتتابع أخبارهـــا وأخبار تركية التى كانت تفرض سلطانها عليها ، وتعمل من طرف خفى للوقيعة بينهما • بل وتنشط فى جهات عديدة ضد تركية نفســـها لتضعفها حتى تتمكن بعد ذلك من مصر • وحين جاء نابليون بجيوشه ونزل الى الاسكندرية سنة ١٧٩٨ م لاحت الفرصة أمام الانجليز للتدخل باسم الدفاع عن الامبراطورية البريطانية فاشتبكت مع القوات الفرنسية فى موقعة أبى قير الشهيرة ، ودمرت الأسطول الفرنسى ، وانتهت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٨٠١ م ولكن الانجليز زادت شهوتهم الى هذه الأرض الخصبة فحاولوا أن يكسبوا ثقة تركية بهم ، وأن يستقل المماليك بشئون البلاد ويتولوا هم حماية شواطئها ، ولكنهم فشلوا فى تحقيق ذلك ، فاتجهوا الى القوة وأرسلوا حملتهم المعروفة بحملة « فريزر » الى مصر سنة ١٨٠٧ م كى يحتلوها ويحققوا لأنفسهم ما فشل نابليون فى تحقيقه من اقامـــة امبراطورية انجليزية فى الشرق تكون سندا وظهيرا لامبراطوريتهم فى الغرب ، ولكن الشعب المصرى وأهل رشيد الأبطال تصدوا لهذه الغزوة الاستعمارية الجديدة ، وهزموا الانجليز هزيمة منكرة برشيد فى هذه السنة • وكان ذلك كافيا لردع الانجليز وكفهم عن مصر خمسة وسبعين عاما الى أن وجدوا الفرصة مواتية مرة أخرى حين قامت ثورة عرابى ، فجاءوا بروح الثأر والطمع والغدر ، وتمكنوا من احتلال مصر فى هذه المرة ، ونفى ثوارها ومحاولة طبعها بطابعهم فى كل شىء(١) •

وقعت الهزيمة العسكرية للانجليز فى رشيد سنة ١٨٠٧ م ولكنهم بدأوا فورا فى التخطيط لوجود البديل ، فحاولوا بسط نفوذهم عن طريق الارساليات التبشيرية والتعليمية كما فعلت فرنسة وأن يجعلوا من هذه الارساليات سبيلا للتدخل فى شئون مصر واحتلالها ، كما فعلوا قبل ذلك عن طريق شركاتهم التجارية فى الهند حيث مكنت لهم هذه الشركات من غزو الهند واحتلالها وجاءت أول بعثة تبشيرية انجليزية الى مصر سنة

---

(١) انظر تاريخ مصر السياسى لمحمد رفعت ج ١ ص ٩٠ ــ ٩٣ وما بعدها نهضة مصر ١٩٥٠ م •

١٨٤٠ م ، وهى بعثة اسكتلندية بروتستانتية ، وفتحت لهـا مدرسـة بالاسكندرية وتلتها بعثة أخرى سنة ١٨٦٠ م برياسة « مس وتلى » كريمة رئيس أساقفة « دبلن » ، وكانت فتاة دؤوبا مصابرة • ومنحها الخديوى اسماعيل قطعة أرض رحبة بالفجالة ، وأمدها بالمـال لتنشىء مدرسة صارت فيما بعد من أرقى مدارس مصر ، وأقبل عليها الفتيات المصريات والأجنبيات ، ولا سيما بعد أن فتح اسماعيل المدرسة السنية سنة ١٨٧٣ م تشجيعا على تعليم البنات ، ووضعها تحت رعاية احدى زوجاته •

كانت مصر فى هذه المدة ـ أى : على مدى نصف قرن تقريبا ـ تستفيد بالتعلم والترجمة والاقتباس والتقليد من فرنسة وانجلترة على حد سواء ، بل وظهر عنصر ثالث وهو أمريكة حيث جـاءت أول بعثة أمريكية الى مصر سنة ١٨٥٥ م فى عهد سعيد ، واستقرت بالقاهرة وكانت محل رعاية سعيد وعنايته • ومن القاهرة أخذت هذه البعثة تنشر رسالتها فى مصر والشرق العربى كله ، يساعدهـا فى ذلك مال موفور وأساليب تربوية حديثة ، واهتمام صادق من أعضاء البعثة بتحقيق غايتهم ، وقد تمكنت هذه البعثة من الوصول الى كل مدن مصر ، ومراكز أقاليمها ، وأسست فيها مدارس تنشر تعاليمها حتى وصل عدد مدارسها فى سنة ١٩٣٢ م الى ما يزيد عن اثنتين وأربعين مدرسة بها حوالى ٦١٩٤ تلميذا وتلميذة(١) •

ووصلت من القاهرة الى بيروت ودمشق ولاقت هناك أرضا خصبة ، ومجالا أوفر مما لاقته فى مصر ، وذلك لكثرة المسيحيين هناك واستعدادهم للتعامل مع الأمريكيين فكريا ودينيا واجتماعيا ، ولكن على الرغم من جهود البعثات الانجليزية والأمريكية ، ظل سلطان الثقافة الفرنسية هو الغالب والمسيطر ، وفى خضم هذا الصراع الثقافى برز عامل جديد كان له أثر كبير فى تنبيه المصريين الى خطر الثقافتين والى المحاولات التى تدبرها كل فئة لتكون صاحبة الأمر والنهى فى مصر عن طريق نفوذها ، ومن يدين لها بالفكر والرأى من المصريين • ذلك العامل هو امتياز قناة السويس الذى منحه سعيد لمـا سمى باسم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية •

---

(١) انظر احصاء قسم التسجيل بوزارة التربية (سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢) •

والتى كونها فرديناند دلسبس المهندس الفرنسى فى سنة ١٨٥٨ م ، وكان عقدا الامتياز اللذان منحهمـــا سعيد للشركة فى سنتى ١٨٥٥ م ، ١٨٥٦ مجحفين بحق مصر اجحافا عظيما • واهم ما فيهما : تصريح سعيد باشا عن نفســـه وعن خلفائه من بعده ان الملاحه فى القناة بين السويس وبلوز أو الفرما على البحر الأبيض المتوسط حرة لجميع سفن العالم بدون تمييز أو تحفظ بشرط دفع المكوس المطلوبة ، ومنها أنه لا يجوز للشركة أن تمنح أى فرد أو أية شركة امتيازات لا يتمتع بها الجميع ، وأن توزع أرباح الشركة على النحو الآتى : ١٥ ٪ للحكومة المصرية و ١٠ ٪ لمؤسسى الشركة ، و ٢ ٪ للمديرين ، والباقى لحاجات الشركة والمساهمين ، وأن مدة عقد الشركة ٩٩ سنة ابتداء من افتتاحها وبعد انتهاء هذه المدة تصير القناة ملكا للحكومة المصرية ، واشترط فى نهاية العقد لزوم موافقة الباب العالى قبل مباشرة العمل •

ولمـــا توقف الباب العالى عن اقرار عقد الامتياز بايحاء من الحكومة الانجليزية ، اعتمد دلسبس على تقرير اللجنة الدولية التى تكونت من كبار مهندسى العالم ، وزارت مصر سنة ١٨٥٦ م لبحث الموضوع على الطبيعة ، وفيه اتفق رأيها على أن حفر القناة بين السويس ، وخليج بلوز هو الحل الوحيد لمسألة وصل مياه البحرين الأبيض والأحمر ، وأن تنفيذ هذا المشروع ممكن ، ونجاحه مضمون ، وعلى ذلك أخذ دلسبس على عاتقه بمساعدة الوالى مهمة البدء فى العمل فى أبريل سنة ١٨٥٩ م دون انتظار لموافقة الباب العالى(١) •

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الصراع بين فرنسة وانجلترة فى مصر ينتقل من صراع ثقافى ظاهر وسياسى مختف الى صراع سياسى واضح ، وثقافى أكثر وضوحا • وبدأ المصريون يشعرون بالخوف من سوء المصير • وأخذ القادة الأحرار المخلصون يدعون الى الحذر واليقظة حتى لا تقع البلاد فريســـة فى يد الأجانب • خاصة أن سعيدا كان ولاءه للأجانب أكثر من المصريين • وكان لا يهتم بمصر قدر اهتمامه بنفســـه ، وأصدقائه من الغربيين • ويتضح لنا مدى الصراع الانجليزى الفرنسى حول القناة من قبل انشائها فى ذلك التساؤل الذى أثير فى مجلس العموم البريطانى

---

(١) انظر تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية لمحمد رفعت (باشا) ص ١٤٨ ، ١٤٩ . دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ •

فى يونية سنة ١٨٥٧ م فقد سئل « بالمرستون » الوزير الانجليزى عن سبب اعتراضه على مشروع القناة ، فقال بصراحته المعتادة : « ان حكومة جلالة الملكة قد استخدمت منذ خمسة عشر عاما حتى اليوم كل نفوذ لها فى القسطنطينية لتمنع تنفيذ هذا المشروع ، وانى أعتقد أنه أحد تلك المشروعات الخيالية التى تفرض من حين الى حين على الأغرار من أصحاب رؤوس الأموال ، وأعتقد أنه لا سبيل الى تنفيذه من الوجهة المادية الا بنفقات تزيد كثيرا على ما يرجى منه من النفع ، ولذلك أعتقد أن الذين قد يضعون أموالهم فى هذا المشروع سيجدون أنفسهم فى آخر الأمر مخدوعين خائبى الأمل »(١) .

وهكذا بدأت حلقة الصراع تتسع ، والمصريون وحدهم وسط الدوامة تائهون فرضت عليهم السخرة بأمر سعيد وسلبت حقوقهم فى القناة ، ومنحت أرضهم حواليها للشركة تصنع بها ما تشاء ، وكأنها كلأ مباح ، وتفضل عليهم دلسبس بـ ١٥ ٪ ، وهو قدر لا يمكن أن يتساوى مع حق الملكية ، وما قام به المصريون من جهد وعناء فى سبيل حفر القناة . ولكن الخديوى اسماعيل — وكان فى أول ولايته رجلا مثقفا واعيا محبا لمصر والمصريين — لم يقبل هذا الوضع المجحف ، فبمجرد وفاة عمه « سعيد » وتوليه عرش مصر سنة ١٨٦٣ م أعلن أنه موافق على انشاء القناة بشرط أن تكون « القناة لمصر ، لا مصر للقناة » وهى كلمته المشهورة وعمل بموافقة الباب العالى على تخليص مصر من الالتزامات التى لا تلائم سيادة البلاد واستقلالها ، فطالب بالغاء السخرة ، واسترداد حق انشاء الترعة الحلوة ، وعودة الأراضى التى وضعت الشركة يدها عليها الى الحكومة فاعترضت الشركة ، واتفق على عرض الموضوع أمام امبراطور فرنسة نابليون الثالث للتحكيم فأجاب الامبراطور اسماعيل الى طلباته مقابل دفع تعويض للشركة قدره ٨٤ مليون فرنك (٣٫٣٦٠٫٠٠٠ جنيها) فقبل اسماعيل الحكم ايثارا منه لمصلحة البلاد ، وعقد مع الشركة اتفاقا احتفظ فيه للحكومة بحق بناء الثكنات والاستحكامات اللازمة لحماية البلاد فى منطقة القناة ، كما تقرر أن يكون جميع سكان هذه المنطقة خاضعين لقوانين البلاد وادارتها .

وفى مارس سنة ١٨٦٦ م أصدر الباب العالى فرمانه بالموافقة على

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٧ .

انشـــاء الشركة ، أى بعد حوالى ثمانى سنوات من بدء العمل فيها ، وبذلك ثبتت قدم الشركة فى مصر ، وفى نظر الدول وتفرغت لانجـــاز المشروع ، فتقدم العمـــل بسرعة ، وفى ١٧ من نوفمبر سنة ١٨٦٩ م افتتحت القناة ، وارتبط الشرق والغرب بأقصر طريق بحرى عرفه العالم منذ فجر التاريخ •

ولكن من المؤسف حقا أن « اسماعيل » ذلك الرجل الذى حرص فى أول ولايته على أن يسترد لمصر ما سلب منها فى امتيازات « سعيد » ما لبث بعد قليـــل من افتتاح القناة أن باع للحكومة الانجليزية أسهم القناة التى كانت لمصر وعددهـــا اذ ذاك ١٧٦٦٠٢ سهما بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات تقريبا أى بأقل من عشر ثمنها قبل التأميم • وبذلك أصبح ما يقرب من نصف أسهم الشركة بأيدى الحكومة الانجليزية ، وأصبحت انجلترة تتمتع فى القناة بنصيب الأسد ، وتوقع الناس لهذا الامتياز أخطر النتائج ، فقال بعضهم فى احدى المجلات الفرنسية : «ان شراء انجلترة لأسهم القناة عمل سياسى بحت واذا لم يكن معناه استحواذ انجلترة على أرض مصر فهو الخطوة الأولى فى سبيل تحقيق هذا الغرض ، اذ يستحيل على انجلترة بعد الآن أن تترك مصر وشأنها » • وكان ذلك بحق مقدمة احتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢ م • أى لم يكن سبب التدخل والاحتلال ثورة عرابى كما هو معروف ، وانما كان ذلك شيئا معدا ومخططا له منذ شراء أسهم القناة فى عهد اسماعيل • ومأثور عن دلسبس أنه اغتبط باتمام هذه الصفقة ، وأنه قال : « ان انجلترة الآن تأخذ نصيبها فى القناة وهو ما كنا قد احتفظنا به لها منذ البداية ، وانى لأعد هذا الارتباط الوثيق الذى انعقد بين رأس المـــال الانجليزى والفرنسى حادثا سعيدا ستفيد منه القناة فى جهودها السلمية لصالح التجارة والصناعة فى العالم » ، ولكن دول العالم الأخرى قد ارتابتها الظنون ، وأحاطت بها الشكوك فى موقف انجلترة ـــ سيدة البحار آنذاك ـــ ولم تعد تطمئن على مصالحها لا فى القناة وحدها بل فى الشرق كله(١) • وفى هذه الحقبة قدم الى مصر جمال الدين الأفغانى(٢) فالتف

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٤٦ ـ ١٥٢ وما بعدها •

(٢) انظر جمال الدين الأفغانى ـ حياته وفلسفته للدكتور محمود قاسم ـ الانجلو المصرية سنة ١٩٦٣ •

حوله الأدباء والكتاب يأخذون عنه ويقتدون به ، فذاعت شهرته ، ونبغ من تلاميذه طبقة من الأحرار والمثقفين أهل الجرأة فى السياسة والأدب والاصلاح(١) ، وفطن هؤلاء الى ما يحاك لمصر فأخذوا ينبهون الأمة الى ما يجب فعله ازاء موقفى فرنسة وانجلترة من قناة السويس ، ويحثون الشعب على التمسك بأرضه ومقاومة المتسلطين والمخادعين من أصحاب النفوذ والغربيين • وكان من نتائج ذلك قيام ثورة عرابى واحتلال الانجليز لمصر • ذلك الاحتلال الذى كان واقعا لا محالة سواء قامت ثورة عرابى أم لم تقم •

وبهذا الاحتلال بسط الانجليز سلطانهم على مصر ، وأخذوا يوجهون أساليب التعليم ومناهجه والحياة السياسية والاقتصادية وفقا لمنفعتهم هم ، لا ما يتفق وآمال البلاد وحاجتها البشرية والاجتماعية والاقتصادية وانتقل التيار الثقافى من فرنسة الى انجلترة لا عن رغبة من المثقفين وأبناء الشعب المصرى ، ولكن عن طريق ارادة المحتل ورغباته التى أصبحت هى القوة الفعلية فى ادارة البلاد وسياستها •

ومن المعروف أن الانجليز بعد احتلالهم لمصر ، أرادوا أن يجعلوا منها مستعمرة ثقافية واجتماعية وزراعية وعسكرية ولكى يحققوا كل هذه الأهداف أرسلوا الى مصر جماعات من ذوى الخبرة فى شئون المستعمرات وعلى رأسهم « افلن بارنج » الذى عرف فيما بعد باسم « اللورد كرومر » والذى ظل فى مصر يأمر وينهى ، ويتصرف كيف يشاء أربعة وعشرين

---

(١) انظر فى الأفغانى الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وفيه مقالات عنه بقلم محمد عبده ، وبعض تلاميذه • وجمال الدين الأفغانى لغدوى حافظ طوقان (طبع مطبعة بيت المقدس سنة ١٩٤٧) وجمال الدين الأفغانى لعبد الستار الهوارى (طبع القاهرة ١٩٢٤) ، وجمال الدين الأفغانى حكيم الشرق (طبع دار العلم للملايين ببيروت ١٩٤٧) وزعماء الاصلاح لأحمد أمين ص ٥٧ ، وعصر اسماعيل للرافعى جـ ٢ ص ١٤٨ ، ومصادر الدراسة الأدبية لداغر ص ١٢٦ • وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٤ ص ٢٧٩ .

ملاحظة : على الرغم مما تقدم هجم الشيخ يوسف النبهانى على جمال الدين وهجاه بشعره هجاء مريرا ، وطعن فى افغانيته وفى مهمته وفى دينه ، وأثبت أنه كان عضوا فى الماسونية ، ورماه بكل موبقة •

عـاما الى أن وقع فى خطيئة « دنشـواى » الكبرى فخرج من مصر غير مأسوف عليه فى سنة ١٩٠٧ م .

* * *

٣ ـ الاحتلال والاستقلال :

وصلت أوضاع مصر الاقتصادية فى عهد اسماعيل الى حالة من الفوضى ، وكثرت عليهـا الديون لدرجـة أعجزتها عن السداد وعن تنظيم شئونها المـالية فى الداخل والخارج ، وبدأت الدول الدائنة لها تبسط نفوذهـا المـالى عليها ، وتتخذ من أرضها مزرعة لها تأخـذ خيراتها والشعب جائع ذليـل . فلما جـاء « كرومر » عمل على تنظيم شئونها المـالية حتى تستطيع سداد ديونهـا . وبدأت بالفعل فى سنة ١٨٨٩ م تسدد أقساط هذه الديون بعد أن كانت عاجزة عجزا كليـا عن تسديد أى قسط منها . وكان هدف « كرومر » من ذلك ليس خلاص مصر من ديونهـا لتحتل مكانتها بين الأمم ، وانما كان الهدف أن يتخلص من الدائنين الفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين حتى لا يكون هناك نفوذ فى مصر الا للانجليز وحدهم ، ومع ذلك ظلت مصر تسدد هذه الديون حتى سنة ١٩٤٢ م ، وخلال هذه المدة كانت موارد مصر كلها تقريباً تذهب فى اتجاهين :

أحدهما المحتل الذى كان يأخذ القطن بأبخس الأثمان ، وكذلك الغلال والفواكه ومعظم المنتجات الزراعية .

والثانى جموع الموظفين ، وبعض المنتفعين بالاحتـلال ورجال الاقطاع والأسرة الحاكمة وبعض الوزراء والساسة . وأما الشعب المصرى فكان نصيبه الكد والكدح ليتجرع كئوس الذل والاضطهاد ويزدرد ألوان الفقر والحرمـان . لذلك كانت حالة مصر الاجتماعية فى وضع مترد للغاية . وهذا أمر طبعى يشـاهد فى كل مجتمع ينتشر فيه الاضطهاد والاستعباد .

ولكن مصر ـ مع كل هذا ـ لم تنس لحظة حقها فى السـيادة والاستقلال وكلمـا لاحت لها فرصة طالبت الانجليز بالجـلاء عن أرضها الطاهرة . ومن المعروف أن شريف ـ باشا[1] ـ طالب الانجليز

---

(١) انظر تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتياراته السياسية لمحمد رفعت (باشا) ص ٤١٠ .

بالجلاء عن مصر فى أغسطس سنة ١٨٨٣م أى قبل نهاية العام الأول للاحتلال • وكان على رأس الحكومة فى ذلك الوقت فانتهز فرصة ارتباك الحكومة الانجليزية بشأن سياستها المالية نحو مصر ، وطالب رسميا بضرورة تقليل القوات البريطانية التى تحتل البلاد حتى لا ترهق بنفقاتهم ميزانية الحكومة وهى اذ ذاك فى حالة تقرب من الافلاس ، ووافقت انجلترة على تقليص قواتها من سبعة آلاف الى ثلاثة آلاف وأن تترك القاهرة وتستقر فى الاسكندرية لولا كارثة (هكس باشا) قائد الحملة الانجليزية أمام المهديين فى السودان اذ أبيدت الحملة الانجليزية عن آخرها أو كادت — وكان عددها عشرة آلاف مقاتل — وسط غياهب الكردفان وغاباته وقفاره ، وبات الناس يتوقعون بعد هذه الكارثة زحف الجموع المهدية على الخرطوم ، وتهديد حدود مصر الجنوبية نفسها • وعلى ذلك ترك جيش الاحتلال على ما كان عليه دون تغيير فى عدده أو مقره — وتأجلت فكرة الجلاء عن القاهرة — وعلى الرغم من المفاوضات الطويلة والمضنية التى دارت مع المحتل ظل كما هو ولم يغادر القاهرة الا فى عام ١٩٤٧م حيث استقر على قناة السويس كما هو معروف ، وكما سيأتى ذكره عند حديثنا عن معاهدة ١٩٣٦م •

وعلى الرغم من اطلاق يد المحتل فى مصر ، وظهور عوامل كثيرة تساعده على ذلك كارتباك مصر ماليا ، ومشاكله فى السودان ، وتهاون الخديوى ، وتواطئه معهم فى حالات كثيرة ، ومساندة بعض المصريين له ، لم يترك الوطنيون ظرفا أو فرصة للمطالبة بالجلاء الا اقتنصوها ، وحاولوا تحقيق ذلك • وكان للأوضاع الدولية دور فى هذا أيضا • ففى سنة ١٨٨٤م جعلت فرنسة مسألة الجلاء عن مصر فى مقدمة أهدافها السياسية الدولية ، وظلت ترعى هذه السياسة وتناصرها حتى شغلت بمصالحها فى شمال افريقية ، وتم الاتفاق الودى بينها وبين انجلترة فى سنة ١٩٠٤م فرضيت انجلترة أن تمد فرنسة نفوذها فى مراكش مقابل أن تترك يدها حرة فى مصر •

وقد حاولت فرنسة حين دعيت لحضور مؤتمر دولى يعقد فى لندن للبحث فى موضوع المالية المصرية حاولت أن تجعل حضورها مشروطا ببحث مسألة الجلاء عن مصر مع بحث الشئون المالية • وردت عليها انجلترة بالموافقة على ذلك ، وكتب لورد جرانفيل فى خطاب له الى الحكومة الفرنسية يقول : « انه يرى من العسير تحديد موعد للجلاء فقد

يكون التاريخ الذى يحدده بعيـــدا أو قريبا غير أن حكومة جلالة الملكة رغبة منها فى ازالة كل ريبة من حيث نياتها فى هذا الصـــدد تعد بأن تسحب قواتها من مصر فى أوائل عام ١٨٨٨م بشرط أن تقتنع الدول بأن انسحاب الاحتلال لا ينبنى عليه احداث أى تأثير فى حالة الأمن فى البلاد ونظامها » • وأضاف اللورد الى ذلك : « انه متى تم الجـــلاء تعتزم حكومة جلالة الملكة أن تقترع على الدول وعلى الباب العـــالى أن تكون مصر حكومة محايدة على غرار حكومة بلجيكة » •

وكان جواب الحكومة الفرنســـية على ذلك أن أعلن « جول فرى » رئيس الحكومة فى مجلس النواب الفرنسى(١) « أن مصر أيها السادة ليست شيئا انجليزيا ولا فرنسيا ، ولكنها أرض ذات صفة دولية أوربية ظاهرة • فأوربة هى التى احتضنتها ومسألة مصر كانت وستبقى دواما مسألة أوربية قبل كل شىء وفوق كل شىء » •

وكان من الممكن ـــ لو استمرت فرنسة على موقفها ولم تنس مبادئها نظير مصلحة مادية تافهة ـــ أن يتم الجلاء عن مصر • ولكن ما ان حضرت فرنسة المؤتمر ، واقترحت الحكومة الانجليزية تخفيض فائدة الدين العام من أربعة فى المـــائة الى ثلاثة ونصف فى المـــائة حتى عارضت فرنسة وتشددت فى موقفها مما أدى الى فشل المؤتمـــر وانتهائه بدون نتيجة • وعلى أثر ذلك سحبت انجلترة وعدها بالجلاء ، وضاعت على مصر فرصة ثانية للتخلص من الاحتلال • لأن فرنسة آثرت أن تضحى بكسب دولى لا شك فيه من أجل فائدة مادية لا تكاد تذكر الى جانب سمعتها الدولية •

وفى سنة ١٨٨٧م خلفت حكومة المحافظين حكومة الأحـــرار بعد استقالتها ورأت هذه الحكومة أن تخفف من حدة التوتر الدولى فأرسلت بعثة على رأسها « درمند ولف » لمفاوضة الباب العـــالى بشأن تحديد تاريخ لجلاء الانجليز عن مصر • وكان على السير درمند أن يزور تركية ومصر ويتفق مع مندوب الســـلطان على تسوية المسألة المصرية ، واعادة السكينة والســـلام الى ربوع السودان ، وقد ظن الانجليز أن لسلطان تركية من النفوذ الدينى والروحى ما يجعل المهدى وأتباعه يستمعون

---

(١) انظر تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتياراته السياسية لمحمد رفعت (باشا) ص ٤١٣ •

الى نصحه ، وفاتهم أن ثورة المهدى كانت موجهة ضد السلطان والخديوى ورجالهم جميعـــا ، وأن الثورة فى السودان بعد كارثة « هكس باشا » قد أصبح لها من الشأن والقوة والذيوع ما لا سبيل الى قمعه الا بالقوة •

وعلى ذلك طوى موضوع تهدئة السودان وتركزت جهود البعثة فى بحث المسألة المصرية • وقد بدىء العمل بتعيين مندوب سام لتركية بمصر هو : النازى مختار باشا ، وجعل المندوبان الانجليزى والتركى يجتمعان بالقاهرة • ثم انتقـــل المندوب الانجليزى الى القسطنطينية وأخـــذ يفاوض مندوب السلطان بشـــأن جلاء القوات البريطانية وتعيين وقت مناسب لذلك • وأخيرا وقع المفاوضون على اتفاق عقد فى مايو ســـنة ١٨٨٧م اتفقـــوا فيه على أن تنسحب القوات البريطانية من مصر بعد انتهاء ثلاث ســـنوات من تاريخ توقيع الاتفاق ، فاذا ظهر بعد انقضاء تلك الحقبة أن هناك خطـــرا يهدد طمأنينة البلاد وسلامتها سواء جاء الخطر من الداخل أو من الخارج ، فان جلاء الجنود البريطانية يؤجل حتى يزول الخطر وبعدها ينسحب الاحتلال • وقد نص فى هـــذا الاتفاق على أن لكل من تركية وبريطانية حقا فى اعادة احتلال البلاد اذا دهمها أى خطر ، وأنه متى هدأت الحال انجلت الجيوش المحتلة عن البلاد • وكذلك نص فى الاتفاق على أنه بعد انسحاب القوات البريطانية واقرار الحكومتين للاتفاق يطلب الى باقى الدول أن تنضم الى الاتفاق وأن تضمن حيدة الأراضى المصرية وسلامتها •

وما كادت تفاصيل هذا الاتفاق تصـــل الى علم الدول حتى أبدت كل من روسية وفرنســـة معارضة شديدة لمواده ، وتقدمت الحكومتان تحتجان لدى السلطان على فحوى الاتفاق ، وتطلب اليه عدم اقراره • وقد قال السفير الروسى فى احتجاجه : « ان الاتفاق معناه تضـــحية حقوق السلطان والنزول عنها مجانا لانجلترة » • وقالت فرنسة : « ان الاتفاق من شأنه أن يصحح مركز انجلترة فى مصر ويجعله مركزا شرعيا تصبح بمقتضـــاه شريكة لتركية فى مصر • وجعلت الحكومتان تشددان الضغط على حكومة الباب العالى حتى اضطر السلطان الى اهدار كرامة مندوبه بعـــدم اقراره للاتفاق • وغادر المندوب الانجليزى القسطنطينية

وهو بادى الغضب خالى الوفاض بعد أن قضى سنتين فى مداولات ومناورات عديمة الجدوى(١) •

ومن الملاحظ أن مصر برجالها وساستها وحكامها كانت غائبة عن هذه المفاوضات التى دارت بين فرنسة وانجلترة سنة ١٨٨٤م وبين انجلترة وتركية سنة ١٨٨٧م • وكأن هذه الأرض كانت ملكا لهذه الدول تقرر لها ما تشـــاء بدون الرجوع الى أهلها الذين يعيشـــون عليها منذ آلاف السنين ، قبل أن توجد هذه الدول ، أو تعرف مكانتها تحت الشمس• وان دل هذا على شىء فانما يدل على أن أوقات الظلام الطويلة التى مرت على مصر منذ بدء الاحتلال التركى سنة ١٥١٧ م حتى الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢م قد أصابت الشعب باللامبالاة وأضعفت الارادة لدى الكثير من الناس ، وأذلت نفوس عامة الشعب فحولتهم الى أجراء أو عبيد ، وبفشل هذه المحاولات الثلاث أهملت انجلترة موضوع الجلاء نهائيا وأودعته زوايا النسيان ، حتى تم الاتفاق الانجليزى الفرنسى فاطمأنت اليه وتفيأت ظلاله ناعمة البال ملاوة من الزمن ظانة أن التقدم المـــادى الذى نعمت به البلاد فى عهد الاحتلال سيطغى دائما على القيم الأدبية والمعنوية للرجال فينسون تاريخ بلادهم وجهاد آبائهم وأجدادهم فى سبيل تحريرها من حكم الأجنبى ، ولكن ذلك لم يطل وسوف نرى كيف تولى المصريون أمورهم بأنفسهم ، وأخذوا ينظمون صفوفهم للمطالبة بالجلاء وحرية الوطن والمواطن •

واذا ما نظرنا الى الثقافة والتعليم بعد الاحتلال فسوف نرى محاولات مستميتة لتحويل التعليم والثقافة المصرية كلية الى تعليم وثقافة انجليزية • وكان الدافع الذى يلهب مشاعر كرومر ويدفعه الى ذلك بحماس بالغ أنه رأى بناء جيدا من الثقافة الفرنسية قد أقامته الارساليات وساعدته بالعناية والرعاية الحكومة الفرنسية ، ورجال الاقتصاد والأعمال الفرنســـيون • كما وجد عددا هائلا من المدارس الفرنسية يتحمس لها من تعلم بها من المصريين ، وبالتالى يعمل على نشر الثقافة الفرنسية • ورأى الفرنسيين يبذلون غاية جهدهم لمســـاعدة هؤلاء الذين يتخرجون فى مدارسهم وأن الفرنسيين يشترطون على الانجليز أن يظل لهم النفوذ

---

(١) انظر تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتياراته السياسية لمحمد رفعت (باشا) ص ٤١٠ ـ ٤١٥ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ •

الأول فى بعض المصالح الحكومية كما كان شأنهم قبل الاحتلال ، وأنهم يشرفون على مصلحة الآثار المصرية ، ومدرسة الحقوق ويستولون باموالهم وقروضهم وشركاتهم ومؤسساتهم التجارية على أكثر من نصف المصالح الاقتصادية ، والأموال المنقولة بمصر • وأن معظم العاملين بهذه الشركات من المصريين المتخرجين من المدارس الفرنسية ، وأن التعامل بينهم وبين من يتعامل معهم من الشركات فى داخل البلاد وخارجها يجرى باللغة الفرنسية ، وليس هذا فحسب • وانما المحاكم المختلطة ورجال القضاء والقانون أيضا يتعاملون باللغة الفرنسية • رأى ذلك كرومر وأحس بخطورته على الاحتلال الانجليزى وعلى الولاء له ، فحرص على وضع سياسة تعليمية جديدة فى مصر تتولاها انجلترة وتشرف عليها اشرافا كليا • واتبع فى هذه السياسة طرقا ووسائل ظلت مدة طويلة هى السائدة فى مصر خاصة فى عهده • وبعد رحيله أيضا مدة بقاء « دانلوب » الذى جاء الى مصر لهذا الغرض سنة ١٩٠٦ م وكانت هذه السياسة تقوم على الأسس التالية :

١ ــ اعداد جماعات من الشبان المصريين لتولى الأعمال الكتابية والادارية والفنية المتواضعة فى الحكومة وفى الشركات ، وخاصة الشركات الانجليزية التى استحدثت لتنافس الشركات الفرنسية •

٢ ــ تعميم مدارس القرى فى الريف ، ومدارس المساجد فى المدن لمحاولة محو الأمية بين الفلاحين والطبقات الفقيرة بمصر •

٣ ــ محاولة تقليد « مس وتلى » الفرنسية فى تعليم البنات والتأثير عليهن بالثقافة الانجليزية ، ليكن الوعاء الذى يتناول منه جيل المستقبل غذاءه الفكرى والاجتماعى والنفسى وبالتالى يكون مواليا للانجليز بالثقافة والتربية •

٤ ــ العمل على سلب مصر أعز ما تملك وهو اللغة العربية وجعل اللغة الانجليزية هى لغة التعليم فى جميع المراحل ، وكذلك القضاء على اللغة الفرنسية بحذفها من مناهج التعليم ، أو على الأقل تقليصها الى أصغر قدر ممكن •

وقد منيت هذه السياسة بالفشل الذريع ، لأنها :

أولا : جاءت ضد تيار الثقافة الذى ترجع جذوره الى عصر محمد على والذى نما وترعرع فى عهد اسماعيل ، كما جاءت مناهضة للآمال

الوطنية التى برزت وارتقت برقى اللغة العربية بعد وجود المطابع فى مصر •

وثانيا : جاءت على يد رجل ليس خبيرا بشئون التعليم ، ولا بنفسية المصريين الذين يرون فيه محتلا غاصبا ، على عكس فرنسة التى كانت ثقافتها تفد الى مصر غير مرتدية رادء الاحتلال ، كما كانت تحمل فى مضمونها مبادىء الثورة الفرنسية التى تنادى بالحرية والاستقلال والتقدم •

وثالثا : لأن المستشار الانجليزى « دانلوب » الذى تولى هذه المهمة من سنة ١٩٠٦ م الى سنة ١٩١٩ م لم يكن يعرف من شئون التعليم قليلا أو كثيرا ، كما لم يكن محل قبول من المصريين سواء فى الوزارة أو على مستوى الادارات التعليمية والمدارس ، وذلك لأنه قسيس اسكتلندى مغال فى نظرته الاستعمارية الى الشعوب ، وكان يعتقد أن الشعوب الملونة لا تصلح لادارة أمورها بنفسها ، وأنهم لابد لهم من قيادة غربية حتى تستقيم أمورهم ، وكان يعامل المصريين على هذا الأساس ، فيصدر الأوامر والنظم ، والقوانين المتعددة كما تتصورها عقليته ، بدون الرجوع الى المصريين أو استشارتهم فى بعض الأمور التى لا يعرفها الا أصحاب البلد الأصليين ، كما كان لا يتقبل آراء الآخرين أو يصغى اليهم • لذلك بدأ « دانلوب » سنة ١٩٠٦م وانتهى سنة ١٩١٩م من حيث بدأ فلا تقدم يذكر فى تعليم البنات ، ولا اقبال من الشعب فى تعليم البنين • وكل ماتركه من آثاره السيئة جماعات من الموظفين المصريين لا رأى لهم ، ولا قدرة على الابداع والابتكار ، ثقافتهم محدودة ، وقدرتهم على افادة الأمة تكاد تكون معدومة ، ملئت رؤوسهم بمعلومات غير مفيدة لهم فى حياتهم الفعلية ، وغير مفيدة للوطن فى خلق ثقافات واتجاهات وحرية رأى • لا يملكون الا الخضوع لرؤسائهم الانجليز الذين كانوا ينتشرون فى كل مصالح الدولة ، ولا يبتغون الا رضا هؤلاء الرؤساء ، لأنهم بلا طموح ، وليس فى امكانهم حتى لو تطلعت أنفسهم الوصول الى المراكز المرموقة لأنهم لم يعدوا لذلك ، ولم يتح لهم تعليمهم التعرف على الوسائل التى تقود الفرد وبالتالى أمته الى الرقى ، والتطلع الى التقدم ، والأخذ بأسباب الحضارة •

هذا من ناحية التعليم نفسه ، وأما من ناحية النظم واللوائح

والقوانين فقد قيد « دانلوب » التعليم بقيود سقيمة ، وبقوانين جافة لا روح فيهـا ولا هدف منها سوى العمل على حشو رؤوس التلاميذ بشتى المعلومات المفيد منها وغير المفيـد ، وقد أدت هذه القوانين الى أن يصبح المعلم آلة صماء أمام القانون ، والتلميذ آلة فى يد المعلم ، وبهذا فقد المعلم والتلميذ روح التربية وأصبحت المدارس بالنسـبة لهما سجنا أو كالسجن والهم الأكبر الذى يشـغل التلميذ ، والمدرس ، وناظر المدرسة ، ووزارة المعارف هو نجـاح التلميذ فى الامتحـان • أما العناية بالتقدم العلمى والفكرى لدى المعلم فهو شىء معدوم ، والحرص على بناء شخصية التلميذ ، ودراسة مواهبه واستعداده ، والتعرف على ميوله وقدراته أمر بعيد كل البعد عن تفكير الوزارة ، وعن اهتمام المشرفين عليها والقائمين بالأمر فيها • خاصة « دانلوب » ومن معه من المستشارين الانجليز الذين لا يهمهم من التعليم الا أن يكون طريقا للقضـاء على اللغة العربية ، والثقافة الفرنسية ، واعداد من يحتاجون اليه من صغار الموظفين والكتبة والتابعين •

كان هذا هو وضع التعليم فى مصر منذ الاحتلال الانجليزى حتى ثورة سنة ١٩١٩م وهو بلا شك وضع عقيم لا يصنع رجالا ولا ينشىء ثقافة ، ولا يخلق روحا استقلالية قوامها الحرية والشجاعة ، وانمـا يخلق نفوسا ضعيفة يسيطر عليها الوهم والخوف والأنانية المـادية ، والتبعية الذليلة المقوتة •

وحين تولى المصريون شئون التعليم بعد ثورة ١٩١٩ لم يستطيعوا التخلص من هذه النظم المفسدة للتعليم ولروح النشء مدة طويلة وذلك لأن القيود التى وضعها كرومر ودانلوب كانت قيودا قاسية والتخلص منها يحتاج الى ثورة ملؤها الحرية والشجاعة والحفاظ على الكرامة والوطنية ولم يكن ذلك ممكنا والمحتل ما زال جاثما على أرض الوطن وفوق هذا كله أن المصريين الذين تولوا ادارة التعليم كانوا من ذوى التربيـة الانجليزية • فكيف لهم أن يتخلصوا من قيودها حتى ولو أرادوا ؟ •

ولأن الفساد كان أعظم من أن يزول فى سنوات معدودات ظلت آثامه ردحا من الزمن تسيطر على المدرسة المصرية وظل المصريون دون تغيير يذكر فى وسـائل الثقافة وطرائق التعليم طوال هذه الحقبة حتى ظهر عدد من أعلام الرجال ، الذين لم يتشربوا السـموم التعليمية من يد الانجليز ، اذ كان بعضهم من شباب البعثـات التى سافرت الى الخارج

والبعض الآخر كان من الموهوبين الذين ينبتون فى الأمم نبات الزهر على شواطىء القنوات من غير سابقة بذر أو تدبير •

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن أثر الانجليز فى فساد التعليم فيقول(١) : « وهناك التعليم الرسمى المدنى تنشئه الدولة وتقوم عليه ، وقد كان الى الآن متواضعا هين الأمر ، يقصد به الى أغراض متواضعة هينة ، وقد رسم الانجليز طريقه محدودة ضيقة فأفسدوه وأفسدوا نتائجه وآثاره أشد الفساد ونحن نبذل منذ أعوام جهودا مختلفة مضطربة لاصلاح ما أفسد الانجليز ، فلا نكاد نوفق فى بعض الأمور حتى تعدو العاديات فتردنا الى الاخفاق والخذلان » •

وكان من نتيجة القصور التعليمى فى مراحله المختلفة أن أصبح الجهل سمة أساسية حتى عند من يحملون شهادات متوسطة أو جامعية • وأصبح مألوفا أن نجد متعلما يجهل أضحل الأمور عن الأدب والتاريخ والحضارة والعلوم • لأن كل ما يعرفه هو بعض المحفوظات التى تلقنها فى المدرسة من غير بصيرة ،أو تدارسها بالجامعة من غير وعى ليخرج بعد ذلك الى الوظيفة فينسى ما تعلم ، ويهجر القراءة حتى حول أيسر الأمور وكأنه حين كان يقرأ فى التعليم كان كمن يتدرب على النجارة أو الحدادة أو الحياكة أو غيرها من الأمور التى يتعلمها الصناع بالمحاكاة والتقليد من غير حاجة الى معاناة فكرية دائمة ، أو دربة على البحث متواصلة •

ويصف لنا هذه الحالة الدكتور طه حسين — أيضا — فيقول(٢) : « فما زال الشبان يأتون الى الجامعة ضعافا قاصرين ، وما زال الشبان يستقبلون حياتهم جاهلين لها ، عاجزين عن التصرف فيها ، ضعافا عن أن ينهضوا بأعبائها يذهبون الى الدواوين موظفين ، فتشكو الدواوين من سوء اعدادهم للعمل فيها ، ويعرضون أنفسهم على أصحاب الأعمال الحرة ، فلا يكادون يجربونهم حتى يزهدوا فيهم ، ويعرضون أشد الاعراض عن استخدام زملائهم لأنهم لم يعدوا للأعمال الحرة اعدادا صالحا » •

---

(١) انظر مستقبل الثقافة فى مصر للدكتور طه حسين ص ٧٢ وما بعدها ، نهضة مصر سنة ١٩٤٨ •

(٢) انظر مستقبل الثقافة فى مصر للدكتور طه حسين ص٢٣٣ وما بعدها، نهضة مصر سنة ١٩٤٨ •

ولا شك أن شعبا هذا وضع التعليم فيه ، وتلك حالة أبنائه العلمية لا تجد فيه ميلا الى القراءة والاطلاع والثقافة ، وبالتالى لا تجد فيه خلقا أو ابداعا فى الآداب والعلوم والفنون ، ولكن الشعب المصرى على الرغم من هذا الوضع المتعمد الذى استمات الاستعمار فى فرضه عليه ، استطاع أن ينبت رجالا أفذاذا قادوا كفاحه السياسى ، ووضعوا علامات على الطريق لتقدمه الاجتماعى ، وأسسوا بناء فكريا وأدبيا ونفسيا وعلميا • يعد نواة لتقدم الأمة وانطلاقها ، وان كان فى الحقيقة لبس بالدرجة الكافية ، أوبالمقدار الذى بدأه جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وغيرهما من الرجال الذين حركوا روح الأمة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر •

ويصف الدكتور أحمد أمين(١) الفرق بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية فى نفوس المصريين فيقول : « وقد كان ذلك احتكاكا مكروها — يقصد الاحتكاك بالثقافة الانجليزية — على عكس الاحتكاك الأول ، ومع هذا أثر فى استمرار نقل المدنية الى مصر ، وتعليم كثير من أبناء البلاد اللغة الانجليزية (حيث) يطلعون بها على العلوم والآداب والفنون الانجليزية ، وارسال بعثات الى انجلترة للدراسة فيها •

ولقد نشأ عن ذلك كراهية المصريين للحكم الأجنبى وشعورهم بعزتهم التى امتهنت ، وقوتهم التى ضاعت ، وكرامتهم التى أهينت ، واستقلالهم الذى ضاع واطلاع كثير ممن تثقفوا الثقافة الأجنبية حتى الانجليزية على ما بذل الأوربيون فى المحافظة على استقلالهم وشعورهم بوطنيتهم ، فأوحى اليهم ذلك أن يحاربوا الاحتلال ، ويطلبوا الاستقلال ، ويسلكوا فى ذلك السبيل التى سلكها الأوربيون أنفسهم فنشأ فى البلاد نوع من الأدب السياسى تجلى فى الصحف ، وفى الشعر وفى الخطابة مثله أولا جمال الدين الأفغانى ثم عبد الله النديم ، ثم مصطفى كامل ، وشعر به أولا البارودى ثم صبرى وشوقى وحافظ • وهكذا كان للاحتكاك بنوعيه أثر بليغ واضح فى الأدب على اختلاف أشكاله » •

* * *

(١) انظر قصة الأدب فى العالم ج ٣ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ مع تصرف •

الفصل الثالث

الأدب والثقافات الوافدة

١ ــ أثر الثقافتين الفرنسية والانجليزية على الأدب فى مصر :

ولست مع أستاذنا الدكتور أحمد أمين فيما ذكره فى هذا الموضوع لأن الحقيقة والواقع يخالفان ذلك • فنحن لا نجد أثرا للثقافة الانجليزية فى الأدب المصرى طوال الربع الأول من القرن العشرين وكذلك فى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر الذى تربع الاحتلال فيهما على عرش العلم والأدب والثقافة المصرية • بل نرى عكس ذلك توقفا أدبيا وعلميا ، وتراجعا فكريا واجتماعيا • كان من الممكن أن يعود بمصر الى حالتها التى كانت عليها فى أوائل القرن التاسع عشر لولا جماعات من المثقفين بالثقافة العربية الخالصة ، والثقافة الفرنسية المتحررة الذين ظلوا يحملون مشعل النور يضيئون به للمصريين طريقهم وسط ظلام الاحتلال وجهل الخديوى ، وأمية الشعب ، وتهافت عدد من أفراده على السلطة والانطواء تحت لواء المستعمر •

وقد رأينا معظم مفكرى وأدباء ، وشعراء هذه الحقبة من أرباب الثقافة الفرنسية ، أو العربية الخالصة من أمثال الشيخ محمد عبده ، ومصطفى صادق الرافعى ، وعبد العزيز جاويش ، وعلى يوسف ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وكأحمد شوقى ، واسماعيل صبرى ، وقاسم أمين ، ومصطفى كامل ، ولطفى السيد • وغيرهم ممن أجادوا الاتصال بالثقافة الفرنسية ، وأخذوا منها أفضل ما فيها ، فكانوا قادة الفكر ، وأمراء الشعر ، وزعماء السياسة • فأقضوا مضجع الانجليز فى مصر وخارجها ، وكانوا كالصخرة التى تحطمت عليها كل مشاريع « كرومر » البغيضة من القضاء على اللغة العربية الفصحى ، وعلى الدين الاسلامى وعلى حرية المواطن المصرى وكرامته ، وكم حاول

« كرومر » وأعوانه من المستشارين الانجليز وضع بديل عن الثقافة الفرنسيه فى مصر ، ولكن الفشل دائما كان حليفهم حيث كان الشعب يقدم على كل ما يناقض رغبة المحتل ، ويميل الى كل ما يخالف هواه • فهو يقدم على المدارس الفرنسية على الرغم من حاجته الى التعامل بالانجليزية مع المحتل ويتقبل فى رضا الأدب الفرنسى ، ويميل اليل لأنه يرى فيه قبسا من الحرية التى ينشدها ولا يجدها عند الانجليز مغتصبى أرضه ، ومدنسى وطنه •

ومع أن البعثات الى خارج مصر قد توقفت بعد الاحتلال ، وأصيب الناس بحالة من الركود واليأس • استمر الأدب والشعر فى نموهما لأنهما من نبع وجدان الأمة ، ولا يمكن كبتهما أو القضاء عليهما • « ذلك لأن الأدب ، واتجاهه فى أية أمة من الأمم هو العنوان الصحيح لحضارتها ، وهو القوة التى لا تستطيع قوى أخرى كبحها ، والقضاء عليها بالسهولة التى تقضى بها القوات المسلحة على الثورات السياسية ، وانما يقضى على ثورة الأدب باندساس عوامل تفسد توجيهها • ويخيل الى أن مجهودا كبيرا قد أنفق فى هذا السبيل ، كما أنفق من قبل ذلك مجهود كبير للقضاء على حركة الاصلاح الدينى التى بدأها المرحوم الشيخ محمد عبده والتى كانت جديرة بأن تؤتى أعظم الثمرات »(١) •

وقد كانت معاول المستعمر التى وجهها نحو الأدب غير خافية على معظم الأدباء والمفكرين • وكانوا يحاولون مقاومتها بكل الوسائل ، فهو — وان كان قد حرم الشعب من السفر الى الخارج والاتصال بالآداب والثقافات الأخرى — عجز عن منع المترجمين من نقلها الى الشعب بلغته العربية ، واذا كانت الحاجة الى الطعام والكساء والمأوى قد شغلت معظم الناس عن شراء الكتب والاطلاع عليها فان الندوات والمحاضرات والخطب والاجتماعات كانت تقوم بديلا عن ذلك • ومن

---

(١) انظر ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٠ الطبعة الثالثة — مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٥ م :

ملاحظة : كلمة الاصلاح الدينى المذكورة فى كلام هيكل وغيره منسوبة الى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأمثالهما : كلمة نابية ومجافية لمكانة الدين ، وهى عبارة مأخوذة عن مثيلتها التى ظهرت فى أوربة على يد مارتن لوثر ، واذا كانت المسيحية البشرية تحتمل هذا الكلام فان الاسلام الالهى لا يحتمله •

المعروف أن الشعراء كانوا يلقون قصائدهم فى أى مكان من أرض الوطن ، وما ان ينتهوا منها حتى تذاع وتشاع على ألسنة المستمعين فى كل مكان ، وكذلك أحاديث الأدباء وخطبهم ، واذا كان التعليم فى المدارس المصرية قد سلخه المستعمر من جلده العربى ، ورداه الفرنسى ليكون انجليزيا خالصا فان الجرائد والمجلات الأدبية والسياسية قد حفلت بالموضوعات العربية الممتازة ، والمقالات الفرنسية المترجمة وغير المترجمة • وكان ذلك بمثابة مقاومة سلبية للمحتل فى وقت لم يكن فى الامكان مقاومته بالثورة والعنف ، وهذا أثر من آثار الأدب فى حياة الشعب المصرى ، وان كان لم يصل الى الدرجة التى كانت مرجوة منه فى ذلك الوقت كما سأوضح فى الصفحات التالية ، الا أنه أطلق صوتا فى واد كان يملؤه الخراب والموت لولا هذا الصوت • ونحن نعلم أن الحضارة الانسانية ثورة متصلة مظهرها الأدب والفن • وقد كانت مصر فى ذلك الوقت فى حاجة الى أن تنظر نظرة بعيدة الى ماضيها العريق ، وحضارتها العظيمة لتستمد منها العزم والقوة على مقاومة المحتل ، واستعادة وجودها وكيانها بين الأمم •

وقد نجح الأدباء فى ذلك واستطاعوا أن ينهضوا بأسلوب النثر نهضة عظيمة نقلته من مبانى السجع المتكلف والتراكيب الصعبة ، والمعانى الساذجة الى دار الرصانة والجزالة والقوة ، والاسترسال ، وشرف المعنى ، ومتانة الأسلوب • والفضل فى ذلك يرجع الى أمثال جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، والمويلحى وغيرهم ممن تتلمذوا على أيديهم : كقاسم أمين ، والمنفلوطى ، والبشرى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، ولطفى السيد ، ومحمد حسين هيكل ، والعقاد ، والمازنى ، وتوفيق الحكيم ، وأحمد زكى أبى شادى ، وطه حسين ، وسلامة موسى ، ومصطفى صادق الرافعى • وغير هؤلاء من حملة الأقلام فى مواد القانون والعلوم والتاريخ والفلسفة وعلم النفس ، ومختلف المعارف الانسانية التى كشفها العلم الحديث ، وهم جميعا يعدون بلا شك تلامذة لهؤلاء الرواد الأوائل • ويعترفون لهم بالسبق فى تقدم النثر وارتقاء اللغة ، وجودة الأسلوب ، واتساع المعارف اللغوية ، بعد أن كانت اللغة العربية السائدة فى أوائل القرن التاسع عشر وفى القرن الثامن عشر وما قبله

حتى العصر الفاطمى ، تعد لغة ركيكة هزيلة ، قوامها التصنع والزخرفة ، وقلة المعنى •

وأما الشعراء فقد نجحوا كما نجح الأدباء فى تهذيب ألفاظ الشعر ، والارتقاء بمعانيه ، والاجادة فى صناعته ، واحسان سبكه والخروج به من حساب الجمل والترقيم والمقابلة والتشطير وغير ذلك ، ولكنهم حتى من تتلمذ منهم على البارودى لم يستطيعوا أن يحاكوه فى نبل أغراضه ، وصدق عاطفته ، وجمال تصويره لبيئته •

لقد كان البارودى صادقا فى شعره حين يصف الريف المصرى ، وما فيه من مناظر ، وزرع نضير ، وجو هادىء ، وشمس ضاحية ، وظل وريف • وحين يرثى أحباءه وأقاربه ، وأصدقاءه ، وحين يصف بطولته وشجاعته فى ميادين القتال ويصف بجانب هذا •• الميدان نفسه وطبيعته والأعداء وأحوالهم ، وحين يعبر عن ميوله السياسية ، وما قاساه على يد الخديوى من اغتراب ومحنة ، وحنين الى الأهل والوطن على أن البارودى لم يمدح الا نادرا ، ولم يرث الا صديقا أو حبيبا •

وعلى العكس منه ترى هؤلاء الذين انتهجوا نهجه فى الأسلوب واغترفوا من تلك الينابيع العربية التى وردوها ، تراهم مداحين وهجائين ، وندابين لكل عظيم(١) •

وفى هذا يقول الدكتور طه حسين :

« أصبح الأدب العربى الحديث نثرا كله ، وأصبح الشعر بفضل الشعراء وكسلهم العقلى فنا عرضيا ، لا يحفل به الا للهو والزينة والزخرف فاذا أراد بنك مصر أن يفتتح بناءه الجديد طلب الى شوقى قصيدة فنظم له شوقى هذه القصيدة ، واذا أرادت دار العلوم أن تحتفل بعيدها الخمسينى — كما يقولون — طلبت الى شوقى والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد ، فنظموا لها القصائد ، واذا مات عظيم وأريد الاحتفال بتكريمه طلب الى الشعراء أن ينظموا الشعر فى المدح والرثاء فنظموه كما ينظم القدماء • فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسى الجميلة المزخرفة التى تتخذ فى الحفلات والمآتم • وأصبحنا لا نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقى أو حافظ ، كما أننا

---

(١) انظر فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ ٢ ص ٢٦ الطبعة السابعة دار الفكر العربى سنة ١٩٧٠ بتصرف •

لا نتصور عيدا أو مأتما بغير مغن ، أو مرتل للقرآن • فأما الشعر الذى يقال لنفسه • الذى يقال ليجلو مظهرا من مظاهر الجمال الطبعى ، الذى يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء • الذى يقال لا ليتملق عاطفة من العواطف أو هوى من الأهواء : فلا تلتمسه عندنا ، ولكن التمسه عند قوم آخـرين عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها ، فربئوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة »(١) •

ولا أتصـور أن هذا هو الرأى الفاصل للدكتور طه حسين بين الشعر والنثر فى هذه الحقبة ، وانما هو رأى يتصـل أكثر ما يتصـل بموقفه من حافظ وشوقى بالذات ، فقد كان هناك شـعراء آخرون يخرجون على هذا التقليد الذى عرف عن شعراء العربية فى العصر العباسى وغيره من مدح وهجـاء ، وغزل ولهو ومجون ويخوضون فى قضـايا الوطن بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والخلقية من أمثـال على الغاياتى ، وأحمد محرم ، ومحمـد عبد المطلب ، ومصطفى صادق الرافعى ، وعبد الرحمن شكرى ، والمـازنى ، والعقـاد ، وشوقى وحافظ أيضـا وغيرهم ممن استطاعوا أن يتحـرروا من نظام التعليم الانجليزى الذى كان فى نظامه وطرقه ومناهجه لا يسمح للعقل بالانطلاق الى خارج نطاق التقليد والتقييد ، وكان يعمل على تربية ملكة الحفظ • حتى لا تتولد موهبة الابداع •

وشعر هذه الحقبة وأدبها يعد نتيجة حتمية لهذه التربية الانجليزية التى اهتمت بتنمية الذاكرة وقدرتها على الاستيعاب ، وأهملت المواهب الانسانية الأخرى كالتفكير والتأمل ، ودقة الملاحظة ، والابتكار العقلى والحرية فى الرأى ، كما كان النظام السياسى القائم تحت سياط المحتل وجبروته ، له أيضا أكبر الأثر فى انصراف الشعراء الى الأغراض المعهودة فى الشعر ، وترك الخوض فى القضـايا الوطنية الهامة التى كثيرا ما كانت تؤدى الى هلاك الشـعراء الذين يخوضون فيها ويتناولونها بالنظم والتحليل • وقضية ديوان « وطنيتى » للشاعر الشاب على الغاياتى فى سنة ١٩١٠ م لم تكن خافية على أى من الشعراء • ومن المعروف أن الغاياتى تناول فى ديوانه القضايا الوطنية التى مرت فى عصره فى صدق

---

(١) حافظ وشوقى للدكتور طه حسين ص ١٣٧ الناشر دار البحوث العلمية الكويت سنة ١٩٧٤م .

وحماس ولم يتطرق الى الغزل أو المدح أو الهجاء الى آخـر ما هو معروف من أغراض الشعر منذ القدم • وكان ذلك سببا فى نفيه الى « سويسرة » من يوليو سنة ١٩١٠م الى يونيو سنة ١٩٣٤ م ، وهـذا يصور لنا مدى ما كان يتعرض له الأدباء والشعراء وأصحاب الرأى من كبت وقهر كفيلين بأن يحولا الأغراض الشريفة فى الأدب والشعر الى أغراض أخرى لا قيمة لها ولا أثر منها اللهم الا المتعة واللهو والزينة ، وهو ما كان يهرب اليهالشـعراء فى حالات كثيرة • ولكن هذا لا ينفى وجود مواقف كثيرة للشـعراء استطاعوا فيها أن يخلقوا رأيا عاما ، وأن يحركوا مشـاعره نحو قضايا معينة تهم الوطن والمواطن ، كما دافعوا فى أحيان كثيرة عن الوطنيين وخلدوهم فى قصائدهم ، وجعـلوا من قضاياهم نبراسا يهتدى به الشـعب وسط ظلمة المستعمرين وظلام الحكام • ولكن اكتمال نضج الشعر والشـعراء غاية سعى اليها الدكتور طه حسين كما سعى اليها قبله وبعده الدكتور محمـد حسين هيكل وغيرهما من الأدباء والشـعراء • وكان الاستعمار فى كل وقت هو العامل المؤثر فى هذا النضج بطرقه وأساليبه المختلفة • يقول الدكتور هيكل(١) : « وكما أن الثورة العرابية لم تنقد الى اليوم لأنها لم تحقق غاياتها ، كذلك لم تنته ثورة الأدب بعد الى غاية • وكما أدت الثورة العرابيـة الى الاحتلال البريطانى لهذه البلاد احتلالا اتجه بالثورة السياسية الى ناحية جديدة ، كذلك اتجه هـذا الاحتلال بثورة الأدب الى ناحية جديدة انتهت عندها الصور الأولى من الثورة صورة لغة الكلام ولغة الكتابة ، ولم يبق بعدها محل لبحث أو جدل ، ولم يبق البتة قائل باتخاذ لهجات الكلام أساسا للأدب ، وحل محل ذلك ما سمى القديم والجديد فى الأدب واللغة ، وقد احتدمت معركة القديم والحديث هـذه منذ سنين طويلة ، وتنقل المحاربون فيها الى ميادين مختلفة •

كانت هذه الميادين قبل الحرب ــ يقصـد بها الحرب العـالمية الأولى حيث ان هذا الكتاب صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٣٣ م ــ تتناول أساليب الكتابة وتتناول الألفاظ العلمية وغير العلمية ، كمـا كانت تمس فى رفق صور الأدب ، وما يصح أن تكون عليه • والى يومئذ

---

(١) ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل ص ٦ طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٥ طبعة ثالثة •

كانت الغلبة لأنصـــار تقليد الأدب القديم • وكان السجع والاغـــراب فى اختيار الألفاظ بعض ما يمتـــاز به كتاب العصر » وهذا الرأى يؤيد ما ذهبنا اليه فى تحليل موقف الشـــعراء ، ويبين أن الشعر لم يكن وحده المحصور فى الدائرة الضيقة ، دائرة التقليد والمحاكاة للأقدمين ، وانما النثر أيضا كان داخل هذه الدائرة ، وان كان حظ النثر دائمـــا من الانطلاق أقوى وأشـــمل ، لاتساع الموضوعات والفنون والعلوم التى يتناولها ويقوم بالتعبير عنها وتحليلها • كما يتفق مع ما رأيناه من أثر الاستعمار فى تحديد صور الأدب وتقييدها حتى لا تنطلق الى روح الشعب فتحركها نحو الأمل والعمل ، وهمـــا صفتان ما تحلى بهما شعب الا وحطم المستحيل ، وأزال العوائق من طريقه ، وقضى على مغتصبيه ، والمتسلطين عليه ، ونفض الغبار عن كاهله ، وأزاح الكوابيس التى تؤرق مضجعه ، وتسد طريقه ، ووصل الى ما يرجـــوه من الرقى والتقدم • وأنى لمستعمر أن يرضى لشعب استعمره وفرض عليه سلطانه أن يصل الى هذه الحالة •

وقد عبر عن ذلك أيضا الدكتور هيكل فقال :

« وما دمت قد أشرت الى ما بين ثورة الأدب وثورة سنة ١٨٨١م وثورة سنة ١٩١٩م من مؤازرة فلا مندوحة عن القول بأن عوامل السياسة التى حاولت صرف التيار السياسى فى نواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة فى شأن الأدب والكتابة •

ولقد أشرت فى هذا التقديم الى ما بذل لهـــذه الغاية من جهود عاقت سير الحركة الأدبية ، وحاولت من غير نجاح كبير افساد اتجاهها • وليس موضع تفصيل هذه الجهود هاهنا ، ويكفى أن أذكر ما كان من سعى متصل لجعل اللغـــة الدارجة لغة الكتابة ، وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والمـــاضى ، ومن اظهار هذا المـــاضى فى صورة مذرية غير جديرة بالاعتـــداد بها أو باستلهامها »(١) • ومن خلال ما قام به كرومر ودانلوب أركان الاستعمار الانجليزى فى مصر سواء فى التعليم أو الأدب والشعر أو الصحافة واللغـــة يتضح لنا أن الهدف الأسمى بالنسبة لهم كان ينحصر فى سلخ حاضر مصر عن ماضيها ، وصبغها

---

(١) ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٤ طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٥ طبعة ثالثة •

بصبغة انجليزية أوربية تقربها من المستعمر لتلتقى بينهما الأهداف والغايات وبالتالى يجد المستعمر أرضا ممهدة لتحقيق مأربه ، ويجد قوما يدينون له أكثر مما يدينون لماضيهم فيأمن ثورتهم عليه ، وتمردهم على وجوده واحتلاله ، وكانت وسائله لتحقيق ذلك متعددة ، وتتسم بالخبث والدهاء • فبعد الاحتلال شدد الرقابة على الصحف ، وضيق الخناق على التعليم ، وأوقف البعثات الى أوربة ، وأخذ يحارب المدارس الفرنسية والثقافة الناتجة عنها ، ويعمل على جعل اللغة الانجليزية هى لغة العلم والثقافة والأدب • وبدأ يوجه الشعب الى حياة مادية بحتة يقوم فيها الصراع كل الصراع على المناصب والجاه والسلطان لدى طائفة ، والحصول على الخبز والكساء والدواء لدى طائفة أخرى • وقد استطاع بهذه الوسائل أن يوقف حركة المد الثقافى التى بدأت بعد الحملة الفرنسية على مصر ، والتى ظهرت ثمارها فى عهد اسماعيل ، وأخذ عدد المثقفين ثقافة ممتازة يتناقص ، وبدأت نفوس المصريين تضيق بهذا الخناق والذى وضع فى رقابهم ، والذى شدد به المستعمر على أنفاسهم حتى اختنقت أو كادت ، وأخذ المفكرون يبحثون عن خلاص • وكان أول طريق طرقوه لعودة الحياة الثقافية الى مصر هو ارسال البعثات من جديد ، وكان ذلك فى سنة ١٩٠٧ م حيث بدأت الجامعة ترسل البعثات ، وتبعتها فى ذلك وزارة المعارف فى السنة التالية •

أما ما قبل ذلك من سنة ١٨٨٢ م حتى هذا التاريخ فقل من كان يسافر الى أوربة للقيام بدراسات عليا متصلة ، والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات فى فرنسة وانجلترة كان أكثرهم ممن لم يحقق نجاحا فى مصر لذلك لم يستطع متابعة دراساته فى مدارسها •

فلما عادت البعوث سيرتها وأوفدت الجامعة من أوفدت واقتدت بها وزارة المعارف ، انتقلت العدوى الى بعض الأفراد القادرين فذهبوا بتمون تعليمهم ، وعادوا بعد اتمامهم اياه فنقلوا ميدان الفكر الأوربى الى مصر مرة ثانية ، وعاد النشاط الثقافى والعلمى يدب فى جنبات الوطن من جديد • ولكن المستعمر كان له بالمرصاد ، وكان يرقب كل حركة فكرية ، فاذا ما وجدها قد بدأت تثمر وتؤتى أكلها وضع فى طريقها العراقيل ، وقاوم أربابها بكل الطرق والوسائل ، وليس ذلك بغريب عليه « ففى عصور الظلمة التى تمر بها الأمم آنا بعد آن يعمد الباطشون البغاة الى تقييد حرية القول والكتابة • وفى سبيل هذا

التقييد يصلون أرباب الأقلام حربا لا رحمة فيها ولا هوادة • فمن ارهاق الى سجن ، الى نفى وتشريد • وهم فى حربهم هذه يندفعون ضد الكاتب كاشرة أنيابهم ، محمرة عيونهم ، مفتحة خياشيمهم — أشبه الأشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهيج فيها كل غرائزها الوحشية — ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بال ، ولا يطمئن لهم خاطر الا اذا اطمأنوا الى أنهم حطموا تلك الأقلام الى غير عودة للكتابة ، وأذلوا نفوس حملتها اذلالا لا قومة لهم من بعده »(١) •

ومع اتساع سطوة المحتل وجبروته ضد المفكرين وأصحاب الأقلام • وجدنا من يهادنه ، ومن يحتمى به ، ومن يناصر وجوده ويؤيد آراءه فى التعليم والسياسة ونظام الحكم ، ولم يكن الشعراء فوق هؤلاء الناس أو دونهم ، وانما كان منهم من ناهض المحتل وتصدى له متحملا نتائج ما يقول ويفعل ، ومنهم من لجأ الى قصر الخديوى يمدحه مرة ، ويتغزل من أجله أخرى ، ومن لجأ الى كبار الساسة وأصحاب الأموال يستمد منهم العون المالى والحماية السياسية ومن ترك هذا وذاك وراح ينشد الماضى ، ويعارض الشعراء العباسيين ، وينهج نهجهم فى أغراضهم الشعرية ، وآخرون لجأوا الى الطبيعة والوجدان يقولون فيهما ما يريدون قوله للناس والمجتمع • وهكذا انفرط عقد الأدب الحديث فى مصر ، ولم يعد كما كان قبل الاحتلال ذا هوية معروفة ، وأبعاد محدودة تنشد ارتقاء اللغة ، والسمو بالمعانى ، وتحريك المشاعر ، وتهذيب النفوس ، والرقى بالوجدان ، وتفتح الخيال ، والارتفاع فوق المادية ، والابتعاد عن التصاريح من أجلها ، وخاصة عند رجال البعثات الأولى الى فرنسة وأوربة ، وعلى رأسهم الشيخ رفاعة الطهطاوى • ومن بعده البارودى الذى جاء معظم شعره فى الفخر بنفسه ، والاعتزاز بقوته ، ووصف المعارك والحروب التى خاضها ، والحياة الاجتماعية المحيطة به ، وألاعيب السياسة ، ووجوه النفاق والغدر فيها ، ومواقف الأبطال وصمودهم فى الدفاع عن أوطانهم •

---

(١) ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٦ طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٥ طبعة ثالثة • وانظر حاضر العالم الاسلامى ج ٤ ص ٩٢ وما بعدها (لوثروب ستودارد الأمريكى) ترجمة عجاج نهويهض (تعليق شكيب أرسلان) ط دار الفكر ط ثالثة بيروت سنة ١٩٧١ .

ولما نفى الى جزيرة سرنديب وصف حنينه الى وطنه ، ورسم صورة حية لمشاعره من آلام الغربة ، والصبر على المحنة ، وتقوية العزيمة ، واستبسال الرجال • الى غير ذلك مما كان فيه صادق الوصف . مرهف الحس ، جزل اللفظ ، قوى الأسلوب •

ومن النادر أن نرى له مديحا مقصودا اليه ، وما نجد له من مدائح جاءت على هامش شعره لا فى الصميم منه ، وحتى لهوه وحبه وأيام صفائه وأنسه كان صادقا فى التعبير عنها • كل هذا ما كان يمكن أن يتوافر له لو أنه كان يعيش تحت سياط الاحتلال كغيره من الشعراء الذين عاشوا فى الربع الأول من القرن العشرين • وأقول الربع الأول من القرن العشرين • لأن سطوة المحتل اهتزت وأصابها الوهن بعد ثورة ١٩١٩م ، واقامة الحياة النيابية والدستورية سنة ١٩٢٣ ، ١٩٢٤ م وما تبعها من انتفاضات وطنية ، وثورات شعبية شارك فيها الشعراء والكتاب ، وانطلقت ألسنتهم من عقال الخوف والتبعية ، وتحرروا من الأوهام التى نصبها حولهم الأمراء والأغنياء ، والتى أخذتهم بعيدا عن آمال الوطن وآلامه ، وجعلتهم يمدحون ويهزجون ويودعون ويرثون• وشعبهم الى غير ذلك أحوج •

ولقد كان ذلك من أسباب هجوم الدكتور طه حسين وأمثاله على شوقى وحافظ ، وهما من أعظم شعراء هذه الحقبة • ولكنى بعد عرض هذه الأسباب التى أدت بأمثال حافظ وشوقى وغيرهما الى الاكثار من المدح وشعر المناسبات والوداع والرثاء والغزل أرى أن شعراء مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، قاموا بدورهم فى احياء اللغة وتهذيبها ، والارتقاء بمعانى الشعر والسمو بها ، وتصوير حالة الشعب حتى فى مدحهم وغزلهم ، وانطوائهم وبعدهم عنه ، وكانوا علامات بارزة فى السياسة والتعليم والثورة والغضب والهدوء والرضا ، وأطلقوا النفير حين نظموا ، وحركوا المشاعر ، وهاجوها حين وجدوا فرصة لذلك • وكانوا قذى فى عين الاستعمار حتى وهم فى صمتهم عنه •

يقول الدكتور أحمد أمين(١) : « ثم انتقل الشعر خطوة جديدة بعد

---

(١) قصة الأدب فى العالم جـ ٣ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ وانظر نفس الكتاب من ص ٢٩٣ ـ ٣٠٦ الناشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٩م .

ذلك تتجلى فى تحوله الى النظر الى الشعوب ، والاكثار من موضوعات الوطنيات والقوميات ، والاجتماعيات ، من مثـل طلب الاستقلال ، ومحاربة الاستعمار والمستعمرين ، والعطف على المظلومين والمنكوبين •• وقد بدأ هذا التحـول فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ونما فى القرن العشرين ، وشعر فيه من عاشوا فى هذين القرنين أمثال شوقى وحافظ وخليل مطران ، وولى الدين يكن والزهاوى والرصافى •• وتبع ذلك رقى منزلة الشعر ، فبعد أن كان ينظـر اليه كما ينظر الى الضارب بالدف يتغنى بالمدائح أصبح ينظـر اليه على أنه فنان ماهر يخدم الهيئة الاجتماعية ويبين عنها » •

وسوف نرى فيما سنعرضه فى هذه الدراسة مدى صحة هـذه الآراء ، حيث سنتعرض للشعر السياسى بتفصيل واف فى البرهة التى نبدأ من الاحتلال سنة ١٨٨٢م الى توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦م •

* * *

٢ ــ محاولات فاشلة للقضـاء على اللغة العربية :

كانت محاولات المستعمر الدائمة للقضـاء على عروبة مصر واضحة فى وسائله السياسية والاقتصـادية والتعليمية والأدبيـة والفكرية ، فهو يحاول سياسيا ربطها بالبحر الأبيض المتوسط ونقلها من حضارتها وتاريخها الاسلامى الى ماضيها وتاريخها الفرعونى وقطع صلتها بباقى الأمة العربية ، واتبع فى ذلك أخس الوسائل وأحقـرها حيث أخذ يخلق الفواصل بينها وبين باقى الأمة العربية ، ولم يتورع عن زرع جسم غريب من الصهيونية على أرض فلسطين العربية لتكون حاجزا بين مصر والمشرق العربى ، وبين المشرق والمغـرب • كما حاول ربط اقتصـادها بالاقتصـاد الانجليزى والأوروبى ، فأفسح المجال لرؤوس الأموال الانجليزية والتابعة لها لتسيطر على مقدرات الدولة ، وجعل منتجاتها الزراعية وخاصة القطن والأرز والبصـل حكرا له لا تباع ولا تشترى الا بأمره ، وباشارة من أصحاب المصـانع والشركات فى « ويلز ولانكشير » ، وأما التعليم فقد أعـد له مناهج ، ووضع له وسائل ليحوله من تعليم عربى الى تعليم انجليزى فى الشكل والمضمون ،

وفرض الرقابة على الصحف ، وسن قانون المطبوعات ، وقيد الأدباء والكتاب والمفكرين والعلماء بقيـــود لا يستطيعون الخلاص منها اذا أرادوا أن يعبروا عن أنفسهم ووطنهم ومشاكلهم فى حرية ، أو أن ينتجوا شيئا علميـــا له أثر واضح فى حياة المواطنين ، وأطلق العنـــان لمن يسيرون فى ركابه ، ويناصرون دعوته الى العامية ، ومهادنة الاحتلال ، والتقرب مع الغرب ، والانصـــهار فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، والعودة الى المـــاضى الفرعونى ، والتخلص من الحاضر الاسلامى • وكانت أبرز خططه للوصـــول الى ذلك القضـــاء على اللغة العربية ، لأن اللغة العربية كما يعرف ونعرف هى الأثر الخالد لهذه الحضـــارة الاسلامية العظيمة التى سار فى ضوئها وعلى هداها الفكر المصرى والعربى عدة قرون • ولكنه أخفق فى ذلك كما أخفق فى غيره ، وكان مرجع فشله الى أمرين :

الأول : أن اللغة العربية تحمل فى طياتها عوامل قوتها ، وضمان بقائها ، لأنها لغة قدسها القرآن الكريم وزادها جلالا واعجازا وما كتب بها ووضع على مبادئها من حضارة اسلامية ، وثورة فكرية كان ضمانا لبقائها ، ولولا ذلك لأصابها ما أصاب اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والآشـــورية والهيروغليفية واليموطيقية والسريانية ، ولأصبحت اليوم لغة تاريخية مستقلة عن وجود هذا العالم وحياته ، لغة ندرسها للعلم ، بعصر من عصـــور التاريخ الانسانى وكفى •

والأمر الثانى : وجود الأزهـــر تلك الجامعة العريقة التى ظلت تصون اللغة والدين على مدى ألف سنة على الرغم من المحن والأعاصير العاتية والظالمة التى كانت تحاربه وتحـــاول أن تعصـــف به بين الحين والحين ، ولكنه كان فى كل مرة يخـــرج عملاقا جبارا أقوى مما كان ، وهكذا استطاع أن يقاوم المستعمر الانجليزى بكل الوسائل للمحافظة على اللغة العربية الفصحى لغة للعلم والأدب والتأليف • وكان بجانبه فى هذه المرة مدرسة ــ كلية الآن ــ دار العلوم التى أنشأها على مبارك فى عصر اسماعيل •

وكانت خطة الانجليز للقضـــاء على اللغة العربية بعد أن جعلت التعليم كله باللغة الانجليزية تقريبا هى القيـــام بحملة شـــعواء على اللغة العربية الفصحى محاولين اقناع المصريين بأن سبب تأخـــرهم

فى ميدان الحياة ، وتخلفهم عن الأوربيين فى الابتكار الأدبى والعلمى يرجع الى تمسكهم بلغة القرآن والأساليب العربية القديمة ، وأن الأولى لهم (والأجدر بهم) أن ينهضوا باللغة العامية حتى يسايروا ركب الحضارة ، فهى لغة حية دائمة التجـديد ، ويفهمها جمهور الشعب ، ولا نهضـة لأمة الا اذا نهض سواد الشعب فيها ، وفهم ما يكتبه العلمـاء والأدباء ، ولن يفهم هذا الا اذا كانت الكتابة باللغة العامية(١) .

كانت هذه طريقتهم الخبيثة فى محـاولة اجتذاب المصريين نحـو العامية ، وصبغ الكتابة والفكر بهذه الصبغة حتى يتمكنوا بعد ذلك من تحقيق غايتهم ، وتكون اللغة الانجليزية هى لغة التأليف والكتابة بل ولغة المخاطبة . ولن يكون ذلك عسيرا لو تحققت دعوة العامية لأن لكل اقليم فى مصر وفى الأمة العربية كلها لهجته العامية التى تختلف عن لهجة الآخر ، فاذا كتب كل كاتب بلهجة اقليمه أصبحت الأمة الواحـدة عشرات الأمم بل وأصبح الوطن الواحد عشرات الأوطان ، مما يؤدى الى نفور الناس من هذه اللغة والكتابة بها فيلجأون الى لغة أخرى يتقبلها الجميع ، وينتمون اليها ، ولن يكون فى ذلك الوقت الا اللغة الانجليزية التى تعلموها وأجادوها ، وأصبحت لسانهم فى العمل والشارع والبيت ، وعلى باقى الشعب ـ القطيع ـ كما كان يتصوره الانجليز أن يستسلم لهذا الوضع . وأن يروض لسانه على التخاطب بهذه اللغة . وهو بالفعل حاول الوصول الى ذلك مع العمـال والموظفين والخدم الذين كانوا يعملون فى معسكراته وتحت ادارته المباشرة ، فوجدنا هؤلاء يحسنون التحدث والكتابة بهذه اللغة عن لغتهم العربية حتى بعض من لا يعرفون القراءة منهم كانوا يتحدثون الانجليزية بطلاقة .

وقد ألقى « ويليام ولكوكس » أحد رؤوس هذه الدعوة خطبة فى نادى الأزبكية سنة ١٨٩٣م جعل عنوانها : « لم لم توجد قوة الاختـراع لدى المصريين ؟ »(٢) وادعى أن سبب ذلك هو استخدامهم للغة العربية

---

(١) انظر فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى ج ٢ ص ٤٠ الطبعة السابعة (دار الفكر العربى ١٩٧٠م) .

(٢) انظر أعداد مجلة الأزهر نوفمبر وديسمبر سنة ١٨٩٢م والعدد الاول من السنة السادسة ١٨٩٣ حيث يوجـد به نص لهذه الخطبة التى أشرت اليها .

الفصحى فى القراءة والكتابة ، ونصحهم باتخاذ العامية أداة للتعبير الأدبى اقتـــداء بالأمم الأخرى ، واستشهد بالأمة الانجليزية وقال : انها أفادت فائدة كبيرة منذ هجرت اللاتينية التى كانت لغة الكتابة والعلم يوما ما • وقد استطاع هذا المحتل البغيض أن يسيطر على مجلة الأزهر !!! أواخر سنة ١٨٩٢م وأن يتخذ منها منبرا يهاجم فيه الفصحى !!! ، وينشر دعوته للعامية وغير ذلك من القضـــايا الكثيرة التى كان يحاول من خلالها أن يصل الى هجر الناس للغة القرآن ، وتحويل الاتجاه الى العامية ، لكن قوة اللغة العربية ، وثروة أدبها التى تكونت منـــذ الاسلام ، وعظمة الحضـــارة الاسلامية قاومت أحداث الدهر ، ودفعت عن اللغة هذا المصاب »(١) •

وعلى الرغم من مساندة الاستعمار بكل ما يملك من امكانات مادية وعلمية وأدبية لدعوة هذا الرجل ، فانها لم تصادف نجاحا الا لدى بعض الكتاب والمفكرين الذين يجهلون الفصحى ولا يستطيعون الارتقاء الى مستواها لفظا ومعنى وأسلوبا •

وكان أبرزهم سلامة موسى الذى أخذ ينـــادى بما ينـــادى به « ولكوكس » ويدعى أن الفصحى تبعثر الوطنية المصرية ، وتجعلها شائعة فى القومية العربية ويطالب بالتقريب بين العامية والفصحى ، ويرى أن ذلك ممكنا بالغـــاء الألف والنون من المثنى ، والواو والنون من جمع المذكر الســـالم ، والغـــاء التصغير ، وجمع التكسير ، والغـــاء الاعراب ، والاكتفاء بتسكين أواخر الكلمات ، وادخال الكلمات الأعجمية فى الأسلوب العربى كما هى • ولا أدرى ماذا يبقى بعد ذلك من العربيـــة ، وكيف تكون لغـــة الكتابة هى هذه التى كان يخطط لهـــا سلامة موسى وسادته الانجليز ، انها أفكار هدامة ، وخطوات كان يقصـــد بها القضـــاء على الوجود المصرى والعربى كله كما كان الهدف فى النهاية القضـــاء على الدين الاسلامى ، واقتلاع جذوره بخلع لغة القـــرآن وطرحها للماضى ، وللتاريخ كاللغات الكثيرة التى هجرت وضاعت حتى من قواميس الفكر الانسانى •

كانت دعوة ولكوكس وسلامة موسى للكتابة بالعامية وترك الفصحى بمثابة انذار أفـــزع الأدباء والشعراء ، ونبههم الى الخطر المـــاحق

---

(١) ثورة الأدب ص ١٩ .

الذى يحيط بهم وبلغتهم ودينهم كما نبه الزعماء الوطنيين والمفكرين السياسيين الى أهداف المستعمر من تلك الحملة وما سبقها من خطوات مقصودة ضد اللغة العربية فى مناهج التعليم المختلفة • لذلك وجدناهم يتحركون بسرعة وفى أكثر من اتجاه لرد هذه الحملة الظالمة فالأدباء يبحثون ويكتبون عن الفصحى وأدوارها فى الحضارة العربية ، والتاريخ الاسلامى ، ويبينون ثراءها واتساعها لكل جديد فى الفكر الانسانى ، ويبطلون تلك الدعوة بالحجج الدامغة ، ومن أشهر هؤلاء الأدباء مصطفى صادق الرافعى ، ومحمد المويلحى ، وكان لابد من اقامة جدار تتكسر عليه هذه الحملة الاستعمارية المجنونة ، فألف الأدباء جمعيات لنشر الفصحى والذود عنها ، ومحاربة العامية ، والقضاء على الكتابة بها ، واشترك الشعراء فى هذه الجمعيات ، وتصدوا مع الأدباء لهذه الحملة وخاضوا المعركة بعلم وبصيرة مما مكنهم من القضاء على هذه الدعوة • وبقيت الفصحى لغة العلم والأدب والصحافة والفن ، وقصيدة حافظ ابراهيم عن اللغة العربية والدفاع عنها التى نظمها سنة ١٩٠٣م مشهورة ، ومن يطالعها يتصور ماذا كان يدور فى ذلك الوقت ؟ ولم التهبت أنفاس الشاعر بهذه المعانى ، وانطلقت صادقة الايقاع والهدف والغاية ، متحدثة بلسان اللغة الفصحى يقول :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى ... ونادیت قومى فاحتبست حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى ... عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى ... رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتى
فياويحكم أبلى وتبلى محاسنى ... ومنكم وان عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فاننى ... أخاف عليكم أن تحين وفاتى

* * *

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوما علمتم ... بما تحته من عثرة وشتات
أرى كل يوم بالجرائد مزلقا ... من القبر يدنينى بغير أناة
وأسمع للكتاب فى مصر ضجة ... فأعلم أن الصائحين نعاتى

أيهجرني قومي ــ عفا الله عنهم ــ الى لغة لم تتصل برواة
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات
الى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فاما حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رفاتي
واما ممات لا قيامة بعده ممات لعمري لم يقس بممات

* * *

٣ ــ الحركات الوطنية والأدب والشعر :

ومع هذه الانطلاقة الأدبية التي حركتها هذه الدعوة الخبيثة للعامية وجدت انطلاقة أخرى سياسية واجتماعية حركتها القوى الوطنية ، وكان سببها الأول مقاومة هذا التيار الذي بدأ يهدد اللغة الفصحى ، ويسعى في خطوات منتظمة للقضاء على عروبة مصر ، وسلخها عن ماضيها الاسلامي ، وحضارتها العربية ، وتمثلت هذه الانطلاقة في محاولات جادة لانشاء جامعة مصرية يتعلم فيها المصريون ويتثقفون ثقافة عربية ترد لهم كيانهم الانساني ، وتعيد لهم الثقة بأنفسهم ، لتتحرك الامة بأبنائها وبأفكارهم ، لا برجال أجانب ، وأفكار أصدق ما يقال عنها أنها أفكار للهدم والتدمير ، لا للبناء والتعمير ، ولتحقيق هذه الغاية اجتمع أهل الفكر والرأي في الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٩٠٦ بمنزل سعد باشا زغلول(١) • ووضعوا الخطوط الأساسية لانشاء الجامعة التي أطلق عليها الشيخ علي يوسف الجامعة المصرية ، والتي كانت في الحقيقة غاية من غايات مصطفى كامل التي نادى بها وسعى اليها ، وحث المفكرين على الاسراع في انشائها(٢) • ووقف بجانبه في ذلك بقوة مصطفى كامل الغمراوي • وخرجت الى الوجود هذه الجامعة

---

(١) يقول أحمد رمزي بك : ان المجتمعين كانوا نحو اثنين وعشرين رجلا : منهم سعد زغلول ، وقاسم أمين ، ومحمد راسم ، وحفني ناصف ، وفتح الله بركات ، وأحمد رمزي ــ انظر الأهرام في أول يونية ١٩٥١ ، (مقال عن الجامعة وتأسيسها لأحمد رمزي بك) ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ١٢٩ ــ ١٣٩ ، ٣٢٤ •

(٢) انظر مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٣٢٤ ــ ٣٣٥ ، وجريدة اللواء ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، ٨ يناير سنة ١٩٠٥ •

بعد أن تضامن عدد كبير من أهل الرأى والعزيمة ، وكان ذلك سنة ١٩٠٨م ، واختير رئيسا لها الأمير أحمد فؤاد ـ الذى صار ملكا بعد ذلك ـ ومما قاله مصطفى كامل فى الدعوة لانشـاء هذه الجامعة : انه « مما لا يرتاب فيه انسان أن الأمة المصرية أدركت فى هذا الزمان حقيقة المركز الذى يجب أن يكون لها بين الأمم ، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها فى مسـألة التعليم ، وقيـام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس ، وتأسيس دور العلم بأموالهم ومجهوداتهم ، ولكن قد آن لهم أن يفكروا فى الوقت الحاضر فى عمل جديد ، الأمة فى أشـد الحاجة اليه ، ألا وهو انشـاء جامعة للأمة بأموالها »(١) . وأثمرت دعـوة مصطفى كامل فاشتدت حركة الاكتتاب للجامعة وتنافس فى ذلك الأغنياء والأمراء ، وأوقفت الأميرة فاطمة اسماعيل ٦٦١ فدانا لهذا الغرض ، وتبرعت بحليها التى قدرت باثنين وعشرين ألفا من الجنيهات ، وفى سنة ١٩١٤م وضع حجر الأساس لاقامة هذا الصرح الشامخ فى حياة مصر والعرب وحضر هذه المناسبة الخديوى عباس ، وظلت هذه الجامعة الأهلية تقوم بدورها فى العلم والثقافة وصيانة اللغة والقومية وتصد عن مصر العربية والعالم العربى كل تيار يريد النيل منها أو من عروبتها ، وأعادت للبعثات النشاط مرة ثانية ، واستقدمت الكثير من رجال الفكر الأوربيين للتدريس بها ، وكان ذلك سببا فى أن تنافسها وزارة المعارف فى اجادة التعليم وفى البعثات وأن يذهب أبناء الأغنيـاء والقادرين الى جامعات العالم المختلفة للتعليم والحصـول على أرقى الدرجات العلمية . وفى سنة ١٩١٧م فكرت الحكومة فى انشاء جامعة حكومية ، ولكنها لم تتمكن من تحقيق هذه الغاية الا فى الحادى عشر من مارس سنة ١٩٢٥ ، وبدأت الجامعة الحكومية بأربع كليات هى الآداب ، والعلوم ، والطب ، والحقوق ، وفى سنة ١٩٣٥م ضمت اليها الهندسة والزراعة والتجـارة ، وفى سنة ١٩٤٠م سميت بجامعة « فؤاد الأول » ثم ضمت اليها دار العلوم سنة ١٩٤٦ م ، وظلت تحمل هذا الاسـم حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م فأطلق عليها جامعة القاهرة ، ووجدت جامعة عين شمس ، وجامعة أسيوط والاسكندرية والزقازيق والمنصورة وطنطا ، وغيرها من الجامعات الوليدة التى تحرص الدولة الآن على ايجادها وانتشارها

---

(١) اللواء ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٠٤ م .

فى كل محافظات مصر ، والفضل فى ذلك يرجع الى هذه الجامعة الأهلية التى بنيت بأموال الشعب ، وقامت بما قامت به بجهود المخلصين من أبناء الوطن .

كانت هذه النتائج التعليمية والاجتماعية والثقافية أثرا من آثار الرد على دعاة العامية ، وصدى للحركات الوطنية التى غرس جذورها مصطفى كامل وتولى رعايتها من بعده محمد فريد ، وأكمل نموها سعد زغلول وزعماء الوطن الآخرين بعد ثورة ١٩١٩م ، التى كانت فى الأصل نتيجة لمجهودات جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، وقاسم أمين ، وحفنى ناصف ، وعلى مبارك ، وزكى مبارك ، ومصطفى عبد الرازق ، واسماعيل صبرى ، ومصطفى المنفلوطى ، ومصطفى صادق الرافعى ، ولطفى السيد ، ومحمد حسين هيكل ، والعقاد ، والمازنى ، وعبد الرحمن شكرى ، وأحمد حسن الزيات ، وشوقى ، وحافظ ، وأحمد محرم ، ومحمد عبد المطلب ، وغيرهم من المفكرين والأدباء والشعراء ، الذين تلقوا صدمة الاحتلال وهم فى عنفوان شبابهم ثم ووجهوا بالمحنة الثقافية والسياسية والاجتماعية ، والمالية ، ولكنهم صمدوا لكل هذه المحن ، وأخذوا يبثون روح الحياة فى جوانب مصر حتى تستطيع رفع رأسها ، ومقاومة الاستعمار بوسائله العلمية والفكرية ، وبطرقه فى الأخذ بأسباب القوة ، والاستعداد لحمل السلاح حين يتهيأ الشعب لذلك .

وكانت النعمة العظمى التى جنتها مصر والعربية من هذه التيارات أن اتسع احتكاك الشرق بالغرب ، وتعمق أبناء مصر فى الثقافتين الفرنسية والانجليزية ، وكثرت الصحف ، وتعددت الأحزاب ، واتسعت الآراء واختلفت ، فظهر المجتهدون ، والمدافعون عن كل رأى ، وبهذا ازدادت اللغة العربية ثراء ، وارتقت فى اللفظ والأسلوب والمعنى ، وبدأ المجددون ثورتهم على القديم ، وتصدى لهم الحريصون على التراث ، وعرفت المعركة الشهيرة بين « القديم والجديد » طريقها الى الناس فتفتحت العقول الى ما وراءها من أهداف الاستعمار ، والى الخطر الذى يمكن أن يتهدد القديم والجديد معا اذا لم تصبح للأدب العربى الحديث فى مصر شخصيته المستقلة عن الآداب الغربية التى تأثر بها الأدباء والمثقفون والشعراء . لذلك وجدناهم جميعا على الرغم من احتدام المعركة يسعون الى هذه الغاية .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل(١) : « دار التاريخ دورته ، وآن للغـــة العربية أن تنهض نهضتها من جديد • وكان طبعيـــا أن تبدأ النهضة بنشر اللغة ، واحيـــاء آدابهـــا القديمة ، وتعليم الناس أصول التعبير بها ليمكن بعد ذلك أن تتبعث حياتها قوية ، وأن يكون فن الأدب العربى بحيث يحيط بالحياة والوجود وما فيهما من حق وجمال حتى تبعث الأقدار الأديب العربى الذى يؤدى لأهل كل عصر بلهجة العصر رسالة الأدب • ويرجع الفضـــل فى هذه الخطوة الأولى لشيوخ الأزهر بمعونة من أرسلهم محمد على (باشـــا) الى أوربا للاتصال بموارد العلم فيها ، ولرجال مدرسة دار العلوم التى أنشأها على باشا مبارك ــ على أن اللغة ما كادت تبعث وما كاد الكاتبون بها يشعرون بالحاجة الى انتشـــار فنون آدابها ، حتى رأوا الى جانب الفنون القديمة فنونا فى الأدب جديدة ، أحدثها بعث الغرب فى القرون الثلاثة الأخيرة فنونا لم تكن معروفة عند العرب ، ولا غير العرب من قبل ، ورأوا أن هذه الفنون الجديدة من الأدب تستند الى فلسفة جديدة فى تصويرها أيضا والى علوم اتسعت دائرتها وعظم نطاقها ، وأن لابد اذن من الاتصال بالعلم والفلسفة فى آخر صورهما ، ليكون الأدب العربى مؤديا الى الغاية الصحيحة لأدب أية لغة من اللغـــات ــ غاية تبليغ الانسانية فى الحياة والوجود من حق وجمال بلهجة العصر الذى تعيش الانسانية فيه » •

واتسعت اللغة العربية لهذه الثورة العظيمة التى انفعلت بها نفوس الشبان المصريين الذين عادوا من البلاد الأوروبية المختلفة يحملون بين ما يحملون من علوم مختلفة آراء فى الأدب والنقد والشعر تختلف اختلافا كليـــا عما كان معروفا فى مصر فى ذلك الوقت وعما ألفه من كانوا يعيشون على الأدب العربى القديم وحده ، وما لبث هؤلاء الذين لم يرحلوا الى أوربة للتعلم أن اعتكفوا على دراسة هذا الأدب الوافد اليهم اما فيما ترجم ويترجم منه أو بتعلم لغته والتعرف عليـــه من مصادره الأصلية ، وبذلك انصهر الأدب الجديد مع القديم واتصلا ببعضهما اتصالا وثيقا فوجدنا شيوخا من الأزهر يبرعون فى التصوير الأدبى على أسلوب الغرب ، ورجـــالا من دار العلوم والجـــامعة يتفوقون فى التعبير عن

---

(١) ثورة الأدب ص ٢٩ •

الأدبين معا • وبرز الموهوبون من غير هؤلاء وهؤلاء فى ميادين مختلفة فى الأدب والشعر والرواية والقصة والمسرحية ، وأصبح الأدب العربى يقترب رويدا رويدا من منهج وأساليب الآداب العالمية ، وتحفز الجميع لبلوغ هذه الغاية سواء كانوا من الأزهريين أو غيرهم •

ويحدثنا عن ذلك الدكتور هيكل فيقول(١) : « وتجلت هذه الرغبة عند المتخرجين فى الأزهر وعند رجال دار العلوم بقوة لا تقل عما تجلت به عند غير هـؤلاء من المشتغلين بالأدب العربى والمتصلين فى الوقت نفســه بآداب اللغات الأخرى • وظهر ذلك فى حرص الأولين ، وهم ذوو الفضل فى الخطوة الأولى من خطا بعث اللغــة والآداب العربية القديمة على الوقوف على اللغــات الأوروبية وتعلمها ، وفى حرصهم على نقل ألفاظ هذه اللغــات الغربية وآدابهــا الى اللغة العربية فى صورة عربية صحيحة • وأمامى من الأمثال على ذلك كثير • فأساتذة كليــة الآداب فى الجامعة المصرية من الذين يقومون بتدريس الآداب العربيــة ، كلهم من ناشئة الأزهر أو دار العلوم ، أو القضاء الشرعى ، وكلهم قد شعروا بالحاجة بعد اتقانهم اللغة العربية ، الى دراســة لغــات أخرى ، ودراســة آداب أخرى ، سواء منها ما ترجم للغــة العربية وما استطاعوا استيعابه بلغــة غيرها وهاهم أولاء الدكتور طه حسين وزملاؤه الأساتذة : أحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد الوهــاب عزام ، هم جميعا من أبناء هذه المدرسة ــ الأزهر ــ وهم اليوم جميعا من الذين شعروا بالحاجة المــاسة للاتصــال بعلوم اللغات الأخرى وفلسفتها وآدابها ، ليكونوا لأنفسهم صورة صحيحة مما يحتويه الوجود من حق وجمال » •

ومن الأمثلة الأخرى التى ساقها حول هذا الموضوع قوله :

« مثل آخر أضربه هو هؤلاء المشايخ الذين بدأوا يكتبون فى الأدب الحديث مكتفين بمطالعاتهم فى الآداب العربية ، ثم اذ بهم لم يجدوا منصرفا عن دفع أنفســهم اياهم لورد آداب اللغات الأخرى • فالمرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى بدأ يكتب « النظرات » و « العبرات » متأثرا الى حد ما بما ترجم من القصص الغربى ، وان جاهد ليظل فى كنف الأدب العربى القديم ، لكنه ما فتىء أن اندفع الى الاستعانة بالأدب الغربى ، فاستعان بمن يعرف هذا الأدب ليدله على ما فيه من صور

---

(١) ثورة الأدب ص ٣٠ •

الجمال ، ثم اذا به ينشر على الناس كتبه : « ماجدولين » و « فى سبيل التاج » وغيرهما • والأستاذ الزيات وغير الزيات من الكتاب الذين نهلوا أول حياتهم ورد الأدب العربى القديم خالصا سائغا لم يستطيعوا الاستغناء عن الوقوف على ما أحدثه العصر الأخير من الأدب ولم يجدوا الوسيلة الى ذلك الا عن طريق الأدب الغربى وما استصفى من العلم والفلسفة المتحكمين فى عصرنا الحاضر »(١) •

وهكذا استطاع الشعب المصرى أن يحول تلك الهجمة الاستعمارية المسعورة على لغته وفكره وحضارته الى أعمال أدبية وفكرية واجتماعية تقف فى مجموعها سدا منيعا أمام أهداف المستعمر ورغباته ، وفى الوقت نفسه تصون للأمة شخصيتها وتبرزها أمام العالم أمة مفكرة واعية بماضيها وحاضرها ومستقبلها • وقد خلفت هذه الأفكار والفلسفات الأدبية والدينية ، واللغوية والاجتماعية التى قيلت فى الدفاع عن اللغة رأيا سياسيا مستنيرا لدى عامة الشعب ، ظهر أثره حين اندلعت شرارة ثورة سنة ١٩١٩ م ، وحين تورط الاستعمار فى نفى الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٩١٤ م وتولية السلطان حسين كامل مكانه وهو محل رفض منه »(٢) وكذلك فى التأييد المعنوى لتركية مقر الخلافة الاسلامية الذى كان يبدو واضحا طوال معارك الحرب العالمية الأولى والذى كان يعبر الشعب فيها عن سخطه على الاستعمار وأمله فى انتصار تركية ، لأنها — حتى وان كانت سبب تأخره وسر بلائه الطويل — دولة مسلمة ، وجيوشها ليست على أرض مصر لتدنسها وتدوس على كبرياء رجالها وارادتهم ، ولكنها من ناحية أخرى صنعت طائفتين متميزتين تغاير احداهما الأخرى : طائفة تدعو الى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وطائفة أخرى تدعو الى الاحتفاظ بتقاليدنا الاسلامية والشرقية(٣) ، وامتد هذا الأثر الى السياسة فوجدت جماعة تنادى بالجامعة القومية ، وأخرى تنادى بالجامعة الاسلامية •

---

(١) ثورة الأدب ص ٣١ •

(٢) انظر فى هذا الموضوع (محمد فريد) لعبد الرحمن الرافعى الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م مطبعة لجنة التأليف ص ٣٤٤ وما بعدها ، ومذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق (باشا) جـ ٢ ص ١١٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣٢٥ وغيرها • الطبعة الأولى ١٣٥٥هـ — ١٩٣٦م مطبعة مصر •

(٣) انظر لمحات من حياة العقاد : لعامر العقاد ص ٢٩٦ — ٢٧٤ مؤسسة دار الشعب ١٩٦٨ .

وفى الأدب انتصر فريق للأدب الأوروبى ، وتمسك آخر بالقديم من الأدب العربى ، وأما فى التعليم فكانت هناك مدارس تأخذ بأساليب الدراسة الأوروبية ، ومدارس أوروبية للجاليات الأجنبية أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين ، وكان الى جانبها معاهد دينية تهتم بالعلوم الشرعية والاسلامية وما يتصل بها أكثر من اهتمامها بما يدور فى هذه المدارس الأخرى من العلوم الأوروبية ، وحتى المجتمع فى عاداته وتقاليده اليومية أصبح داخل هذه التيارات فوجد مقلدون للغرب يأخذون بكل مستحدث فيما يقولون ويفعلون ، ويبدو عليهم التمرد على كل قديم وعلى تراثهم وتقاليد آبائهم وأجدادهم ، ووجد محافظون فى الأزياء وآداب الاجتماع وأساليب العيش وأنماط الحياة ، ونتج عن هذا تناقض فى الحياة المصرية كان يسعد له كرومر رأس الاستعمار فى مصر ويدفعه الى تعميق هذا التناقض افساح المجال لبروزه فى الصحافة والسياسة والتأليف وفى كل أرجاء المجتمع(١) .

وكان كرومر سياسيا داهية فحين جاء الى مصر سنة ١٨٨٣ م كانت الصحافة مقيدة بقوانين ظالمة أصدرها اسماعيل ليقضى بها على الصحفيين الذين ينتقدونه ويندون بسياسته المالية الطائشة ، وعن طريقها أغلق جريدة « التجارة » التى كان أديب اسحاق يصدرها ، و « أبو نضاره » التى كان يعقوب صنوع يصدرها وحاول اغلاق الأهرام لولا توسط الفرنسيين .

وفى عهد توفيق شددت الرقابة على الأفكار وخاصة بعد قيام ثورة عرابى وأغلق توفيق الأهرام سنة ١٨٨٤ م لأنها كتبت مقالا جاء فيه : ان الحكومة لا تخدم مصر ، وانما تخدم انجلترة ، وأمر كرومر بفتحها بمجرد أن علم بهذا الخبر ، وأمر الضباط الذين كانوا مكلفين باغلاقها من قبل توفيق بالاعتذار لصاحبها رسميا .

جاء كرومر وذلك هو وضع الصحافة ، فأراد اكتساب ود المصريين واظهار انجلترة بمظهر الدولة التى تعمل على نشر الحرية فى مستعمراتها وتقدمها كما كانت تدعى فى كل المحافل الدولية . فأطلق حرية الصحافة والطباعة ، وأباح للكتاب ورؤساء الأحزاب وغيرهم انشاء الصحف

---

(١) انظر مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ ص ٢٨ ، ٢٩ .

والمجلات من غير حاجة الى استصدار رخص خاصة من قلم المطبوعات(١) كما كان مفروضا فى عهد اسماعيل ثم توفيق قبل مجىء كرومر(٢) ، حيث ان قوانين المطبوعات كان تفرض على كل صاحب مطبعة دفع تأمين لا يقل عن مائة جنيه عند فتحها ، وأن يحصل على ترخيص بذلك من الحكومة • ومن أراد أن يصدر كتابا أو صحيفة لابد له من عرضهما على قلم المطبوعات قبل أن يسمح له باصدارها • فأهمل كرومر هذه القوانين ، وأطلق الحرية للصحافة ، والكتاب مما أدى الى انتشار الصحف انتشارا هائلا حتى بلغ عدد ما يصدر منها فى القاهرة وحدها ١٣٣ ما بين جريدة ومجلة ، وذلك فى مطلع القرن العشرين(٣) ، وأباح تكوين الأحزاب ، فظهر حزب الاصلاح برياسة الشيخ على يوسف ليعارض الحزب الوطنى ، بعد أن فسدت العلاقة بين الخديوى عباس والزعيم مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٤ (٤) •

ثم تلاه حزب الأمة فى سنة ١٩٠٧ م قبل رحيل كرومر بوقت قليل برياسة حسن باشا عبد الرازق ، وكان هذا الحزب متأثرا عند نشأته بأفكار الشيخ محمد عبده ونظرته فى السياسة والاصلاح(٥) ، وكان رئيسه حسن باشا عبد الرازق من أخلص الناس للشيخ محمد عبده ، وبعد وفاته فى سنة ١٩٠٧ م تولى الرياسة محمود باشا سليمان ثم أحمد لطفى السيد الذى كان يرأس تحرير « الجريدة » صحيفة الحزب التى أنشأها عند تأسيسه(٦) •

---

(١) انظر الهلال اول مايو ١٩٠٧م ص ١٤٦١ ، ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى طبعة ثانية ص ٢٤٠ وما بعدها •

(٢) صدر قانون المطبوعات فى عهد توفيق فى ٢٦ من نوفمبر سنة ١٨٨١ فى نهاية الثورة العرابية وقبل الاحتلال الانجليزى •

(٣) انظر تريخ الصحافة العربية لفليب دى طرازى ج ٢ ص ١٩٢ وما بعدها بيروت ١٩١٣ •

(٤) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ وما بعدها .

(٥) انظر فى الشيخ محمد عبده تاريخ الأستاذ الامام لمحمد رشيد رضا . والفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ١٢٢ ـ ١٩٣ الطبعة الخامسة دار الفكر بيروت ١٩٧٠ .

(٦) انظر صفحات مطوية لأحمد لطفى السيد (باشا) ص ٧ ـ ١٠ مطبعة مصر سنة ١٩٤٦ •

وكان حزب الأمة موالیا للانجليز وتقوم مبادئه على معاهدة الاحتلال حتى يصبح الشعب المصرى قادرا على قيادة نفسه وادارة دفة الحكم بصورة تتفق والمدنية الأوروبية الحديثة ، كما كان هو نفسه ـ فى أول نشأته ينادى بالتوفيق بين هذه المدنية والحضارة الاسلامية وتعاليم الشرع ، ثم ما لبث أن نادى بالتجديد وحرية الرأى ، ولو كان فيه خروج على الدين والتقاليد .

ومن بين رجال هذا الحزب تكون حزب « الأحرار الدستوريين » حين وقع الخلاف بين أعضائه .

ومن الآثار المحمودة لحزب الأمة أنه تنبى الدعوة لانشاء الجامعة المصرية بعد أن كان مصطفى كامل قد دعا الى ذلك . ولكن المنية وافته قبل انشائها ، وظهورها الى الوجود ، واستطاعوا انشاء الجامعة فعلا سنة ١٩٠٨ وتولى رجاله ادارتها برهة طويلة من الزمن فى عهدها الحكومى ، وقادوا الحركة الفكرية والتجديد فى مصر فى الآداب والفلسفة والاجتماع بقوة وجرأة ، وكانت صحيفتهم « الجريدة » أقوى الصحف وأنضجها حيث كان يكتب فيها كبار رجال الفكر والأدب فى مصر والعالم العربى ، وكانت تدفع للكتاب أجورا عالية مما حفزهم على الاجادة فى الكتابة والتنافس فيما بينهم على ذلك ، وامتد هذا الأثر الى الصحف الأخرى ، فظهرت بها جميعا مقالات ممتازة وأفكار جيدة ، وارتقى الأسلوب ، وتقدم الانشاء ، وحسن التبويب والاخراج والاتقان فى الكتابة والطباعة الصحفية .

وعلى الرغم من أن كرومر هو الذى فتح هذا المجال أدى ازدياد الصحف الى التنافس بينها فى مناقشة أمور الوطن ، وفى تجويد المقال ، واختيار الكتاب الأكفاء ذوى الأفكار الحية الجديدة ، ووجدت الجرأة والشجاعة عند البعض ، فكانوا فى آرائهم وأفكارهم حربا على الانجليز وعلى الاستعمار فى كل مكان ، وأخذوا يشهرون بالاحتلال وآثامه فى ربوع مصر والعالم العربى ، بل وتعدى ذلك الى أوربة وانجلترة نفسها ، وأظهر مثل على ذلك مقالات الزعيم مصطفى كامل التى ملأ بها الشرق والغرب مناديا بحقوق مصر ، وقد كانت جريدة « المؤيد » فى أول الأمر هى ميدانه الفسيح ثم أنشأ مصطفى كامل جريدة « اللواء » سنة ١٩٠٠ م ، وأفسح المجال فيها لكل حر يبتغى الدفاع عن وطنه ، ويسهر

على حقوقه ومطالبه ، ويقاوم الاحتلال ويندد بظلمه وبشاعته ، وفى سنة ١٩٠٧ م أصدر جريدتين أخريين احداهما بالانجليزية والأخرى بالفرنسية ليعرف عن طريقهما الانجليز والفرنسيون ، أمانى مصر ورغبتها فى الحرية والاستقلال ، وبدأ فيهما حربا منتظمة ضد الانجليز ، وضد كرومر بالذات ، بعد حادثة دنشواى الشهيرة سنة ١٩٠٦ (١) • وقد ظلت هـذه الجرائد تقوم بدورهـا الوطنى فى عهد خلفه محمد فريد(٢) • ولكنها ووجهت بصعوبات كثيرة ، وأغلقت أكثر من مرة ، لأن من جاءوا بعد كرومر لم تكن لهم أهداف كرومر فى افساح المجال للمصريين لينفسوا عن أنفسـهم وليقولوا ما شاءوا ما دام ذلك لا يؤثر فى وجود الاحتلال ، ولا يقض مضجعه — لأنهم لم يكونوا على هذا الوعى الذى اتصف به هذا الاستعمارى المتمرس الداهيـة ، وكذلك انصرف الخديوى عباس الثانى عن القضية الوطنية وعن مشاركة الشعب كفاحه وعقد سياسة الوفاق مع « الدون غورست » بعد رحيل كرومر عن مصر • وأصبحت الحكومة والقصر والمحتل يضيقون بما يكتبه « اللواء » ورجال الحزب الوطنى فأعادوا فى ٢٥ من مارس ١٩٠٩ م قانون المطبوعات القديم(٣) الذى يخول وزير الداخليـة الحق فى انذار الصحف وتعطيلها مؤقتا أو نهائيـا من غير محاكمة ، وكان ذلك نكسة للحرية الصحفية ولآمال الشعب المصرى فى التعبير عن نفسـه ، وقامت المظاهرات فى كل مكان ضد بطرس (باشا) غالى رئيس الوزراء حينذاك وأخذت تنادى بالغاء هذا القانون الجائر الذى ما جاء الا ليكبل الأحرار بالقيود ، ويكمم الأفواه بالأغلال فلا يسمع صوت لحق أو صرخة لمظلوم • ولكنهم ما لبثوا أن طبقوه عند أول بادرة حين كتب الشيخ عبد العزيز جاويش مقالا فى ذكرى دنشواى يوم ٢٨ من يونية سنة ١٩٠٩ م ينحى فيه باللائمة على قضاة دنشواى ومحاميها مناجيا أرواح شهدائها الأبرار

---

(١) انظر مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى ط ثانية ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٥ وتاريخ مصر لأمين سعد ص ١٥٨ .

(٢) توفى الزعيم مصطفى كامل فى ٨ من المحرم سنة ١٣٢٦هـ — ١١ من فبراير سنة ١٩٠٨ م •

(٣) انظر محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ط ثانية ص ٩٩ ، ١٠٠ سنة ١٩٤٥ ، و ط ثالثة سـنة ١٩٦٢ مكتبة النهضة المصرية .

فقبضوا عليه بسبب هذا المقال ، وحكموا عليه فى ٢٥ من أغسطس سنة ١٩٠٩ م بالسجن ثلاثة أشهر(١) ، وأنذرت جريدة « اللواء » ، وظل الانجليز والحكومة يتحينون الفرص حتى عطلت « اللواء » نهائيا فى أغسطس سنة ١٩١٢ م وأوقفت جريدة « العلم » شهرين ، وكانت قد ظهرت بجانب اللواء فى ٧ من مارس سنة ١٩١٠ م ، وصدر الأمر بايقافها بعد صدورها بأيام فى ٢٠ مارس سنة ١٩١٣ ، ثم عطلت هى الأخرى نهائيا فى ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٣ م بعد أقل من عام من اغلاق اللواء ، وتحت سطوة هذا القانون حكم على محمد فريد بالسجن ستة أشهر لأنه كتب مقدمة لديوان « وطنيتى » الذى نظمه الشيخ على الغاياتى وصودر الديوان ، وهاجر الغاياتى الى تركية ومنها الى سويسرا حيث ظل بها ربع قرن تقريبا ، وحبس عبد العزيز جاويش ثلاثة أشهر مع الشغل مرة أخرى لأنه كتب مقدمة أيضا لهذا الديوان(٢) ، ولو راجعت المقدمتين لا تجد فيهما كلمة واحدة تمس الخديوى أو الحكومة أو الانجليز ، ولكن قانون المطبوعات خلق منهما قضية ، لأنهما مقدمتان لديوان فيه ما يمس هؤلاء ، ولم يترك هذا القانون جريدة ولا كاتبا أو كتابا الا أصابه اصابة تألم لها الوطن ، وتعذب من أجلها الأحرار .

وبعد قيام الحرب العالمية الأولى فى أغسطس سنة ١٩١٤ م انضم لهذا القانون الظالم الأحكام العرفية ، واعلان الحماية على مصر ، وعندها انتهى آخر شعاع لحرية الصحافة فى مصر ، وامتدت الأيدى الى « المؤيد » ولكن بطريق خفى لما كان لصاحبها الشيخ على يوسف من مكانة عند الحكام والانجليز ، فعين الشيخ على يوسف شيخا للسادة الوفائية حتى يبتعد عن المؤيد ، وبذلك ينتهى أثره أو على الأقل يضعف بين الناس ، وتوقفت المؤيد فى سنة ١٩١٢ م وتركها الشيخ على

---

(١) انظر ديوان « وطنيتى » لعلى الغاياتى بهامش ص ٧١ ، ٧٣ طبعة ثالثة سنة ١٩٤٧ مطبعة منبر الشرق ، ومحمد فريد ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) انظر ديوان « وطنيتى » لعلى الغاياتى ط ثالثة سنة ١٩٤٧ مطبعة منبر الشرق لصاحبها على الغاياتى ، وبالديوان مقدمة محمد فريد ص ١١ ـ ١٥ ومقدمة الشيخ عبد العزيز جاويش ص ١٦ ـ ٢٠ وراجع حول هذه القضية وقضايا اللواء والعلم : محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ط ثانية من ص ١٨٨ ـ ١٩٥ وغيرها .

يوسف نهائيـــا فى سنة ١٩١٣ م • وأسندت رياسة تحريرهـــا لمحمد بك أبو شادى ، ولكن الديون كانت قد أثقلت « المؤيد » ، فأصر الدائنون على بيع داره وأثاث بيت صاحبه لاستيفاء الدين ، فبيعت فى مارس ١٩١٣ م ، وفى ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩١٣ توفى الشيخ على يوسف ، وهو فى الخمسين من عمره وأما « الجريدة » لسان حزب الأمة فقد توقفت كذلك فى سنة ١٩١٤ م ، وبات الناس يترقبون فى كل يوم خبرا جديدا يحمـــل شؤم الحرب ، ونذيرا للأحـــرار ، وقيدا من قيـــود الحكام والمستعمرين • وقد تحملت مصر بسبب هذه الحرب الكثير من المآسى والآلام ، فبعد أن أغلقت صحفها ، أعلن قانون التجمهر فى ١٨ من أكتوبر ١٩١٤ م ، وهو يقضى بألا يجتمع أكثر من خمســـة أشخاص فى مكان ما ، وفرضت الأحكام العرفية فى ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٤ م ثم أعلن الانجليز الحماية فى ١٨ من ديسمبر من العام نفســـه ، واحتجت جريدة « الشعب » التى كان يصدرها أمين الرافعى على اعلان الحماية(١) • وعطلت الجمعية التشريعية فى ٢٧ من أكتوبر سنة ١٩١٥ م •

وهكذا بدا واضحا للشعب المصرى أن المحتل يريد أن يخرس كل صوت فى مصر ، وأن يقضى على حقه حتى فى ابداء الرأى فيما يتعلق بوجوده وقت الحرب ، وظهر لمن كانوا يؤملون فيه بعض الخير أن كرومر رأس الاستعمار الوحيد الذى أفسح المجال لحرية الصحافة والأحزاب والطباعة والكتابة ، ما كان يقصد بذلك الخير لمصر وانما كان يرى أن ذلك سوف يحقق له أمرين : شغل الناس بما يدور فى الصحف واجتماعات الأحزاب وما يتبع ذلك من ندوات أدبية وشعرية وعلمية لينصرفوا بها عن مقاومة المستعمر ، وتتبع أعماله وجرائمه فى ربوع الوطن • ومن ناحية أخرى يفسح المجال للانجليز لبث دعايتهم فى العالم كله ، تلك الدعاية التى طالمـــا رددوهـــا عن مصر وعن كل مستعمرة استولوا عليها وتحكموا فيها وفى مصائر أبنائها • وهى أنهم ما استعمروا هذه البلاد الا للعمل على نهضتها ورفع شأنها ، وحماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم فيها ، ويوم أن يتحقق ذلك فسوف يرحلون عنها ، كان ذلك ادعاءهم فى مصر والهند والعراق وفلسطين والسودان وغيرها من المستعمرات الانجليزية التى كانت تشمل معظم آسية وافريقية • ولكنهم كما أثبت التاريخ لم

---

(١) انظر ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعى جـ ١ ص ١١ ، ١٢ ، ٢٧ •

يخرجوا من أى مستعمرة من مستعمراتهم الواسعة الا بعد ثورات شعبية عارمة ، وبعد كفاح من أبناء هذه المستعمرات استمر فى بعضها قرابة قرن من الزمان • وقد أشرت الى المحاولات المصرية لاجلاء الانجليز عنها بعد الاحتلال مباشرة ، وكيف كانوا يراوغون ويتعللـــون بأوهى الأسباب لاستمرار احتلالهم • حتى اذا ما سنحت لهم الفرصة لاطلاق حريتهم فى مصر بعد الاتفاق الانجليزى الفرنسى سنة ١٩٠٤ م ، أهملوا موضوع الجلاء الذى كانوا يتشدقون به فى المحافل الدولية(١) • ولكن مصر استيقظت على صرخة مصطفى كامل الوطنية ، واستفاقت الى وعيها القومى ، فقام الوطنيون يجاهدون معتمدين على جهودهم الذووية فأسسوا الحزب الوطنى ، ونشروا دعاية الدستور والجلاء فى طول البلاد وعرضهـــا ، حتى اذا قامت الحرب الكبرى ، ونشر الرئيس « ولسون » مبادئه الأربعة عشر ، وأعلنت الهدنة كان المصريون قد حزموا أمرهم ، وجمعوا كلمتهم بزعامة سعد زغلول • فقامت ثورة سنة ١٩١٩ م وبدأت المفاوضات بين مصر وانجلترة لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ، بعد أن كانت المفاوضات عن مصر تجرى بين انجلترة وفرنسة ، أو بينها وبين الدول الأوربية الدائنة لمصر • وكان موضوع الاحتلال أول المسائل التى تناولها المفاوضون •

وفى سنة ١٩٢٢م أعلنت الحكومة الانجليزية والملك فؤاد أن مصر مملكة مستقلة ذات سيادة ، ولكن هذا الاستقلال الذى ثار الشـــعب كله يطالب به فى سنة ١٩١٩م والذى راح ضحيته الآلاف من أبنـــاء الشعب الأحرار ، وكاد يحترق فى سبيله الأخضر واليابس على أرض مصر ، جاء استقلالا أعرج مبتورا اذ احتفظت منه انجلترة بحقها فى تحفظات أربعة خاصة بالدفاع والقنـــاة والأقليات والسودان • ومنذ ذلك الوقت دخلت البلاد فى طور جديد من تاريخها تنازعت فيه الســـلطة جهات ثلاث :

أولاها : انجلترة يسندها جيش الاحتلال الرابض فى عاصمة البلاد ، وعلى ضفاف القناة •

والثانية : هى القصر ، وكان الملك حريصا كغيره من الملوك المستبدين على التمسك بنفوذه وسلطانه •

---

(١) انظر صفحات مطوية لأحمد لطفى السيد (باشا) ص ١٦ ـ ١٩ .

والثالثة : هى قوة الشعب ويمثله فى ذلك الوقت الوفد المصرى الذى قاد ثورة ١٩١٩م واكتسب بذلك نفوذا شعبيا طاغيا • وكان بدهيا كما يقول محمد (باشا) رفعت(١) : « أن تتعارض بين حين وآخر سلطة القصر وسلطة الشعب وأن يعمد القصر الى الزج بنفسه فى ميدان السياسة الحزبية فيصطنع لنفسه أحزابا تؤيد سياسته ، وتناوىء الوفد فى خططه التحررية ، وأفاد الانجليز من ذلك الصراع الذى قام بين القصر والوفد من جهة وبين الوفد وغيره من الجماعات والأحزاب التى ظهرت حينذاك أيما فائدة • فقد جاء البرلمان واقتضى منطق الحوادث اجراء الانتخابات وتكوين الأحزاب والتناحر والتسابق الى تولى كراسى الحكم • وبذلك انقسمت البلاد شيعا وأحزابا ، وسرت فى البلاد روح العداء والقطيعة بين الأفراد والأسر ، ورجال الحكم ، ونتج عن ذلك كله أننا شغلنا بالسياسة عما عداها • ولما كان أعز أمانى الساسة المصريين على اختلاف أحزابهم وألوانهم العمل على تحقيق استقلال البلاد ، واجلاء قوات الاحتلال فان عزائم رجال الحكم أيا كانوا لا تفتر لحظة عن بلوغ هذه الأمنية باجراء المفاوضات مع الحكومة الانجليزية • وظللنا سبعة عشر عاما نتجاذب أطراف الحكم ، ونتراشق بالتهم سعيا وراء المفاوضات مرة أخرى ، وفى كل مرة كانت المفاوضات مع الانجليز تتعثر وتتكسر على حافة صخرة السودان الذى كانت تطالب به مصر فى وحدة تامة معها ، وأبى الانجليز الا أن يبقى السودان منفصلا عن مصر كيما تتوثق صلاتهم بالسودان ، ويجدوا فيه السند الكافى اذا ما جلا الانجليز يوما عن مصر » •

ومن المعروف أن ثورة ١٩١٩م كانت ثورة شعبية اشتركت فيها كل طوائف الشعب ، وأنها كانت تهدف الى اجلاء المستعمر عن أرض الوطن ، وتحقيق الحياة النيابية ، وسيادة القانون ووضع دستور ينظم العلاقات العامة بين الحكام والمحكومين وبين الدولة وغيرها من دول العالم — وانصاف المظلومين والقضاء على استبداد القصر وسادته الانجليز ، والغاء قانون المطبوعات الذى كمم الأفواه ، وأحرق النفوس ، وعطل الفكر ، وألغى حرية الفرد والوطن ، وارتكب تحت سطوته الكثير من الآثام والجرائم من غير أن تجد رادعا أو دافعا

---

(١) تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتياراته السياسية ص ٤١٦ — ٤١٧ •

من الشعب يصدها عنه أو يحميه دونها • ولكن هـذه الثورة التى اشتعلت فى مصر فى العاشر من مارس سنة ١٩١٩م عقب اعتقال « سعد باشا زغلول ومحمد محمود باشا واسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل باشا » فى يوم السبت ٨ من مارس ووضعهم فى ثكنات قصر النيل ، ثم ترحيلهم فى اليوم التالى الى بورسعيد . ومنها الى جزيرة « مالطة » التى اختارتها السلطة العسكرية منفى لهم(١) •

هذه الثورة التى اشتركت فيها كل مدن وقرى مصر ، لم تكن من أجل اعتقال هؤلاء الزعماء فحسب . وانما كانت جذورها ممتدة منـذ أول أيام الاحتلال سنة ١٨٨٢م ، وكان الزعيمان مصطفى كامل ، ومحمد فريد وغيرهما من أحـرار الوطن وأدبائه ، وكتابه وشعرائه يمهدون لها بجميع الوسائل ، وحين لاحت الفرصة انتفض الشعب كله مطالبا بحقوقه ، ولكن ما ان هدأت الثورة حتى حاول المستعمر كعادته احتواءها واستغلال الخلاف بين أقطابها ليظل جاسما على أرض وادى النيل ، وألقى القبض على سعد زغلول ومجموعة من رفاقه للمرة الثانية فى ٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٢١م ثم صدر الأمر من انجلترة بنفيه هو وزملائه هذه المرة الى جزائر سيشيل فى ٢٩ من الشهر نفسه ، ولم يكن للانجليز سند فى ذلك الا المظاهرات والاحتجاجات التى انتشرت فى القـاهرة والاسكندرية ضد وزارة عدلى يكن حين وقع الخلاف بينه وبين سعد على شروط المفاوضات التى دعت اليها انجلترة فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٢١م لابدال الحماية بعلاقة أخـرى ، وكان هذا الخلاف سـببا فى فشل مفاوضات عدلى التى بدأت فى لندن فى ١١ من يولية سنة ١٩٢١م واستمرار الخلاف بين الزعماء مدة طويلة •

وقد صرح ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطانية بأنه لا يرى الوقت قد حان لجلاء الجيوش البريطانية عن مصر « خشية أن يقضى الرعاع فى القاهرة والاسكندرية على حياة الجاليات الأجنبية ، وينهار صرح الاصلاحات التى تمت على يد الادارة البريطانية »(٢) •

---

(١) ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعى جـ ١ ص ٣٩ ـ ٧٨ ، ١٢٣ ، ط اولى سنة ١٣٦٥ هـ ، ١٩٤٦ م مكتبة النهضة المصرية ، وانظر أيضا الطبعة الجديدة فى مجلد واحد مؤسسة دار الشعب سنة ١٩٦٨م .

(٢) انظـر فى أعقـاب الثورة المصرية لعبد الرحمن الرافعى جـ ١ من ص ٨ ـ ٣٢ الطبعة الثانية ١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٩ م مكتبة النهضة المصرية .

ويتضح لنا من هذا التصريح وغيره ـــ من التصاريح التى كانت تصدر عن وزارة المستعمرات فى مناسبات كثيرة ـــ أن الاحتلال ما كان يريد أن يصـــدق فى وعد ، ولا أن يفى بعهد ، وانما غايته أن يبين أن أمم الغرب متفوقة على الشرق فى كل شىء تفوقا يجعل لها الحق فى أن تحكم أمم الشرق هذه وتستغلها من غير أن يكون فى ذلك اعتداء على ما للأمم من حق فى الحرية والســعادة(١) وما أكثر ما جاء على ألسنة ساستهم من أن الأقدار ألقت عليهم عبء تحضير أمم الشرق وتمدينها ، على حين أن مطامعهم هى التى ألقت عليهم عبء العسف بأمم الشرق ، والاستبداد بشئونها ، وفى سبيل هذه الغاية اســتباحوا لأنفسهم كل ألوان الغدر والوقيعة والخسة والدناءة ، وعملوا جهدهم على الايقاع بين أبناء الأمة ، وزعمائها وحكامها ، واشتروا الضمائر ، وأسروا النفوس لتظل لهم السطوة والقوة فى مصر وغيرها من البلاد التى منيت بهـــذا الاستعمار فى القرنين التاسع عشر والعشرين • وكانوا يتصورون أن هذه الأرض ستظل خاضعة لهم الى نهاية الدهر ، وأن أبنـــاء هذه البلاد ليسوا الا عبيدا لهم ، ولن يرتفعوا يوما الى قيـــادة أنفسهم ، وادارة شئون بلادهم وقد أدى هذا الفهم الخاطىء الى الاساءة البالغة لأهل مصر ، فى حياتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتعليمية والدينية ، بل والخلقية أيضا • مما جعل النفوس تغلى كالبركان انتظارا للانفجار والثورة • لذلك ـــ حين انتهت الحرب العالمية الأولى فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ م ، ووجد الشعب بارقة أمل فى أن يطالب بحريته ـــ خرج كله شيبا وشبانا ينادى بهذه الحرية ويضحى فى سبيلها بالأرواح • والأموال والأولاد راضيا ، وفى عفوية المظلوم المقهور الذى لا يحتـــاج الى من يخبره ماذا يقول أو يفعل • ويصور لنا ذلك أصدق تصوير ما كتبه المستر روبرستن العضـــو بالبرلمـــان الانجـــليزى وقتذاك بمجـــلة « الكونتمبرارى رفيو » فى شهر مايو سنة ١٩١٩م يشير الى أسباب ثورة المصريين قال : « اذا شئنا أن نعرف منشأ هذا الاضطراب ، فلنرجع الى المقال المهم الذى نشرته « مس درهام » فى عـــدد ٢ من ابريل سنة ١٩١٩م بجريدة « الديلى نيوز » حيث قالت : « أقمت فى مصر من نوفمبر سنة ١٩١٥م الى ابريل سنة ١٩١٦م ، وانى أؤيد رأى الدكتور

---

(١) انظر ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل ص ٨٠ .

« جوست » اذ يقول : بأن هذا الاضطراب يرجع الى سوء معاملتنا للمصريين ، ولقد ارتكب ولاة الأمور — الانجليز — فى مصر أسوأ الأغلاط ، اذ أتوا بجنود من المستعمرات الى البلاد المصرية من غير أن يذكروا لهم شيئا عن السكان الذين سيعيشون بين ظهرانيهم ، وقد بلغ من جهل هؤلاء الجنود أن كانوا يظنون أن مصر بلاد انجليزية ، وأن المصريين قوم دخلاء ، ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد أن يأتوا الى هذه الديار ، ولقد سمعت غير واحد من الاستراليين يقول : « لو كان الأمر بيدى لما أبقيت على واحد من المصريين فى هذه البلاد » • وكانوا يعاملون المصريين بأشد أنواع القسوة والاحتقار ، ولقد رأيت بعينى فى الكنتين الذى كنت به ، جنديا يضرب بقدمه خادما مصريا أمينا ، لا لشىء سوى أنه لم يفهم أمرا أصدره اليه ، وأبصرت مرة أخرى جنديا يلكم شابا متعلما فى صدره ، ويغتصب منه عصا ثمينة اشتهتها نفسه ، وسمعت كثيرا من النزلاء الانجليز يقولون والأسف ملء قلوبهم : ان ما أحدثه هؤلاء الجنود فى مصر لا يمحى أثره فى قليل من السنين ، وأقسم لو كنت مصرية لما ترددت فى بذل النفس والنفيس لطرد الانجليز من مصر ، وانى والحق يقال : كنت أخجل أشد الخجل لانتسابى لبلادى ، وكثيرا ما أنبت الجنود الانجليز تأنيبا مرا ، وأكدت لهم أنهم بأعمالهم هذه يبرهنون على أنهم أعداء الانجليز ، فان كان الألمان يسيئون الى أعدائهم فانهم بأعمالهم هذه يسيئون الى أنفسهم فيجعلون ممن كانوا أصدقاءهم بالأمس أعداء لهم اليوم ، وكان عجبهم من قولى هذا شديد لأنهم كانوا يجهلون الحالة جهلا تاما ، ومما زاد الطين بلة أن الجنود عند مجيئهم وجدوا الحانات كلها مفتحة الأبواب ليل نهار ، فأدى ذلك الى حدوث مخاز اشمأزت منها نفوس المصريين ، وملأت قلوبهم غيظا واحتقارا ، وقد شاع فى ذلك الوقت أن الجنود السكارى يأخذون البراقع عنوة من فوق وجوه السيدات المصريات »(١) • وهذا القول من عضو البرلمان الانجليزى المنقول عن لسان « مس درهام » ليس الا صورة مصغرة لبعض الحالات الاجتماعية الشاذة التى كان يتصف بها جنود الاحتلال • وأما قادته فكانت مهمتهم أكثر من ذلك سوءا حيث كانوا يضعون النظم والتشريعات التى تكفل لهم سلب حقوق

---

(١) انظر ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ٤٣ •

مصر السياسية ، واستنزاف قواهـا الاقتصادية ، وتدمير معنويات أبنائها بتحويلهم عن عروبتهم الى العـادات والطبائع الانجليزية ، وافساد التعليم وجعله غير قادر على اعداد أجيال تتحمل مسـئولية المستقبل ، وتنهض بحاجات مصر النفسية والاجتماعية والاقتصـادية والسياسية .

وأكثر ما كان يشغلهم ظهور الشخصيات الوطنية الواعية ، فكانوا يسرعون الى احتوائها أو القضاء عليها سياسيا بتبنى خصومها ومعاونتهم بكل ما يملكون من قوة وسلطان ، وينتهزون المواقف الدولية ليشوهوا صورة مصر باظهارها بمظهر الدولة الجاهلة المتأخـرة الفقيرة التى لا تسـتطيع أن تقوم بأمـورها الا برعاية الانجليز . هذا فوق البطش والجبروت الذى اتسمت به أحكامهم فى القضايا التى كانت تدور بين المصريين والأجانب سواء كانوا انجليزا أو غيرهم من الأوربيين . وحادثة دنشواى أشهر من أن تعرف بها . ويكفى أن تعرف أن موت ضابط انجليزى نتيجة جرح أصيب به فى هذه القرية بسبب طيشه وغروره ، واطلاقه الرصاص على بعض أهل القرية فى ٣ من يونية سنة ١٩٠٦م قد تسبب فى عقد محكمة استثنائية واصدار حكم منها بالاعدام على أربعة من المصريين من أهل القرية الأبرياء ، وعلى سبعة عشر آخرين بالسجن والجلد ، وأن ينفذ حكم الاعدام والجلد فى القرية ، وأمام أبناء وزوجات المحكوم عليهم(١) .

وكم دبروا للوقيعة بين الزعيم مصطفى كامل والخديوى عباس بصفة دائمة ومتصلة حتى تمكنوا من ذلك فى سنة ١٩٠٤م بعـد أن استمالوا عباسا اليهم وأبعدوه عن الحركة الوطنية ، وأرغموه على أن يقف معهم يحيى العلم الانجليزى فى ميدان عابدين ، ويستعرض الجيش الانجليزى المحتل فى عيد ميلاد الملك ادوارد السابع فى ٩ من نوفمبر سنة ١٩٠٤ م ولم يقبل عباس حضور هذا العرض قبل ذلك ، منذ توليه الحكم بعد أبيه توفيق فى الثامن من يناير سنة ١٨٩٢ م وكان يحتضن الوطنية ، ويحاول أن يكون صاحب الأمر فى البلاد لا خاضعا ذليـلا

---

(١) انظر مصـطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى ص ١٦٦ ـ ١٧١ ، وتاريخ مصر السياسى لأمين سعيد ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ط أولى ١٣٧٨هـ ، ١٩٥٩م طبع دار احياء الكتب العربية .

للمحتل كما كان والده الذى ظل بعد الاحتلال عشر سنوات لا يملك من أمر نفسه شيئا الى أن مات فى أوائل سنة ١٨٩٢م • وكانت صلة عباس بمصطفى كامل تمثل حلقة الوصل بينه وبين الشعب ، وكان ذلك يشجع الوطنيين على الجهر بدعوتهم لمقاومة المحتل •

وكذلك استغلوا الاتفاق الودى الذى أبرم بين فرنسة وانجلترة فى ٨ من ابريل سنة ١٩٠٤م ، وظهر عقبه اللورد كرومر فى الشهر نفسه وفيه روح السيطرة ، حيث تكلم بلسان الحاكم المطلق التصرف وطعن فى المصريين ورماهم بعدم الكفاية للحكم الذووى(١) • وحين اضطرت انجلترة تحت ضغط الرأى العام العالمى ، وصرخات الوطنيين ، وعلى رأسهم مصطفى كامل الى تغيير سياستها فى مصر بعد حادثة دنشواى — اختارت « الدون غورست » لتمثيلها فى القاهرة ورحل عنها كرومر فى السابع من مايو سنة ١٩٠٧ م بعد أن قضى فى مصر ٢٤ سنة يمثل الاستعمار الانجليزى بصلفه وجبروته ، ويسخر مصر وأبناءها لخدمته ، ويستغل خيراتها لمصلحته ، وانتظر الشعب المصرى تغييرا فى سياسة المحتل ، وتصور أن « غورست » سيعامل المصريين بالرفق والتساهل بدلا من الضغط والارهاب(٢) ولكن النتائج أثبتت غير ذلك على الرغم من أن « غورست » بعد أن قدم أوراق اعتماده للخديوى عباس فى ١٥ من مايو سنة ١٩٠٧م قال : « وبناء على التعليمات التى صدرت الى من حكومتى فسأبذل غاية الجهد فى المحافظة على الصلات الودية التى امتد بها الزمن بين انكلترة ومصر ، وهى على أحسن حال ، ومعتقدى أنى سأجد عندكم من جليل المعونة ، وحسن التسهيل ما يساعدنى على النهوض بالواجب الذى رأى الملك أن يعهد به الى » • ولكن هذا القول كغيره من الأقوال الكثيرة للمحتل ما لبث أن ذهب أدراج الرياح ، وأرغم « غورست » عباسا على أن يقطع كل صلة بينه وبين قادة الحركة الوطنية ، وأن يكف عن بذل أى مساعدة لها ، واستغل عباس قبوله هذا الشرط فى أن تطلق يده فى التصرف فى أموال الأوقاف وأطيانها ، وبيع الرتب والنياشين بأثمان غالية ، وكانت هذه أول وقيعة بدأ بها « غورست » حياته فى مصر ، وعرف قادة الحركة الوطنية وزعيمها مصطفى كامل

---

(١) مصطفى كامل ص ١٤٢ — ١٥٠ وتاريخ مصر السياسى لأمين سعيد ص ١٥٤ — ١٦٠ •

(٢) مصطفى كامل ص ١٩٩ — ٢٠١ .

بهذا الاتفاق ، فقاطعوا عباسا ونبذوه(١) وأخذوا — بعد أن كانوا يهتفون له ويحيون حين يلتقون به — يهتفون للدستور والاستقلال والحرية ، وحملوا على أكتافهم عبء الحركة الوطنية فى مواجهة الخديوى والانجليز ، ولم يكتف « غورست » بذلك بل حاول تدمير الحركة الوطنيـــة والقضاء عليها نهائيا ، فأوعز الى عباس ، ومن ثم الى صديقه الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد بانشاء حـــزب سياسى جديد يتحدى الحـــزب الوطنى ويقاوم آراءه واتجاهاته ، وسمى « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » ضم جماعة من المتصلين بقصر عابدين ، ومن أهم نقاط برنامجه : تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرمانات لاستقلال مصر الادارى والاعتمـــاد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانية عند احتلال القطر المصرى ومطالبتها بتحقيقها(٢) ، وحث الأغنياء والأعيان أيضا على انشاء حزب ثالث سموه حزب الأمة بزعامة محمود باشا سليمان • ومنذ لحظة انشائه الأولى أعلن زعماؤه تأييدهم للاستعمار البريطانى ووقوفهم بجانبه ، وأصدروا صحيفة « الجريدة » لتكون لسان حالهم كـ « اللواء » للحزب الوطنى و « المؤيد » لحزب الاصـــلاح • وتولى أحمد لطفى السيد رياسة تحرير الجريدة ، وشاع كما يقول الأستاذ أمين سعيد حين انشاء هذا الحزب « أن من جملة أغراضه المطالبة بالانفصال التام عن تركية ، وانشاء دولة مصرية مستقلة تحالف انكلترا وتسبح فى فلكها ، وهو هو البرنامج الذى وضعه الانجليز لحل المشكلة المصرية بعد الحرب الأولى »(٣) •

وتزعم الحزب الوطنى وعلى رأسه محمد فريد دعوة المطالبة بالدستور وانشاء مجلس نيابى ، وأخـــذ يهيى الرأى العام • لذلك خاصة بعـــد تنفيذ الدستور فى تركية فى يولية سنة ١٩٠٨ م ، وغضب الانجليز لذلك ونشر « الدون جورست » حديثا بجريدة « المقطم » فى أكتوبر سنة

---

(١) انظر جريدة اللواء عدد ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧م .

(٢) انظر تاريخ مصر السياسى لأمين سعيد ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ، وحاضر العالم الاسـلامى ، لوثروب ستودار الأمريكى مج ٢ جـ ٢ من ص ١٦٠ الى ص ١٢٠ • ترجمة حجاج نويهض ـ تعليق وشرح شـكيب أرسـلان ـ الطبعة الثالثة ـ دار الفكر ببيروت سنة ١٣٩١هـ ، ١٩٧١م •

(٣) تاريخ مصر السياسى ص ١٦٧ •

١٩٠٨م أراد به تثبيط عزائم المطالبين بالدستور(١) ، وكان الحديث على هيئة حوار بينه وبين أحد مندوبى جريدة المقطم ، ولأهمية ما دار فى هذا الحديث وتعلقه بما أتحدث عنه من أن جرائم القادة الانجليز كانت أحط وأقذر من جرائم جنودها التى تحدثت عنها « مس درهام » أعرض هذا الحديث(٢) :

« سأله مندوب المقطم : « قال قوم ان الحوادث التى حدثت فى تركية أخيرا أثرت فى حكومتكم تأثيرا شديدا حتى ان حكومتكم أوصتكم حين عودتكم الى هنا أن تدخلوا النظام الدستورى الى القطر المصرى » •

فكان جواب غورست : « هذه اشاعة لا أصل لها فان ما حدث فى تركية ليس له أقل دخل فى مسألة استعداد المصريين للحكم الذووى ، ومقدار ما بلغوه من هذا الاستعداد » •

فسأله المندوب : « هل أفهم من هذا القول أن لا أمل لمصر فى الحصول على الدستور قريبا » ؟

فأجاب : « ان مصر حاصلة على دستور الآن » • وأعنى به الدستور الذى يتضمنه قانونها النظامى الصادر سنة ١٨٨٣ م فالأمة البريطانية مستعدة كل الاستعداد للسعى مع المصريين فى توسيع نطاق هذا الدستور تدريجا على قدر ما تسمح به درجة ارتقاء الأهالى فى العلم والمعرفة أما اذا كان المقصود من هذه الصيحة فى طلب الدستور انشاء حكومة نيابية باطلاق المعنى كما هى الحال فى انكلترة وفى بلدان أخرى أوروبية ، فليس عندى على ذلك الا جواب واحد وهو أن الشروط اللازمة لادارة البلاد بموجب نظام مثل هذا النظام غير متوفرة الآن والتفكير فى ادخال تغيير يحدث انقلابا كهذا الانقلاب ، ضرب من الحماقة والجنون » •

فقال المندوب : « اذن حضرتكم لا ترون رأى الذين يحسبون أن الطريقة الوحيدة لاعداد المصريين للحكم الذووى تقوم بتجربة ذلك فعلا ولو أدت التجربة الى فشل مؤقت » ؟

فأجاب : « نعم انى لا أرى رأيا مؤداه أن تقضى البلاد جيلا أو جيلين وحكومتها مختلة معتلة تجر البلاء عليها فى الداخل ، وتفقدها الثقة فى الخارج ، وأنا واثق أن البلاد تعدل عن هذه التجربة قبل أن

---

(١) انظر صفحات مطوية لاحمد لطفى السيد ص ١٧ •

(٢) انظر محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ص ٥٩ ـ ٦١ •

تثمر ثمرة ، لأن ادخال النظامات النيابية الى البلاد ، قبل أن يجيء أوانها ، يؤدى لا محالة الى رد فعل يذهب بآمال الذين يتمنون مثلى قرب اليوم الذى يمكن أن تعطى مصر فيه استقلالها الداخلى » .

فسأله المندوب : « فبماذا تشيرون اذن على الذين يتمنون مجيء ذلك اليوم بأسرع ما يمكن مع حفظ الفوائد المكتسبة الآن » ؟

فأجاب : « أشير عليهم أن يثقوا بمقاصد بريطانية العظمى ونياتها وأن يعاونونا فى المساعى التى نبذلها الآن فى السبيل الذى يبتغونه ، وأن ينتهزوا كل فرصة ليبرهنوا للأمة البريطانية أن المجالس المحلية ، ومجالس المديريات التى يراد انشاؤها تعمل أعمالا نافعة فى البلاد ، وتساعد الحكومة فى ادارة أحكام البلاد طبقا لحاجات الأهالى ورغائبهم ، فذلك أحسن حجة لتوسيع اختصاصات تلك المجالس » .

وكان لهذا الحديث أسوأ الأثر فى نفوس المصريين جميعا ، واحتج عليه الحزب الوطنى بالبرقيات والمقالات والاجتماعات والخطابة ، ومما جاء فى احدى البرقيات التى أرسلها الزعيم محمد فريد قوله : « والحزب الوطنى يصرح بأن مصر أكثر استعدادا وأهلية لحكم نفسها بنفسها من كثير من الأمم الأوروبية ، وأن مصر ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالهما »(١) .

وكان من نتائج هذه المقالات والمواقف التى استمر عليها أعضاء الحزب الوطنى أن دبر المستعمر للتخلص من الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير « اللواء » فانتهز فرصة نشر اللواء فى عدد ٢٨ من مايو سنة ١٩٠٨ م خبر مذبحة وقعت ببلدة « الكاملين » بالسودان تحت عنوان : « دنشواى أخرى فى السودان — ٧٠ مشنوقا و١٣ سجينا » وكان عدد من شنق اثنى عشر فقط ، فاتهمت الحكومة اللواء ورئيس تحريره بالذات بالكذب وبلبلة الرأى العـــام ، وعقدوا له محاكمة فى يولية سنة ١٩٠٨ م ، ولكن المحكمة لم تجد ما تدين به الشيخ جاويش فبرأته وأوقعت عليه غرامة عشرين جنيها عن تهمة اهانة وزارة الحربية . واستأنف الحكم فنظرت القضية مرة أخرى فى ٣٠ من أغسطس « وجاء حكم الاستئناف بالبراءة الكاملة ، وكان ذلك فوزا كبيرا للقضية الوطنية ، واحباطا لمؤامرات المستعمر وأعوانه ؛ ولكن التربص بالأحرار لم ينته ، والايقاع

---

(١) محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ص ٦٠ .

بين الحكومة والوطنيين ما زال هدف الاستعمار الأسمى ، وان كان الجاويش قد نجا من السجن فى عهد وزارة مصطفى فهمى (باشا) فمن الممكن ألا ينجو فى عهد وزارة بطرس (باشا) غالى الذى خلفه فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٠٨ م لذلك انتهزوا صدور مقال الشيخ جاويش عن ذكرى دنشواى الذى نشره فى اللواء فى ٢٨ من يونية سنة ١٩٠٩ م وحكموا عليه بالسجن ثلاثة أشهر(١) ، وكان ذلك بدء العداء المستحكم بين الحكومة والوطنيين من جهة ، وبين الوطنيين والانجليز والخديوى عباس من جهة أخرى(٢) ، وصدر قانون النفى الادارى فى ٤ من يولية سنة ١٩٠٩ م وهو قانون ظالم مهين يجعل من حق السلطة الادارية نفى الأشخاص الذين ترى أنهم خطر على الأمن العام الى جهة نائية من القطر . وقد أخذ كثير من الأبرياء بهذا القانون ، وكان وسيلة لانتقام بعض العمد ورجال الادارة من خصومهم الشخصيين ، واختارت الحكومة الواحات الداخلة منفى لمعظم من قضت لجان النفى الادارى بادانتهم(٣) • وظهر أثر هذا القانون وغيره من القوانين التعسفية التى قصد بها تقييد الشعب المصرى بقيود لا يستطيع أن ينفك منها حين اتضح أن الانجليز يعتزمون حمل الحكومة المصرية على مد امتياز قناة السويس ، مع أن هناك نصف قرن باق على انتهاء الامتياز الذى منح فى عهد اسماعيل ، وأن الانجليز نالوا وعدا من بطرس باشا غالى رئيس الحكومة المصرية بالموافقة على هذا التجديد ، وأن مشروعه قيد البحث فى مجلس النظار — الوزراء — • وعلى الرغم من أن الهدف من مد امتياز قناة السويس أربعين سنة جديدة تبدأ من سنة ١٩٦٩ م تبدو فيه أطماع الاستعمار واضحة ، والغاية منه لا تخفى على أى وطنى(٤) الا أنهم كانوا سلبيين ، يبدو الحذر فى مواقفهم نتيجة لهذه القوانين الظالمة التى سلطها عليهم بطرس غالى ، ولم تبد الجرأة والشجاعة الا فى مواقف زعماء الحزب الوطنى والزعيم محمد فريد • فقد أخذ يكتب فى اللواء مفندا لمشروع الامتياز ، ومحذرا من عواقبه ، واستطاع أن يكتسب الى جانبه مجموعة هائلة من الوطنيين الأحرار ، وتطوع الصيدلى ابراهيم الوردانى فاغتال

---

(١) انظر ص ١١٥ ، ١١٦ من هذا البحث •
(٢) انظر محمد فريد ص ١٠٥ •
(٣) المصدر السابق ص ١٠٦ •
(٤) محمد فريد ص ١٢٥ ـ ١٢٦ •

بطرس غالى فى ٢٠ من فبراير سنة ١٩١٠ م وهو منصرف من ديوانه برياسة مجلس الوزراء(١) ، وكان هذا أول اغتيال سياسى يحدث فى مصر بعد انقضاء قرن وسنوات على اغتيال الجنرال كليبر وعلى الرغم من اعتراف الوردانى ، وذكره لأسباب اقدامه على هذا الاغتيال حرض الانجليز الحكومة على الحزب الوطنى فقبض على ٢٦ من رجاله ، وقدموا للمحاكمة بتهمة الاشتراك فى اعداد الجناية ، ولكن القاضى المصرى النزيه « متولى غنيم » رأى أنه لا وجه لاقامة الدعوى ضد هؤلاء ، حيث ان الجانى موجود ، ولم يثبت أن له شركاء . وكان من نتائج هذا الحادث أن ظهر نوع من التعصب الدينى فى مصر لم يكن موجودا قبل ذلك ، ولم يحاول أحد من الأقباط أو من المسلمين أن يثيره فى وقت من الأوقات ، ولكن الصحف البريطانية أخذت تغذى هذه النزعة بما تكتبه من مقالات مدعية أن القتل ما حدث الا لأن رئيس الوزراء مسيحى ، وردد ذلك أيضا روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق ، وغيره من المتعصبين فى أوربة(٢) ، واندفع الانجليز فى مقاومة الصحف الوطنية وفى ملاحقة الأحرار ، وأوقفت وزارة محمد سعيد (باشا) التى خلفت وزارة بطرس غالى فى ٢٣ من فبراير سنة ١٩١٠ م جريدة « العلم » لسان حال الحزب الوطنى مدة شهرين ، وكان المنتظر أن تكون هذه الوزارة أرحب صدرا وأفسح أفقا فى فهم القضايا الوطنية ، والوقوف

---

(١) انظر تاريخ مصر السياسى ص ١٦٨ وقد ذكر فيه الأستاذ أمين سعيد أن اغتيال بطرس غالى كان فى ٢١ من نوفمبر سنة ١٩١٠ ، ولكنى وجدت تاريخ اغتياله هو ٢٠ من فبراير فى محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ص ١٥٤ ، وفى ديوان وطنيتى لعلى الغاياتى ص ١٠١ ، وجدير بالذكر أن على الغاياتى كان صديقا للوردانى ، وأنه كان فى ذلك الوقت شاعر الحزب الوطنى الذى ينتمى اليه الوردانى أيضا ، وكانت متابعته للقضية لحظة بلحظة مما يطمئن الى التواريخ التى ذكرها .

(٢) روزفلت هذا (يسمى تيودور روزفلت) تولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة من سنة ١٩٠١ الى سنة ١٩٠٨ م ، وهو غير (فرنكلين روزفلت) الذى كان رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية . ولكن روزفلت الأول قريبه . وتوفى سنة ١٩١٩ انظر محمد فريد ص ١٦٠ ، وجريدة الشعب التى اصدرها محمد فريد فى فترة ايقاف العلم عدد أول ابريل سنة ١٩١٠ م .

بجانب الوطنيين ليصلوا جميعا الى حقوق الوطن ، وانتزاع حرية المواطن من براثن المحتل ، ولكن خاب ظن الوطنيين فى هذه الوزارة ، فقد جاءت أسوأ من سابقتها • وفى عهدهـا صدرت أسوأ القوانين لمحاربة حرية الصحافة ، ولارهاب الوطنيين فوضعت قانونا(١) يقضى باحالة تهم الصحافة الى محاكم الجنايات ، بعد أن كانت من اختصاص محاكم الجنح ، وعدلت بعض نصوص قانون العقوبات لمعاقبة الاتفاقات الجنائية ولو لم يتوافر فيها أركان الاشتراك فى ارتكاب الجريمة حتى تستطيع أن توقع بالأبرياء ، وأن تفزع الأحرار(٢) ، واستغلت هذه القوانين أسوأ استغلال فحكم على محمد فريد بستة أشهر سجن ، وبثلاثة أشهر على الشيخ عبد العزيز جاويش لأنهما قدمـا ديوان « وطنيتى » للشاعر على الغاياتى ، وبدأ الأحرار فى الاختفاء أو الخروج من مصر نهائيا ، واشتدت وطأة المحتل ، واتسع جبروته حتى على الخديوى عباس نفسه ، فأتى باللورد « كتشنر » ممثلا له فى مصر بعد وفاة « الدون غورست » فى ١٢ من يولية سنة ١٩١٠ ، ولم يكن من أنصـار سياسة الوفاق التى اتبعهـا غورست ، بل كان معروفا عنه أنه عسكرى يتسم بالجبروت والبطش ، وأنه سيعيد عهد كرومر • وقد ثبت ذلك بالفعل ، فما ان استقر فى قصر الدوبارة حتى بدأ يتصرف تصرف الملوك فى بلادهم ، وصار يتولى بنفسـه افتتاح المشاريع العامة ، ويرأس حفلاتها ، ويطوف فى البلاد ، ويقابل وفود الأعيان ، فكان ذلك ايذانا بانقضاء عهد سياسة الوفاق ، وعودة سياسة السيطرة الانجليزية السافرة • ولجأ بعض أقطاب الحزب الوطنى وعلى رأسهم محمد فريد وعبد العزيز جاويش الى تركية وأوربة اتقاء لشره • وحاول عباس بعد مضايقات كتشنر له ، واغلاق كل باب فى وجهه أن يعود الى الحزب الوطنى ويتعاون معه ، فقوبل بالرفض التام ، مما دفعه الى التفكير فى سنة ١٩١٣ م فى التنازل عن العرش لأكبر أنجاله وولى عهده عبد القادر ، ولكن كتشنر لم يحقق

---

(١) هو القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩١٠م الصادر فى ١٦ يونية سنة ١٩١٠ م •

(٢) هو القانون رقم ٢٨ لسنة ١٩١٠م الصـادر فى ١٦ يونية سنة ١٩١٠م •

راجع محمد فريد لعلى الغاياتى الهامش ص ١٢٢ ، وجريدة الشعب ٥ مايو سنة ١٩١٠م •

له هذه الغاية(١) ، وفى ١٢ من يونية سنة ١٩١٤ م سافر الى تركية وهناك أطلق عليه محمد مظهر — وكان طالبا فى الكلية البحرية التركية سبع رصاصات عند خروجه من الباب العالى أصابته واحدة فى وجهه ، وأخرى فى ساعده الأيسر ، وثالثة فى صدره ، ورابعة فى فخذه ومع ذلك لم يمت ، وأطلق جندى تركى الرصاص على الطالب فأرداه قتيلا(٢) ، وقد أظهر هذا الحادث مدى تضحية الوطنيين واستعدادهم لبذل النفس والنفيس للوصـــول الى الاستقلال ، وانتزاع حريتهم ، وبين للمستعمر وللمتعصبين الدينيين أن الكفـــاح الوطنى لا يعـــرف فرقا بين مسلم ومسيحى ، وأن المجاهدين لا يهمهم الا مصلحة الوطن • ومع أن عباسا شفى من اصابته خاف أن يعود الى مصر خاصة أن الحرب العالميـــة الأولى قد أعلنت فى أول أغسطس سنة ١٩١٤ م أثناء وجوده بالمستشفى وأراد أن يسترد كيانه من حيث انه صاحب عرش مصر ، فاتصل بمحمد فريد وبالوطنيين الأحرار فى مصر وخارجها ، وأصدر منشورا الى الأمـــة المصرية فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٤ م باعلان الدســـتور الكامل فى مصر(٣) وأعلن الانضمام الى ألمـــانية وتركية ضد انجلترة ، فأعلن الانجليز الحماية على مصر فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ م ، وفى اليوم التالى أعلنوا خلع الخديوى عباس الثانى ، وتولية الأمير السلطان حسين كامل عرش مصر(٤) ، وفى ظل الأحكام العرفيـــة ، وباسم الحماية نفى الأحرار وأغلقت الصحف ، وخيم الظلام على مصر ، وضاع اعلان الدســـتور وسط الضباب ، وأصبح الحكام والمحكومون رهن مشيئة الانجليز ، وألغيت وزارة الخارجية المصرية من وزارة حسين رشدى باشـــا التى تألفت بعد اعلان الحماية ، وذلك اكتفاء بوزارة الخارجية البريطانية التى أصبحت منذ ذلك التاريخ تتحدث باسم مصر فى المحافل الدولية • واعتقل الانجليز زعماء الحركة الوطنية وقادتها وأنصارها والمنتمين اليها وملأوا بهم السجون ، ونفوا بعضهم الى الواحات ومالطة وسيدى بشر ومعتقلات أخرى ، •• أى : أنهم لم يتركوا فى طول البلاد

---

(١) انظر محمد فريد ص ٢٤٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، وتاريخ مصر السياسى ص ١٦٩ .

(٢) محمد فريد ص ٣٤٣ وأمين سعيد ص ١٧٠ .

(٣) مذكرات محمد فريد ص ٩٥ .

(٤) الوقائع المصرية عدد ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ م .

وعرضها من لا يؤمن بهم ويسبح بحمدهم ، كما أخضعوا الصحف لمراقبة شديدة ومنعوا الدخول الى القطر والخروج منه الا بتصريح يصدرونه مقدما ، ووضعوا الحكومة المصرية نفسها تحت تصرفهم(١) .
وفى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ م توفى السلطان حسين كامل وتولى عرش مصر السلطان أحمد فؤاد الأول .

وظل هذا حال مصر الى أن وضعت الحرب أوزارها فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ م . والى أن اشتعلت الثورة فى العاشر من مارس سنة ١٩١٩ م . وعندها فقط تغير وضع المكبوتين والمقهورين فى مصر ، وأصبح صوتهم يسمع فى كل أنحاء العالم ، واهتز عرش الاحتلال على الرغم من قوته الباطشة التى استعملها بكل عنف ضد الطلاب العزل فى المظاهرات ، وضد الزعماء والآمنين فى المدن والقرى . وكانت تلك الثورة المصرية أول ثورة تهب فى الشرق العربى على الاستعمار الغربى ، وأظهرت مصر بها عمق جذورها الحضارية وريادتها للأمة العربية والافريقية ، وبها فتح الطريق أمام الشعوب العربية والشرقية الأخرى التى ابتليت بالاستعمار فثار السوريون فى أثرها على فرنسة وثار العراقيون على الانجليز وثار عليهم الفلسطينيون أيضا كما ثار عليهم الترك والايرانيون وثار المغاربة والتونسيون على فرنسة . واذا كانت هذه الثورات لم تحقق غايتها فى أول أمرها ، فانها ظلت تتتابع وتنضج مع الأحداث شيئا فشيئا الى أن وصلت الى الحرية والاستقلال وأصبحت كل هذه الشعوب تحكم نفسها وتفرض وجودها ضمن مجموعة الدول صاحبة السيادة والمسئولية عن نفسها ومواقفها أمام دول العالم الأخرى .

* * *

٤ ــ موقف الشعراء بعد ثورة ١٩١٩ :

لم تكن هذه الأوضاع المتردية بعيدة عن احساسات الشعراء فكما نظموا قبل ثورة ١٩١٩ يصورون آلام الشعب وضيقه ذرعا بالاحتلال وشعوره بالهوان تحت سياط الاستعمار ، واستنزاف ثرواته ، وحرمانه من حق الحياة الحرة الكريمة ، وتحريك نفوس القادرين على الأخذ بيد هذه الأمة لتترفع فوق آلامها وتتغلب على معوقات تقدمها من فقر

---

(١) تاريخ مصر السياسى ص ١٧٠ .

وجهل ومرض ، وشحذ النفوس بتذكيرها بماضيهـا العريق ، ماضى مصر التى رسمت طريق الحضارة للبشرية كلها منذ آلاف السنين ، وقبل أن يعرف الانجليز بل وأوربة كلها شيئا عن أسس الحضارة والتمدن الانسانى بعشرات المئات من السنوات .

كان ذلك طريق الشـــعراء منذ الاحتلال حتى بزوغ ثورة سنة ١٩١٩ م ، يقتربون من الغـــاية فى غرس جذور الثورة ، ولكنهم لا يدخلون فى أعماقها لأن عيون المحتل ترقبهم ووسائل تدميرهم والقضاء عليهم كلها بيده ، وقد اشتد ثقلها عليهم بالأحكام العرفيـــة أثناء الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ م ، فلم يجدوا بدا من التوارى خلف الحديث عن مجود المـــاضى تارة ، والتغنى بالهوى والجمال ووصف الحفلات والمدح والرثاء أخرى ، حتى قامت ثورة ١٩١٩ م فوجدوا فيها بارقة أمل طالمـــا عملوا من أجلهـــا فأخذوا يذكرون روح الثورة ، ويبثون فى النفوس الحماس ، ويمجدون الشهداء ، ويحببون الى الأحرار طريق الفداء ، وبينما هم فى نشوتهم انقضت عليهم أسهم الخلافات الحزبية ، والصراعات الممقوتة بين القادة فراحوا يبكون الأمل مرة ، ويصرخون بالوحدة الوطنية ، ووحدة الهدف حتى لا تذهب دماء الشهداء مرة أخرى وسوف تظل صرخات شوقى ومحرم وحافظ وغيرهم — من الشعراء — التى ضاعت وسط الخلافات الحزبية لمحة من تاريخ مصر تصور الحقيقة نابعة من أعماق النفوس ، وتبين كيف تاهت القضية الوطنية من أجل غايات شخصية وحزبية عشرات السنين لا نعرف فيها مستقرا ، ولا يعرف المقهورون من أبناء الوطن فيها طريقهم الى الحرية والأمن .

وليس هنا مكان لعرض الصور الشعرية التى توضح ذلك ، ولكننى أحس بالأسى يفيض من أعماق شوقى ضيقا بالأحزاب وبالمشتغلين بالسياســـة وبالمسئولين عن قضايا الوطن ، وأحب أن أشاركه ذلك الأسى والألم فأذكر بعض ما قاله فى قصيدته « شهيد الحق » التى نظمها فى الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل قال(١) :

الام الخلف بينـــكم الاما وهذى الضجة الكبرى عـــلاما

---

(١) انظر الشوقيات ج ١ ص ٢٢١ طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٩٧٠ ، وتوافق الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل ١٠ من فبراير سنة ١٩٢٥ م .

وفيـم يكيـد بعضكمو لبعض وتبدون العـداوة والخصاما
وأين الفوز ؟ لا مصر استقرت على حال ولا السـودان داما
وأين ذهبتـم بالحق لـما ركبتم فى قضيـته الظلامـا
شببتم بينكم فى القطـر نـارا على محتـله كانت سلاما

ملأ صوت شوقى آفاق مصر ، وراح الركبان يتغنون بقصيدته فى ربوع الوادى ، فألهب ذلك شـعور بعض القادة ، وأخذوا يبحثون لهم عن خلاص من هذا الموقف المهين الذى يقفون فيه جميعا مكتوفى الأيدى • فاتجه أمين الرافعى الى الدعوة لاجتماع البرلـمـان المنحل على الرغم من ارادة الملك • وكتب فى ذلك فصولا ضافية ـ بجريدة « الأخبار » التى كان يرأس تحريرهـا ، والتى كانت تتحدث بلسان الحزب الوطنى ـ يدعو الى انعقاد البرلـمـان من تلقـاء نفسـه يوم السبت ٢١ من نوفمبر سـنة ١٩٢٥ م من غير حاجة الى دعوة من الملك وذلك بناء على المـادة ٩٦ من الدستور التى تقضى بأن : « يدعو الملك البرلـمـان الى عقد جلساته العادية قبل يوم السبت الثالث من شهر نوفمبر ، فاذا لم يدع الى ذلك يجتمع المجلس بحكم القانون فى اليوم المذكور »(١) •

واستجاب أعضاء البرلـمـان لهذا النداء • وعلى الرغم من حصار الجيش لدار البرلـمـان ، ومنع وصـول الأعضاء اليه اجتمعوا فى فندق الكونتيننتال ، وكان من نتيجة هذا الاجتماع أن تضامن مع الشعب وأعضاء البرلـمـان بعض أمراء أسرة محمد على وطلبوا من الملك تنفيذ الدستور ، وكذلك حدث تقارب بين الأحزاب أدى الى تشكيل لجنة تسمى « لجنة الأحزاب المؤتلفة » من حزب الوفد والحزب الوطنى ، وحزب الأحرار الدستوريين • وتوج هذا الائتلاف بمؤتمر وطنى عقد فى يوم الجمعة ١٩ من فبراير سنة ١٩٢٦ م خرج بقرارات كان لها أثر كبير فى القضـاء على المهاترات الصحفية بين الأحزاب ، وعلى روح العـداء التى كان يستغلها الاستعمار بين الزعماء • وكتب الشعراء فى ذلك ما يدل على فرحتهم بالائتلاف الوطنى ، •• داعين الى دعم الوحدة الوطنية ، والى

---

(١) انظر (الأخبار) عدد ٨ من نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، وأعـداد ٩، ١٠ ، ١١ ، ١٢ من نفس الشـهر ، وفى أعقاب الثورة جـ ١ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ •

تتناسى كل الخلافات فى سبيل الوصـــول بالوطن الى غايته من الحرية والاستقلال وقسمت الدوائر الانتخابية بين الأحزاب لتنتهى بانتصـــار الأحزاب المؤتلفة واستقالة زيور ، وتشكيل وزارة عدلى فى ٧ من يونية سنة ١٩٢٦(١) • ولكن عدلى لم يمكث فى الحكم قرابة العـــام ، وجاءت وزارة ائتلافية أخرى برآسة عبد الخالق ثروت ، ولم تتمكن الوزارتان من تحقيق شىء للقضية الوطنية على الرغم من التقارب الواضح بين الأحزاب ، وكل ما يمكن أن ينسب من فضل الى هاتين الوزارتين ، هو استقرار الأحوال النيابيـــة ، وسيادة الدستور ، ومحاولة التمسك به وقد ظل هذا الوضع قائما حتى توفى سعد زغلول فى يوم الثلاثاء ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٢٧ م (٢) وانطلق الشـــعراء فى رثائه يصورون آلام الأمة وحزنها لا من أجل فقده فحسب ، ولكن من أجل أمل ضاع ، ويعبرون فى أناتهم عن تمزق الشعب الذى عانى الكثير من الخلاف بين القادة ، وتحمل هو وحده نتيجة أهوائهم ونزعاتهم المتضاربة ، ونزعاتهم المتصارعة ، وكان كل شاعر يضرب على وتر يصادف وقعا من نفوس الناس المكلومة على شعبها وعلى مصيرهـــا المضيع بين الحكام وبين المستعمر الغاشم الذى يضرب جذوره فى ربوع الوطن من غير بارقة أمل فى جلائه ، أو رفع كابوسه عن الصدور •

وتولى مصطفى النحاس رياسة حزب الوفد بعد سعد زغلول ، وكانت هناك مفاوضات دائرة بين ثروت و « تشمبرلن » وزير الخارجية البريطانية رفضت نتائجها الأحزاب ، فاستقال ثروت فى مارس سنة ١٩٢٨ م ، وشكل مصطفى النحاس وزارة ائتلافيـــة أخرى فى ١٦ من مارس سنة ١٩٢٨ م لم تصادف قبولا لدى الانجليز فبدأوا فى وضع العراقيل فى طريقها ، وأخذ المعتمد البريطانى يرسل المذكرات المتتالية الى الوزارة ، وهى ترد عليـــه بدون لقـــاء حول رأى • الى أن أوعز الملك الى أعضـــاء الوزارة من الأحـــرار الدستوريين ، وكانوا أربعة بالاستقالة ليتحطم الائتلاف • وبذلك يجد الملك حجته فى اقالة الوزارة والقضـــاء على زعامـــة الوفد ، وعلى شخصية النحاس التى لم تكن

---

(١) انظر حوليات مصر السياسية لأحمد شفيق باشا الحولية الرابعة ص ١١٠ ، ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٤٨هـ ، ١٩٣٠م •

(٢) انظر فى أعقاب الثورة جـ ١ من ص ٢٢٧ الى ص ٢٧٩ •

مقبولة من الاستعمار فى ذلك الوقت ، وبالفعل تم للملك ما أراد وأقال وزارة النحاس فى ٢٥ من يونية سنة ١٩٢٨ م ، وكانت هذه أول مرة من عشرات السنين يصدر فيها الملك أمرا باقالة وزارة ، ويعد اعتداء صارخا على الدستور ، وقد هجم على هذا العمل كل من الأحزاب والوطنيين بخلاف الأحرار الدستوريين الذين تربع زعيمهم محمد محمود على رياسة الوزارة وأوقف الحياة النيابية مدة شهر ، وقبل انقضائه استصدر أمرا ملكيـــا بحل مجلس الشيوخ والنواب ، وتأجيل الانتخاب مدة ثلاث سنوات(١) ، ولكن وزارة المحافظين فى بريطانية ذهبت وجاءت وزارة عماليـــة فى ٣١ من مايو سنة ١٩٢٩ م وكان رئيسها « مكدونلد » يعطف على الوفد ، فأرغم المعتمد البريطانى « جورج لويد » على الاستقالة والرحيـــل من مصر ، وكان صديقا لمحمد محمود ، فشعر هذا الأخير بأنه لن يجد سندا يشد أزره ضد الأحزاب الغاضبة • فاستقال فى ٢ من أكتوبر سنة ١٩٢٩ م ، وحل محله عدلى يكن ليرأس وزارة حيادية مهمتها اجراء الانتخابات واعادة الحياة الدستورية ، وفى ذلك الوقت وصل الى مصر المعتمد البريطانى الجديد « بيرس لورين » ومهمته التفاهم مع الوفد ، واعادته الى الحكم ، وكان الانجليز يرجون أن يعقد لهم الوفد المعاهدة التى سعوا من أجلها منذ سنة ١٩٢٢ حتى هذا التاريخ(٢)

وكان للانجليز هدف سياسى خطير منذ انتهت الحرب العالمية الأولى ، وأعلن مصطفى كمـــال أتاتورك استقلال مصر ونهاية الخلافة العثمانية ، ذلك الهدف هو الارتباط مع مصر بمعاهدة ، وانشـــاء علاقة مستقرة أساسهـــا الود والتفاهم بين السادة والعبيد ، فى ظلهـــا يستطيع السادة أن ينامو ملء جفونهم ، وأن يأمنوا على حياتهم وأموالهم • وألا تقوم ضدهم الثورات والقلاقل والاضطرابات ، ومن أجل هذه الغاية تعهدوا بالتربية جيلا كاملا من الرجـــال ، ودفعوا بهم الى الصفوف الأولى ليكونوا لهم عونا ، وليمثلوا أمام الرأى العـــام فى مصر والعالم الواجهة المصرية التى تتولى أمور الوطن ، وهى فى الحقيقة لا تفعل شيئا الا بأمر المستعمر ومحض اشارته • ومن يتدبر تصاريح كرومر ، وملز ، واللنبى ،

---

(١) انظر حوليات مصر السياسية الحولية الخامسة ص ٩٤٣ ، ٩٤٤ وما بعدها طبع سنة ١٣٤٩هـ ، ١٩٣٠م •

(٢) انظر تاريخ مصر السياسى لأمين سعيد ص ٢٠٧ ـ ٢٢٦ •

ولويد ، رؤوس الانجليز فى مصر تتضح له الأساليب التى كان يتبعها هؤلاء وغيرهم لتحقيق هذه الغاية وقد بدت لنا واضحة بارسال « بيرس لورين » لاخضاع الملك وتغيير الحكومة ، وتقديم الوفد وتربعه على الوزارة ليكون رهن مشيئتهم فى توقيع المعاهدة التى يريدونها(١) .

وقد استطاع هذا المندوب الانجليزى الغاء قرارات الملك ورئيس وزرائه ثروت ، وأجريت الانتخابات التى انتهت بفوز الوفد ليعود مصطفى النحاس رئيسا للوزراء فى أول يناير سنة ١٩٣٠ ، وفى ٣١ من فبراير بدأت مفاوضاته مع الانجليز فى لندن من أجل توقيع المعاهدة المنشودة ، واستمرت المفاوضات من هذا التاريخ حتى ١٧ من مايو . ثم قطعت لاختلاف الطرفين على موضوع السودان . وعاد الوفد المصرى من لندن وهو يلهج بالثناء على الانجليز على أمل ،ن يحظى بودهم ، وأن تظل العلاقات بينهما ودية ، ولكن الانجليز الذين جاءوا بالنحاس شعروا أنه لم يحقق مطالبهم ، ولم يرضخ رضوخا كاملا لما أرادوه ، فبدأوا يوحون للملك بالتخلص منه ، وقد تم لهم ما أرادوه فما ثم شهر واحد بعد عودته من لندن حتى أوقف الملك كل قرار يصدره . فاضطر الى الاستقالة فى ١٧ من يونيو سنة ١٩٣٠ م لتخلفه وزارة اسماعيل صدقى التى شكلت فى أول أمرها ائتلافية ، ثم ما لبثت أن أصبحت ديكتاتورية ، وظلت فى الحكم أربع سنوات أساءت فيها الى الحياة الدستورية ، والى الصحافة ، والأحزاب ، وكبار رجال الدولة ، وأحالت على المعاش كل من تشعر بأنه خطر عليها ، وأرهبت الشعب ارهابا شديدا حتى تضمن عدم وقوع قلاقل من رجال المعارضة ، وخاصة حزب الوفد والحزب الوطنى .

ووجد الملك فى هذه الوزارة بغيته فأخذ يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة ، وحاول صدقى الاعتراض على هذا التدخل ، ولكنه لم يجد من يصغى اليه فاضطر لتقديم استقالته فى أكتوبر سنة ١٩٣٣ م ، وتولى الوزارة خلفا له عبد الفتاح يحيى وكيل حزب الشعب .

---

(١) راجع المقتطف عدد أول مايو سنة ١٩٢٦م ١٨ من شوال سنة ١٣٤٤هـ خطبة للورد لويد بكلية فيكتوريا بالاسكندرية توضح طريقتهم مع الزعماء للوصول الى غاياتهم ، وانظر حوليات مصر السياسية ، الحولية السادسة ص ٤٨٩ ومابعدها طبع مصر سنة ١٣٤٩هـ ، ١٩٣١م .

وكما يقول الأستاذ أمين سعيد(١) : « تظاهر الانجليز فى أول الأمر بالحياد ، على أساس أن ما يجرى هو من شئون مصر الداخلية وحدهـا ، بيد أن طغيان القصر وسـيطرته على الحكومة ، وتفرده بالسلطان جعلهم يتدخلون علنـا ومباشرة ، بغية حفظ التوازن بين القوى وكانوا دائما يحرصون على الاحتفاظ بهذا التوازن ، ويمنعون احدى القوى من الطغيان على الأخرى حتى يبقى الجميع فى حاجة اليهم ، تبعا لوحى مصلحتهم » • وعلى الرغم من هذا التظاهر استدعت لندن بيرس لورين وعينوا مندوبا آخر مكانه ليتبع سياسة جديدة كما هى عادتهم دائما ، وجاء هذا المندوب المسمى : « باترسون » فى سبتمبر سنة ١٩٣٤ ليبدأ عقب وصوله مباشرة التدخل فى أمور الدولة ، ويطلب من رئيس الوزراء عبد الفتاح يحيى اقالة وزيرين من وزرائه ، وتعيين رئيس للديوان ترضى عنه انجلترا ولم يتمكن رئيس الوزراء من تحقيق رغبتهم ، فاستقال مكرها فى ٦ من نوفمبر سنة ١٩٣٤ م وفرض باترسون على القصر تعيين محمد نسيم رئيسا للوزراء ، وكان على صلة حسنة بالوفد فاستقبل الوفديون وزارته بالارتياح لأنه أنقذهم من ديكتاتورية صدقى ، ومن تحكم القصر وطغيانه واستصدر محمد توفيق نسيم عقب تأليفه الوزارة مرسوما بحل البرلمـان الصدقى ، والغـاء الدستور الصدقى أيضـا ، وكان من المنتظر عقب ذلك العودة الى العمل بدستور ١٩٢٣ م ولكن الانجليز وقفوا فى طريقه وحـالوا دون ذلك فتألفت جبهة وطنية من الوفد والأحرار الدستوريين والأحزاب الأخرى فى ٦ من ديسمبر سنة ١٩٣٥ م ، ورفعت مذكرة الى الملك تطالب بالعمل بدستور ١٩٢٣ م وبعض مطالب أخرى ، وقامت المظاهرات الطلابية من أبناء الأزهر والجامعة والمدارس تنادى بما ينادى به أعضاء الجبهة الوطنية ، فاضطر الملك لتنفيذ رغباتهم ، وكذلك الانجليز ، وطلبوا من توفيق نسيم تقديم استقالته حتى يمكن تأليف وزارة قومية توقع معاهدة مع الانجليز خاصة بعد أن بدأت ايطالية فى عهد موسولينى تنافس انجلترة فى البحرين الأبيض والأحمر ، وتهدد حدود السودان من جهة الحبشة ، ومصر من جهة لوبية ــ ليبية ــ واستقال محمد نسيم فى ٢٣ من ديسمبر

---

(١) انظـر تاريخ مصر السياسى ص ٢٢٦ ــ ٢٣١ ، وحوليات مصر السياسية ــ الحولية السابعة ص ١٠٤٦ وما بعدها طبع مصر ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١م •

سنة ١٩٣٥ وتألفت وزارة محايدة برياسة على ماهر فى ٣٠ من يناير سنة ١٩٣٦ م وما أن استقرت فى الحكم حتى طلبت من الملك اصدار مرسوم بتأليف وفد المفاوضات مع الانجليز فى ١٢ من فبراير سنة ١٩٣٦ م برياسة مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد ، وعضوية مجموعة من أعضاء حزبه ، وأحزاب الأحرار الدستوريين والاتحاد والشعب ، ورفض الحزب الوطنى الاشتراك فى المفاوضات لأنه لا يعترف بالاحتلال البريطانى ولا يعترف بالمفاوضات الا بعد الجلاء النهائى عن مصر والسودان(١) . وبينما المفاوضات دائرة مات الملك فؤاد فى ٢٨ من أبريل سنة ١٩٣٦ م ، ونودى بولى عهده « فاروق » ملكا على مصر وكان قاصرا فتألف مجلس وصاية برياسة الأمير محمد على توفيق — ولى العهد المقبل — لادارة الدولة ريثما يبلغ الملك سن الرشد ، وفى مايو أجريت الانتخابات التى انتهت بفوز ساحق لحزب الوفد ، فشكل النحاس بناء على ذلك ، وزارته الثالثة فى ١٤ من مايو سنة ١٩٣٦ م ، وتم توقيع المعاهدة فى ٢٦ من أغسطس سنة ١٩٣٦ م ، واحتفل بها الوفد احتفالا كبيرا بينما عدد كبير من رجال الدولة كان يرى أنها حققت للانجليز كل ما أرادوه ، ولم تحقق لمصر شيئا وقد ذكر محمود فهمى النقراشى أمام مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ م أن مصر وقعت هذه المعاهدة تحت ضغط الانجليز وتهديدهم باعادة الاحتلال عسكريا ، لأنهم كانوا يتوقعون نشوب حرب عالمية ، فأرغموا مصر على توقيعها ، ليكونوا فى أمن واطمئنان من جهتها(٢) .

وما أن استقر الأمر للنحاس حتى بدأ ينقص من قدر زملائه الوزراء وأعضاء الوفد الذين كانوا معه فى المفاوضات ، وانتهى به الأمر الى طرد أربعة من الوزراء الذين لهم نفوذ فى حزب الوفد من وزارته التى أعاد تشكيلها فى ٣٠ من يوليو سنة ١٩٣٧ م بمناسبة تقلد الملك فاروق سلطاته الدستورية وكان هذا ثالث انشقاق كبير يحدث فى حزب الوفد منذ عهد سعد زغلول ، وساعد هذا الموقف الملك الصغير على الاستهانة

---

(١) انظر تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وتياراته السياسية لمحمد رفعت (باشا) ص ٤١٧ ، ٤١٨ ، وتاريخ مصر السياسى ص ٢٣٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ـ ٢٤٧ .

(٢) تاريخ مصر السياسى ص ٢٤٨ .

بالوزارة وعدم الرضوخ لرغباتها ، وأطلق بعض أعضاء « مصر الفتاة » الرصاص على النحاس فى مصر الجديدة ، وبدأت الفوضى الحزبية تضرب جذورها فى السياسة المصرية كما كان الحال فى عهد الملك فؤاد ، وأخذ كل حزب يكيد للآخر عند الملك ليصل من خلال ذلك الى كراسى الحكم ، وتمكن الملك من التلاعب بالجميع على الرغم من حداثة سنه وتوليه لأمور الدولة ، فأصدر أمرا ملكيا باقالة وزارة النحاس فى ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٣٨ م لتخلفها وزارة برياسة محمد محمود التى أجرت انتخابات مزورة فاز فيها الأحرار الدستوريين بالأغلبية ويليهم الحزب الجديد حزب « الوفد السعدى » الذى ألفه النقراشى وأحمد ماهر بعد خلافهما مع مصطفى النحاس وقالوا انهم سيعيدون تأليف وفد سعد ، واحياء مبادئه • وعلى هذا تشكلت الوزارة فى ٢٤ من يوليو سنة ١٩٣٩ م من الأحرار الدستوريين ومن السعديين • ولكنها لم تعمر طويلا حيث وقع خلاف بينها وبين مجلس الشيوخ على اقرار موازنة الدولة • فأدى هذا الى تقديم استقالتها فى منتصف أغسطس سنة ١٩٣٩ م ليشكل على ماهر رئيس الديوان الملكى وزارة خلفا له ، ويتولى أخوه أحمد ماهر رياسة مجلس النواب ، وفى عهد هذه الوزارة ، وبعد أيام قليلة من قيامها أعلنت الحرب العالمية الثانية واندلعت نيرانها(١) •

* * *

٥ ــ نشر التراث ــ أسبابه ونتائجه :

هذه هى الصورة السياسية التى كانت لمصر منذ وطئت أرضها جيوش الاحتلال الانجليزى ، وحتى قيام الحرب العالمية الثانية • وقد كتب عليها أن تكتوى بنار الحربين العظميين على الرغم من بعدها عن مسبباتهما ، ولكن وجود الانجليز طرفا فيهما فرض عليها أن تصبح احدى الدول المتحاربة ، وأن تضرب مدنها ، ويحطم اقتصادها ، ويقتل أبناؤها ، وينتشر فى ربوعها الخوف والفزع ، وتمتلىء السجون بالأحرار من بنيها ، لا لشىء الا لأن المحتل يتربع على أرضها سلطانا يأمر وينهى ، وقادتها على خلاف دائم لا من أجلها • ولكن من أجل الجاه الزائف والمراكز المشبوهة ، والثراء الفاحش على حساب المحرومين والضعفاء والسذج من أبناء الشعب الطيب المسكين •

---

(١) انظر تاريخ مصر السياسى ص ٢٤٩ ــ ٢٥٩ •

وفى هذا الخضم المتلاطم من المآسى والأحزان والمهازل ظهرت طائفة من العلماء وأهل الرأى ركزوا كل جهدهم ووهبوا حياتهم لعروبة مصر وحفظ تاريخها وحضارتها الاسلامية ومجدها القديم • وكان طريقهم لتحقيق ذلك بجانب رفع الروح المعنوية للشعب ، وبعث الهمة فى نفوس بنيه هو احياء التراث الفكرى الخالد للأمة العربية والاسلامية ، ذلك التراث الذى كان دائما يشكل الخطر على الاستعمار فى كل مراحله • لأن لمصر وللأمة العربية حضارة ومجدا اذا ما انغرس فى نفوس أبنائها على حقيقته وأصالته خلق أجيالا لا تنحنى لجبار ولا تستذل لمحتل ، ولا تستسلم لعدوان •

لذلك كانت المحاولات الأوروبية المتواصلة منذ الحروب الصليبية حتى القرن العشرين تركز معظم فكرها فى القضاء على التراث الاسلامى وتشويهه وابعاد أبناء الأمة عنه حتى تتمكن أوربة من السيطرة عليهم وصبغهم بالصبغة التى تتفق وأهدافها فى المنطقة •

وقد تنبه لهذا الأمر جماعات من تلاميذ الرائد العظيم رفاعة رافع الطهطاوى ، وخطوا فى سبيل ذلك خطوات وئيدة ــ لكنها سديدة ــ حتى تأسست فى أواخر القرن التاسع عشر جمعيات علمية للقيام على اختيار الكتب الصالحة ونشرها ، فتكونت جمعية المعارف التى رأسها محمد عارف (باشا) وأنشأت لها مطبعة لنشر كتبها ، وجعلتها شركة مساهمة ، ونشرت من الكتب « أسد الغابة » لابن الأثير ، و « ألف باء » ، و « تاج العروس » ، وغير ذلك من الكتب القيمة التى كان لها أكبر الأثر فى تعريف النشء بأصول اللغة والجذور الحضارية للفكر العربى ، التى وقفت شامخة فى وجه المؤلفات الاستعمارية التى كانت تفد الى الشرق مدعومة بدعوة المستشرقين لها ، والعمل على ترويجها واحاطتها بهالة من الاكبار والاجلال تضعها فوق كل فكر عربى مهما كانت أصالته وقيمته التاريخية والحضارية •

وحين اتضح دور هذه الجمعية وفضلها على اللغة والأدب ، تأسست شركة أخرى لطبع الكتب العربية فى سنة ١٨٩٨ م ، وكان من أعضائها أحمد تيمور (باشا) وحسن عاصم (باشا) وعلى (بك) بهجت • وقد نشرت كتاب « الوجيزة » فى فقه الامام الشافعى ، و « سيرة السلطان صلاح الدين » و « فتوح البلدان » للبلاذرى ، و « الاحاطة فى أخبار غرناطة » ، وغير ذلك من الكتب التى كانوا يبحثون

عنها فى مختلف مكتبات العالم ، ويقومون بتحقيقها ونشرهـا ، وامتد هذا الأثر المحمود الى الآستانة مقر الخلافة فأسس فيها أحمـد فارس الشدياق مطبعة « الجوائب » وقام بنشر كثير من الكتب الأدبية القيمة مثل : « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » ، و « نسيم الصبا » للحلبى و « ديوان البحترى » وغيرهـا • وأصبحت هذه الكتب بعد طبعهـا سهلة التناول ، ووصلت الى أيدى كثير من المثقفين فاتجه عدد كبير من ذوى الثراء والمحبين للأدب والاطلاع على كتب الفقه والحديث والتفسير الى طبع عدد هائل من الكتب فى مطبعة بولاق وغيرها من المطابع التى كثر انتشارهـا فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر •

وكان هذا العمل فى مصر دعوة لكل الشعوب العربية والاسلامية لتقتفى أثرهـا • فقامت جمعيات مماثـلة فى بيروت وحلب ودمشق والآستانة ومكة وايران وغيرها من عواصم ومدن البلـدان العربية والاسلامية(١) •

وقد أسهم فى هذا العمل بجهد خلاق بجانب دعوته للاصلاح الدينى المرحوم الشيخ محمد عبده ، وكبار تلاميذه من بعده ، فعلى الرغم من أنه كان يحارب الكتب التى ألفت فى عهود الركود والضعف ويرى أنها تحجب العقل الاسلامى عن أن يرى الحياة على حقيقتها ويسايرها فى أحداثها بين المـاضى والحاضر • فانه كان يهتم بالكتب العربية والاسلامية التى ترجع الى عصور ازدهار الفكر الاسلامى ، وكان يتأثر بها فى أحاديثه وكتاباته •

ويحدثنا عن ذلك الدكتور أحمـد أمين فيقول(٢) : « والناظر فى أسلوب الشيخ محمد عبده يرى أنه متأثر بالقديم فى أول أمره حين كان ينشر مقالاته فى الوقائع والأهرام ، فلما نفى اثر حوادث عرابى ، وجاء بيروت اتصل بالكتب الأدبية ونشرها بعد أن شرحها مثل مقامات بديع الزمان الهمذانى ، ونهج البلاغة ، ويظهر أن نهج البلاغة أثر فيه أثرا كبيرا ، وطبع فى ذهنه أساليب قوية جزلة • ثم لمـا اتصل بجمال الدين الأفغانى وحرر معه مجلة « العـروة الوثقى » تدفق أسـلوبه كما

---

(١) انظر قصة الأدب فى العالم جـ ٣ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٣١٨ • وانظر أيضـا ما يتصل بهذا الراى ، فى كتاب الفكر الاسلامى الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ١٧٧ وما بعدها ط خامسة ـ دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٠م .

تقتضيه الكتابة الصحفيـــة ، وتحرر من الســـجع تحررا واســـعا ، ولمـــا عاد الى مصر بدأ يتعلم الفرنسية ويقـــرأ كتبها ويطلع على ثقافتها ، وطريقة معالجتها للموضوعات ، كما اطلع من كتب البلاغة القديمة على كتابى « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » وعنى بنشرهما ـــ وهمـــا كتابان لهما أســـلوب جزل ، وتعبير قوى وارشاد الى مواقع الحسن فى الكلام وتربية الذوق الأدبى ـــ كل هذا أثر فى أسلوبه ، وجعل له خاصة القوة والوضوح والتدفق ، حتى لتحس وأنت تقـــرأ أســـلوبه القديم ، وأسلوبه الجديد أنك تقـــرأ لكاتبين مختلفين تمام الاختلاف •

ثم يقول : وعلى الجملة فقد نقل الشيخ محمد عبده النثر فى أيامه نقلة جديدة بكتاباته من ناحية ، وبهذه المدرسة التى كونها من طلبته من ناحية أخـــرى ، فقد كان هؤلاء الطلبة ، يأخذون عنه وعن كتبه ومقالاته ويقلدونه ويتشربون روحه وأسلوبه وأدبه » • واذا دققنا النظـــر فى هذا القول وفى أقوال الشيخ محمد عبده نفسه عن الكتب التى كتبت فى عهود الضعف عرفنا لمـــاذا كان يهتم بالتراث العربى الأصيل ، ويرفض هذه الكتابات التى تقيد العقل والفكر العربى ، وتضعف النفوس والعقول ، يقول الشيخ محمد عبده : « اذا رجعنا الى كتب القـــرون المتوسطة ـــ فترة ما قبل الركود كالزيلعى مثلا ـــ نكون قد خطونا خطوة لاصلاح الكتب والفقه •

وما دمنا مقيدين بعبارات هذه الكتب ـــ المتأخرة ـــ المتداولة ولا نعرف الدين والعلم الا منها ، فلا نزداد الا جهلا • هذا الشوكانى : لمـــا كسر قيود التقليد الأعمى ، حيث كان وهابيا معتدلا ، صار عالمـــا وفقيها !! ان حالة الفقهاء هذه ـــ فى كتب المتأخرين ـــ هى التى ضيعت الدين •

ثم يقول : ان الناس تحدث لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم ينص عليها فى هذه الكتب ، فهل نوقف سير العالم من أجل كتبهم ؟ هذا لا يستساغ لذلك اضطر الحكام والعوام الى ترك الأحكام الشرعية ولجأوا الى غيرها • والفقهـــاء هم المسئولون عند الله عن هـــذا ، وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة !! لأنه كما يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبقوا عليه الأحكام بصـــورة يمكن للناس اتباعها ، كأحكام الضرورات ، لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ، ويجعلونها كل شىء ويتركون لأجلها كل شىء ••

يقرأون الأصول ، ولا يخطر ببال واحـد منهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب الى أصله ، أو يبحث عن دليله !! بل لم يخجلوا أن يقولوا : نحن مقلدون لا يلزمنا النظـر فى الكتاب والسنة • ودانوا لكتب المتقدمين عليهم مباشرة ، على تعارضها وتناقضها الذى تشتت به شمل الأمة ، ويكتفون بقولهم : وكلهم من رسول الله ملتمس(١) ••

ومع أن موقفه هذا واضح العـداء لمؤلفات عصور التمزق العربى ، فانه كان من أكبر دعاة احياء التراث السابق على هذه الفترة ، وأسهم فى ذلك بنفسـه وبين فى مجالسه العلمية أن هذا التراث هو الذى يجب أن يقوم على أساسه كل اصلاح ، وأن تبنى عليه نهضه الشرق الاسلامى وسعى لدى المسئولين الى تبنى هذه الفكرة والعمل من أجلها ولكى يرغب تلاميذه فى ذلك شرح كتاب « البصائر النصيرية » فى علم المنطق ، وأخـرج « نهج البلاغة » فى الأدب وجعلهما نموذجا لمـا يمكن الانتفاع به من التراث الفكرى فى عصور الازدهار ، وبجانب ذلك وضع مبادىء عامة للتأليف الحديث ، ولتفسير القـرآن الكريم ـ تمثلت واضحة فى تأليفه « رسالة التوحيد » وتفسيره « فاتحة الكتاب » وغير ذلك من مقالاته المتعـددة التى تمثل منهجا خاصا لم يعرف عن رجال الدين قبله •

وقد أثرت حركة احيـاء التراث هذه قبل الشيخ محمد عبده وفى عهده فى ايجـاد مجموعة من الشعراء والأدباء والمفكرين ينتمون قبل كل شىء الى تراثهم العربى الأصيل ويعملون على ابرازه ، بل ويتحدون به جماعات الكتاب الذين تعلموا فى أوربة ، وأخذوا يروجون لثقافتهم على حساب اللغة العربية وآدابها ، وعلى حسـاب تراثهم الاسلامى ومبادئه وأخلاقه •

ومن أبرز هؤلاء محمود سامى البارودى ، واسماعيل صبرى ، وأحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، وأحمد محـرم ، ومحمد عبد المطلب ، وأحمد الكاشف ، وأحمد نسيم من الشعراء ، ومن الكتاب مصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، والشيخ على يوسف ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وغير هؤلاء •

---

(١) انظر تاريخ الأستاذ الامام لمحمد رشيد رضا ج ١ ص ٩٤٣ ـ ٩٤٥ وما بعدها .

وبعد وفاة الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ بوقت قليل ظهرت موجات من الفكر الاستعمارى هدفها الأسمى تدمير اللغة العربية وصرف الناس عنها الى لهجات شعبية منتشرة فى كل وطن بل وفى كل اقليم من أقاليم الأمة العربية ، ليتحقق لهم بذلك تمزيق العرب فكريا كما مزقوهم سياسيا ، وليصلوا الى حلمهم الدائم ، وهو القضاء على القرآن الكريم(١) ، وابعاد الناس عن الاهتمام بالأدب العربى القديم ، وعن كتب التراث الاسلامى التى أخذ منها الغرب معظم حضارته الفكرية والاجتماعية والسياسية بعد أن نقلها الى مكتباته ، وعكف عليها ترجمة ودراسة ، لأنهم يعلمون أنه طالما هذا القرآن فى وجدان العرب ولسانهم يقوم عليه ، فلابد من أن يأتى يوم يقوم فكرهم ومنهجهم عليه أيضا .

وبهذا يسودون الدنيا ، وتدين لهم أوربا وغيرها من الأمم مهما كانت قوتها ، ومهما كان سلطانها . لذلك نلاحظ أنهم حاولوا النيل من أسس الدين أولا ولما لم يجدوا أملا من خلال ذلك ، غيروا خطط هجومهم لينقضوا على جذور الدين والقومية ، والتاريخ والحضارة عند العرب وهى « اللغة العربية » وساعدهم فى ذلك بعض تلاميذهم الذين رضعوا لبانهم فى معاهدهم فتنكروا للغتهم ودينهم وقوميتهم ، وان كانت مجلة « المقتطف » قد حملت هذه الدعوات قبل الاحتلال وبعده ، ودارت على صفحات « الهلال » مجادلات دائمة حول الفصحى والعامية(٢) ، فان هذه الحملات وتلك المجادلات ما كانت تظهر عارمة عنيفة

---

(١) راجع حول هذه الموجة والردود عليها أعداد الهلال فبراير سنة ١٩٠٢ ص ٣٢١ وعدد مارس سنة ١٩٠٢ وعدد يوليو ص ١٧٣ ، ١١٧ وعدد اول مايو سنة ١٩٤٣ م ، ١٣٠٣ هـ ص ٨٢٩ ـ ٨٣٣ ، وعدد اول مارس سنة ١٩٣٦ م ، ٧ من ذى الحجة ١٣٥٤ هـ ص ٥١٧ ـ ٥١٩ وغيرها ، وانظر أيضا « المستشرقون » لنجيب العقبى مطبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٧ وط ثانية ١٩٦٤ .

(٢) انظر فى هذا الموضوع (المقتطف) أعداد ديسمبر سنة ١٨٨١ ص ٤٠٤ ويناير سنة ١٨٨٢ ص ٤٩٤ ـ ٤٩٦ ، وفبراير سنة ١٨٨٢ ص ٥٥٦ ـ ٥٦٠ ، مارس سنة ١٨٨٢ ص ٦١٨ ـ ٦١٢ ، ابريل سنة ١٨٨٢ ص ٦٩٠ ـ ٦٩٦ ، فبراير سنة ١٩٠٢ ص ١٨٧ ـ ١٩١ ، وأعداد الهلال عدد مارس سنة ١٩٠٢ ص ٣٧٣ ، ويناير سنة ١٩٢٠ ص ٧٩٧ ، وفبراير =

الا فى حالة الاضطراب والفوضى الشعبية والسياسية والاجتماعية ، وحين تنتظم الأمور تجد هذه الدعـوات قد ماتت أو قل تقوقعت وتغلفت كالجرثومة بغلاف آخـر تترقب الفرصة التى تنقض فيها على فريستها فتحطمها ، وفى مختلف مراحل الهجوم نجد أن التخلص من الفصحى أمل كان يراود هؤلاء الكتاب سـواء كانوا من الغرب أم من الشرق • واتخذوا لذلك عدة وسائل : منها الدعـوة الصريحة الى العامية أو التوسط بين الفصحى والعامية ، أو ما تصوروه من أن رقى اللغـة وتقدمها يعطى الكاتب الحق فى تغييرها كيفما كان هـذا التغيير ، أو قل على ما يتفق مع مرضه وعجـزه وضعفه عن اجادة أساليب الكتابة العربية • وحين يشـتد عليهم حديث المدافعين عن الفصحى ، ولا يجدون أذنا مصغية عند الكتاب أو المتعلمين أو حتى عند جمهور الشعب ، ينادون بحذف أبواب معينة من النحـو ، أو تعديل بعض قواعـده • ولمـا لم يكن هذا ممكنا — مع دلالته على جهلهم وفسـاد رأيهم — اكتفوا بالدعوة الى دراسة اللهجات العامية وحصر مفرداتها وأساليبها ووضع القواعد والمعاجم لضبطها واحصائها • ولم يجدوا تعليلا لمثل هذا العمل الا أن علمـاء الغرب يقومون بذلك • ولو كان هذا صحيحا لكانت الدراسة الأجدر بالجهد والفكر والتأمل ، هى دراسة أصول اللغة والتعمق فى متانتها ، وقدرتها على استيعاب كل العلوم والمعارف ، كما حدث فعلا فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، فقد استطاعت العربية أن تستوعب كل علوم اليونان ، والرومان ، والفرس ، وأضافت اليها ما أبدع العرب فى هذه العلوم والمعارف ، فكانت نقطة التحول فى تاريخ البشرية • ولكن الحقيقة التى تفضـح كل مدع على اللغة

= سنة ١٩٢٠ ص ٣٩٨ — ٤٠٣ ، ومارس سنة ١٩٢٠ ص ٤٨٩ — ٤٩٧ ، أبريل سنة ١٩٢٠ ص ٥٨٥ وكانت هذه الأعداد التى ظهرت فى مطلع سنة ١٩٢٠ تحمل ردودا على ما سمى باستفتاء الهلال . ونوفمبر سنة ١٩٣٣ ص ١٠٨ ، ويناير سنة ١٩٣٤ ص ٣٧٣ ، وأغسطس سنة ١٩٣٨ ص ١١٠٨ ويراجع مقال لسلامة موسى فى عدد الهلال يوليو ١٩٢٦ س ٣٤ ص ١٠٧٣ — ١٠٧٧ ومقال لبشر فارس فى الهلال أيضا عن (التجديد فى اللغة العربية) عدد نوفمبر سنة ١٩٣٣ ص ١٠٨ — ١١٣ ؛ ورد طه حسين على استفتاء الهلال « هل اللغة العربية فى حاجة الى اصلاح ؟ » الهلال عـدد يناير ١٩٣٤ ص ٢٧٢ — ٢٧٨ •

الفصحى جمودا أو ضحالة ، هى أنه جاهل بها أو مسوق من أعدائها — الذين هم أعـداء دينها — لتدميرها وتدمير الأمة العربية والاسلامية •

وقد فطن الأزهـر لذلك فكان هو وتلاميذ الشيخ محمد عبده[1] والمجتهدون فى اللغة من أساتذة الجامعات المصرية العربية يحرصون كل الحرص على احياء الكتب العربية القديمة سواء كانت فى الأدب أو اللغة أو الفقه أو فروع الدين عامة •

ولا يمكن أن نقول ان هذا الحرص كان ردا على ما تفعله المدارس التبشيرية والارساليات الثقافية الغربية المسيحية التى انتشرت على شاطىء الشـام (لبنان) على أثر الحروب الصليبية ، وفى مصر بعـد حملة نابليون ، وازدادت كثافة وضراوة بعد احتلال الانجليز لمصر سنة ١٨٨٢[2] •

نعم •• لم يكن من أجل هذا فحسب ، وانما كان بالدرجة الأولى لأنهم وجدوا فى هذا التراث روحهم وأملهم ، ووجدوا فيه الغذاء الذى لم يجدوه فى شىء سواه من العلوم والمعارف التى تفـد اليهم من الغرب مشبوهة وحاقدة ، وكلما أوغلوا فى قراءة هذا التراث اكتشفوا من عظمته ما حاول الأعداء طمسه واغراقه فى زوايا النسيان •

ولقد كان حظ الشـعراء من ذلك أعظم وأوفى ، لأن الشـعر العربى فى أسلوبه وألفاظه وجرسه وايحائه كان ولا يزال مفخرة الفكر العربى والانسانى ، وتتبع خطاه ، والنسـج على منواله يقتضى من الشـعراء أن يتعمقوا وراء جذوره ، وأن ينهلوا من مورده ما يعطيهم عمق النفس ، والهام المعانى ، وتصور ضروب الخيال •

لذلك عكف الشعراء على كتب التراث بالدرس والبحث ، والتقصى حتى تمكنوا من نظم الشـعر على منواله ، وارتقى بعضهم به تبعـا لارتقاء العصر وتحول أطواره على أيدى أمثال شوقى وحافظ ومطران

---

(١) انظر الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ١٧٤ — ١٩٣ الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٠م دار الفكر بيروت ، والاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسـين ج ٢ من ص ٢٧٨ الى ص ٢٨٤ ، ٣٧٠ ، ٣٨٢ ، طبع دار الارشـاد — بيروت سنة ١٣٨٩هـ ، ١٩٧٠م الطبعة الثانية .

(٢) انظر المستشرقون لنجيب العقيقى ص ٧٦ ، ٩٩ — ١١٢ وما بعدها •

ومحرم والعقاد وشكرى والمـــازنى ومحمد عبد المطلب ونسيم وولى الدين يكن وغيرهم • من شعراء القرن العشرين الذين تربوا فى مطلعه على كتب التراث وتعمقوا أصولها وفصولها ، فكانت لهم موردا ، ولنا منهلا ومربعا •

وبما قدموه استطعنا أن نضع العربية فى موضعها الصحيح بين اللغات المتحضرة فى العالم ، وفرضنا فكرنا وثقافتنا من حيث أنهما فكر أصيل ، وثقافة مبدعة أعطت البشرية أكثر مما تأخذ منها الآن •

* * *

الفصل الرابع

العوامل المؤثرة في الأدب

ليس الأدب فى حياة الأمم من الفنون التى يمكن أن يمحوها الزمن ، أو يأتى ببديل عنها ، لأنه بحق صورة لحياة هذه الأمم وتعبير نفسى وروحى ومادى عن وجودها ، يصور فى أحاسيس أبنائها ومشاعرهم وأفكارهم وما وصلوا اليه من حكمة وخبرة ، وتفاعل مع البيئة التى يعيشون فيها وتتصل بهم ، كما يصور أحوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تصويرا لا تحده قيود الأرقام والأزمان والأشخاص والأبعاد الجغرافية والاقليمية .

ولهذا كان الأدب أدخل فى الحقيقة من التاريخ ، لأن التاريخ لا يعطى الحقيقة مباشرة الا نادرا اذ هو دائما موصول بالرواية ، والرواية معرضة للكذب والخطأ والتعصب والهوى ، وهى تعتمد على الذاكرة وما قد يعتورها من شوائب النسيان . ولذلك يحتاج التاريخ دائما الى ملكات خصبة تستطيع من خلال الدراسة الطويلة أن تتصور ماضى الأمم وحياتها وأفكارها ومشاكلها وقضاياها ، وأن تتخطى قيود الحكم والسياسة لتصل فى أحكامها الى نوع من الصواب والصدق وهو قصور لا يأخذ صفة الكمال .. مهما أمعن فيه الباحثون ورفعت عنه القيود . أما الأدب فانه — فى الغالب — نبض وجدانى يأتى من أعماق النفس ، ولا تستطيع القيود حبسه ولا تحويله الى غير اتجاهه ومراده ولذلك يعرض علينا الحياة بكل جوانبها ، ويرسم للأجيال المقبلة صورة الماضى بأدق قدر من الصدق ، وكأنه جماعات من شهود شاهدوه بأبصارهم .

وفرق كبير بين أن تطالع الأجيال رحلة أسلافها فى صورتها الحقيقية ، وأن تطالعها فى روايات دخلت عليها عوامل السياسة والصنعة ،

والتفت حول مسالكها دواعى الهوى ، ونوازع الحكام ، ولوازم العيش ، ومذاهب الكتاب واتجاهاتهم .

لهذا كان تراثنا الأدبى من أهم عناصر التراث نبضا وحيوية ، وكلما عدنا اليه وتعمقنا فى البحث وراءه وجدنا فيه لذة ومتعة ، وأخذنا منه عظة وحكمة . والأدب بطبيعته لا يموت ولا يهرم ، بل تظل فيه نضرة الحياة والشباب مهما أوغل فى القدم ، فشعر النابغة الجاهلى ، وحسان بن ثابت الاسلامى ، وجرير الأموى ، والمتنبى العباسى نقرؤه فيمتعنا ، ويعطينا هديا وحكمة لحياتنا ، لأنه يقوم على أسس عاطفية مستقرة فى طبيعتنا الانسانية التى لم تتغير منذ الأزل ، ولن تتغير فى المستقبل القريب ولا فى المستقبل البعيد ، لأنها ليست صنعة فى الانسان يمكن أن يمحوها أو يبدلها ، ولكنها من عناصر الفطرة التى يختلف فيها الناس ولا يستطيعون الخروج منها .

وأمة العرب أكثر الأمم نتاجا للشعر ، وشعرها أصدق تصويرا لحياتها ، ولا يمكن لحاضرها أن يكون مستقيما الا اذا ارتبط بماضيها ، وماضيها كله مرتسم فى شعر شعرائها .

« وقد يقال : ما لنا وللماضى ؟ وما الفائدة التى نجنيها من العناية به ؟ .. ان حياتنا أصبحت تخالف كل المخالفة حياة أجدادنا ، تخالفها فى الحضارة ، وفى السياسة وفى الاقتصاد ، وفى استغلال الطبيعة ، وماذا يفيد عصرنا ، عصر الذرة ، وما يتراقص فيها من « الكترونات » ،.. عصر اختراق الفضاء وما يسير فيه من أقمار صناعية .. من التعرف على حياة الأسلاف وكل ما ارتبط بها من شعر وغير شعر ؟ ..

ان الحياة تحولت تحولا خطيرا بحيث أصبح استمساكنا بالماضى ضربا من ضروب التعويق لنهضتنا فى الحاضر ، وماذا يحمل لنا الماضى ، ان كل ما يحمل من علم وفكر انهارت قواعده انهيارا تاما ، ولم نعد فى حاجة الى شىء من فكر الأسلاف وعلمهم ازاء ما نعيش فيه من المخترعات التى لا يدركها الحصر . وما الماضى ؟ ومادته الميتة ؟ وما الفائدة من بعثها ؟ .

ان كل ذلك فراغ لا نكسب منه شيئا فى حياتنا ومعيشتنا ، وأولى بنا أن تظل الأستار والحجب الضعيفة قائمة بيننا وبينه حتى لا يشغلنا عن حاضرنا .. بل لنلق به وراءنا ، ولندعه كما هو فى ظلماته التى يتراكم بعضها فوق بعض .

ولكن هل صحيح أننا نستطيع أن نفصم علاقاتنا بالماضى ؟ وأن نعيش معيشة منقطعة عنه ؟ اننا — أردنا أم لم نرد — مرتبطون به ارتباطا وثيقا ، وهل نحن الا ثمرة الأسلاف ؟ ، وهل حياتنا الا امتدادا لحياتهم ؟ واذا كنا فى حياتنا الزراعية نحتاج حاجة قصوى الى معرفة منابع النيل البعيدة عن ديارنا ، فاننا نحتاج حاجة أشد الى معرفة منابع حياتنا الانسانية ، ومعرفة من عاشوا على سطح أرضنا ودرجوا على مراقى الزمن جيلا بعد جيل ، ولنقف عند علم أسلافنا القديم الذى أتى عليه علمنا الحديث من قواعده على الرغم من بلى قوانينه وما به من تصورات خاطئة — ينبغى أن ننظر فيه لنرى مقدار الصواب عند أجدادنا ، ومقدار ما أدوا للانسانية من خدمات علمية ، وبذلك نعرف دورنا فى تاريخ العلم ، وتمتلىء نفوسنا حماسة لنؤدى هذا الدور من جديد أداء باهرا »(١) •

وأنا مع هذا الرأى المصيب لأستاذنا الكبير الدكتور شوقى ضيف ، ولا يستطيع أحد أن ينكر دور الشعر فى حياة الأمم العصرية ، لأن الشعر فى مضمونه الأصيل هو المعبر عن العواطف والأحاسيس ، ولم ولن يأتى يوم تختفى فيه تلك العواطف أو تموت هذه الأحاسيس مهما تقدمت الآلة ودارت رحاها على رؤوس الناس فى المصانع والشوارع والبيوت لأن السلطان الذى يتحكم فيها ويضبط حركتها ويوازن بين دوراتها هو الانسان ذو العواطف والمشاعر والأحاسيس وليس غريبا أن يكون الشعر أقدم فن ارتبطت نشأته بنشأة الجماعات الانسانية ، وأن يمتزج بالسحر والكهانة عند الانسان الأول ، ويتعلق به الفلاسفة والمصلحون فى العصور المتعاقبة ، وتتمسك به الجماهير ويلتفون حول شعرائهم فى عصور المنافسة والمنابزة ، ويظل سحره مسيطرا على وجدان الناس عبر مئات وآلاف السنين مع تغير البيئات والأجيال ، والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ويدخل فى ألوان متعددة من العلوم والمعارف على العكس من الفنون الأخرى التى وقفت عند عصر معين ، فلم تنتقل منه الا وهو تاريخ يروى •

وكتاب « فن الشعر » لأرسطو خير دليل على ذلك ، لأن مؤلفه — وان كان عنى به الشعر المسرحى والملحمى من حيث أنهما يعبران

---

(١) انظر فصول فى الشعر ونقده للدكتور شوقى ضيف ص ١٠

عن الجماعة ، ويصـــوران أحداثا انسانية تصويرا موضوعيا يعرض القضية الواحدة من زوايا كثيرة ووجهات نظـــر متعددة ، الا أنه يمثل خلود الشعر وصموده أمام عوامل الزمن وأطواره ، فليس هناك جامعة فى العالم تعنى بالآداب لم تتطرق الى هذا الكتاب بالدراسة والتحليل على الرغم من مضى أكثر من ألفى سنة على تأليفه ، ونحن نحس فى بيئتنا العربية أنه ما زال لشـــعر امرىء القيس وعنترة والشـــنفرى وغيرهم من شعراء الجاهلية سحره على النفوس والقلوب ، حيث ترهف له الأسماع ، وتؤخـــذ به العقول عند المتخصصين والعامة ، وما ذلك الا لأنه يصادف جانبا من عواطفهم وأحاسيسهم •

وليس فى وســـع انسان العصر الحديث أن ينسلخ من ماضيه ، لأنه وليد هذا المـــاضى ، وثمرة شجرته التى سمقت وترعرعت عبر آلاف السنين ، سواء نشأت ونمت فى مهد خصب ، بعيـــدا عن العواطف والأنواء ، أم اعتراها الضمور والخمول نتيجة للزوابع والأعاصير •

فهو فى كلتا الحالتين موجود ، ووجوده امتـــداد لهـــذا المـــاضى ، ودراسة الرجل العصرى لهذا المـــاضى لا تعطيه معرفة وجيزة فحسب ، بل تبصره ـــ كذلك ـــ بنفســـه وبما وصل اليه من تقدم فى حياته لأنها سوف تجعله يربط بين حياته وحياة أسلافه ، ويعرف ما بينهما من تشابه ، وتخالف فى طرائق النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصـــادية ، وما كانوا عليه من نهوض أو خمود ، •• كما يعرف مثلهم العليا وأساليبهم المثلى فى التربية وأحوالهم المـــادية والعقلية ، ومقدار تقدمه فى هـــذه النواحى ونهوضه بها أو تأخره وتخلفه عنها •

وليس عند العرب كالشعر تراث يصور هذه الجوانب كلها تصويرا يلم بدقائقها ، ويعطى تفصيلا لأبعادها ، ولهذا كان تراثهم الشـــعرى أهم أنواع التراث وأصدقهـــا ، وكانت العناية به غير مرتبطة بزمن ولا حدود ، وكلما أمعنوا فى الحضـــارة الحديثة والتقدم الآلى وجدوا أنفسهم فى حاجة أكثر الى العناية بهذا التراث •

يقول الدكتور شوقى ضيف : « ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان التراث الشعرى لأى أمة من الأمم هو أهم جوانب تراثها تعبيرا عن جوهـــر نفوسها ، وتصويرا لحقائق حياتها المـــاضية ، وهما تصوير وتعبير يخفقان بالحياة ، ويمتلئان بالحرارة ، بحيث يتجســـد لنا المـــاضى

باحساسات أهله ، ومشاعر أجياله على لسانهم ونبض كلامهم وأنغامهم ، وكأننا نعيش معهم ونشاهد كل ما مر بهم من أحداث وأحـوال ، نشاهد الواقع الملموس بكل علاقاته وكل ظروفه وكل مظاهره ، وكل صـوره المتحركة ، وهى مشاهدة تصحبها متعة واسعة لا بما نراه من العناصر الحية القائمة فى المجتمعات المـاضية فحسب بل بما تمثل لنا أيضـا من النزعات والبواعث والعواطف النفسية الخالدة فينا ، والتى تقدم للناس فى كل زمان ومكان رحيقا وجدانيا صافيا يلذهم على اختـلاف درجاتهم ومراثيهم من المدارك والمعارف ويجدون فيه بلاغا لا يدانيه بلاغ »(١) .

ولكى يبقى هذا التراث حيا يؤدى دوره مع الأجيـال لابد من أن نعنى به دراسة وتحليلا وتحقيقا ، وأن نبرز جوانبه المضيئة. ليتعلق به الناشئة ، ويسيروا على هديه ، حتى لا نجد أنفسنا يوما ، وقـد انفلت منا ماضينا فأصبحنا كشـجرة انبتر جذعها فغاض منها ماء الحياة .

ولأن الشعر تعبير عن النفس المتأثرة بما يحيط بها من مظاهر البيئة ، وألوان الحيـاة ، والمتفاعلة مع الأفكار ، والأحداث ، والعلاقات الاجتماعية ، نرى شعرنا فى عصره الحديث ، وفى الحقبة التى نتناولها بالدراسة قد أصابه بعض التجديد ، تبعا لتجدد نفسية الشـاعر ، وتبدل نظرته الى الأمور ، وعمق أطوار استجابته لأحداث الحيـاة وتفاعله معها ، وتغيير البيئات المحيطة به ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وحضاريا وثقافيا ووطنيا .

ولقد استمد شعرنا الحديث ، بنـاءه ومكوناته وموازينه وضروبه وموسيقاه وأخيلته ومعانيه من تراثنا وما حفل به من صور ومعان وأخيلة لا تنضب مهما طال عليها الزمن وكثر المغترفون منها .

ولهذا كان لابد أن نلقى نظرة على الاتجاهات الفنية لشعراء هذه المدة ، وأن نتعرف على المجددين منهم وعلى المحافظين وأساليب كل فى بناء قصيدته ، وغرس معانيها ، والوصـل بين موسيقاها الداخلية وموسيقاها الخارجية ، واستعمال الشـاعر للألفاظ والتراكيب واستفادته من عذوبة الكلمـات أو جفوتها ، وقدرته على تصـوير الموقف وتجسيده أمام القارىء والسـامع بحيث يأخذ عليه جوانب نفسـه كما كان

---

(١) انظر فصول فى الشعر ونقده للدكتور شوقى ضيف ص ١٢ .

يفعـل أسلافه من الشـعراء ، وهذا يقتضى منا أولا دراسة العوامل الباعثة على التجـديد سياسية كانت أو اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية .

* * *

١ ــ عوامل سياسية وطنية وقوميـة :

لا يستطيع انسان يعيش على هذه الأرض ، ويتصـل بثقافاتها المختلفة عبر العصور قديمها وحديثها ، أن ينكر دور مصر الخلاق فى تنشئة الانسان وتهذيبه وترقيته والانتقال به من دور الهمجية والانسياب بين كهوف الدنيا وغاباتهـا وأحراشها ، الى معرفة الاسـتقرار وبناء المدن ، وانشـاء الحضارات والمعارف ، ووضع القوانين والمفاهيم التى تحكم العلاقات بين الناس ثم الدول والأمم ، وأن يسـلم بأن علوم مصر القديمة وآدابها وفنونها وفلسفاتها هى التى ساعدت على ظهور مثيل لها فى بلاد الاغريق والصين والهند ، وأن الحضـارات التى ترعرعت وتمت بعـد ذلك عند الرومان والفرس كانت احدى ثمار حضارة مصر الفرعونية الرائدة ، وأن العـرب كغيرهم من الأمم الأخـرى أخذوا منها وحاولوا على الرغم من بداوتهم أن يسيروا فى ركابها ، وأن يتعلموا من فكرها وفلسفتها ، وجاء عصر من العصور نهاية الأسرة الثانية عشرة الفرعونية ــ أيام الهكسوس أو العرب العمالقة ــ لتمتـد القنوات بين العرب والمصريين أكثر من غيرهم من الأمم الأخـرى ، وقد توج هذا اللقـاء القديم بدخول نور الاسلام ــ فيما بعد ــ الى مصر ، واعتناق أهلها لهذا الدين المشرق الوضىء ، ولا عجب فى ذلك فهم أقدم الناس الذين نادوا بالتوحيد واتجهوا الى الاله الواحد فى عهد مليكهم العظيم آمون ، ولذلك كانوا أسرع الناس الى الدخول فى الاسلام والانصهار فى بوتقته والمجاهدة فى سبيل رفعته وانتشـاره فى كل ربوع الدنيا ، وسهل هذا للقبائل العربية من كل أنحـاء الجزيرة أن تفـد الى مصر وأن تجعلها موطنها الأول الذى تدين له بالولاء والمحبة ، وأن يتحـول المصريون جميعا الى الانصهار معهم ، وتعلم لغتهم والتعلق بها لأنها لغة القرآن كتاب الله الذى أنار لهم طريق الحق وأراهم أكرم المثـل وأنبل الفضائل .

ولا يتنافى هذا مع أن لكل أمة شخصيتها وكيانها المميز ، مهمـا

قام التاريخ ومتاهاته وأحداثه بأدوار كبرى فى محو هذه الشخصية أو ضعفها حتى تنماع فى شخصية أخرى ، ولقد تحددت الشخصية المصرية أيام الفراعنة ، ثم مع تقدم الزمن ، وانحسار الامبراطورية وانطوائها ضعفت هذه الشخصية وذاب كثير من معالمها نتيجة لألوان الاستعمار المتلاحقة ، وأنواع الظلم المجحف وتسلط الرومان واستبدادهم بعد فتح الاسكندر لها ، فلما جاء الاسلام كان فيه الأمل الذى تطلعوا اليه ثم تمسكوا به .. لأنه مع احترامه لرابطة الجنس والمكان ، يجمع بين أفراده برابطة العقيدة التى لا تنفصم عراها ، ويوحد الشعور والأهداف والآمال ، فانتقلوا اليه بوجدانهم وحواسهم حتى أنساهم كيانهم المستقل القديم ، ولكن ليس على أساس من الازدراء والمهانة ، وانما على أساس من التفانى فى العقيدة والايمان ، وظلت مصر ولاية اسلامية تعيش تحت كنف غيرها حينا ، وحينا آخر يعيش غيرها تحت كنفها ، وفى كلتا الحالتين ، كان الولاء للاسلام وللعقيدة هو الحد الفاصل بين الماضى والحاضر(١) .

ثم بدأت الخلافة الاسلامية فى الضعف والتمزق ، وظهرت الدويلات ، وجاء المماليك وسيطروا على كثير من أجزائها وكونوا لهم دولا قائمة بذاتها ، وان كان الدين هو جوهرها وعمادها غير أنها كانت مغايرة فى التكوين والتفكير والنظام عن الدولة الاسلامية الواحدة فى العصور السالفة ، وتبعهم العثمانيون ، الذين أقاموا ملكهم على صرح الخلود الدائم فى نفوس المسلمين — الدين والخلافة — الا أن بعض حكامهم ارتكبوا كثيرا من الحماقات فاستبدوا وظلموا وتسلطوا وجعلوا من الجنس والعرق غاية للسلطان والسيطرة ، وانحرفوا عن العدالة والشورى مبدئى الاسلام الخالدين . وعلى الرغم من ذلك ظل الشعب المصرى يحترم رباط العقيدة ، ويعتصم بالخلافة ، ويبذل دمه فى سبيل الحفاظ عليها ، غير أن الظلم الجائر والمتوالى من الأتراك : مماليك وعثمانيين وتعاليهم على الشعب ، وجثومهم فوق أنفاسه يمتصون

---

(١) انظر : الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى الى آخر الدولة الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٩ — ٣٥ ، ٤٧ — ١٠٦ ، ١١٨ ، ٢١١ ، ٣٠٥ ، ٤٢٠ وما بعدها (سلسلة الألف كتاب رقم ٢٤٤) النهضة المصرية ١٩٥٩م .

دمه ويرهقونه بالضرائب ، وألوان النهب والسلب ، جعله يتململ ، وترتجف أطرافه ، ويحس احساسا خفيا أن لا رابطة بينه وبين أولئك الظالمين المتعالين ، فأعلن الاحتجاج والغضب ، وقامت ثورات متوالية فى القاهرة والاسكندرية ، والقليوبية ، والشرقية والصعيد ، وكان قادة الشعب من المشـايخ وعلماء الأزهـر ، قادوه فى ثوراته ضد ظلم المماليك ، وأرغموهم فى حالات كثيرة على الرضوخ لمطالبهم ، واستطاع المشايخ أن يجبروا ابراهيم بك ومراد بك على كتابة وثيقة ، يتعهدون فيها بعدم اتبـاع سياسة تعسفية مع الجماهر فى جمع الضرائب(١) ، وظلت الأوضاع فى مصر تسير من سيء الى أسوأ حتى جاءت الحملة الفرنسية ، تحمل مع وقع مدافعها وأرتال جنودها ألوانا جديدة من الثقافة والمعرفة ووسائل الحكم وأساليبه وكان الشعب المصرى الذى ضاق ذرعا بالمماليك والعثمانيين مهيأ للنظر فيما جاء به هذا الوافد الجديد ، وأخذ أول الأمر يقاتل بسـلاحه البدائى دفاعا عن وطنه ، وعينه على هذا الفكر الجديد الذى أسرع نابليون بغرسـه مع أول خطوة خطاها على أرض مصر ، ثم ما لبث أن تحـول الشعب عن المماليك ، وبدأ يبحث عن شخصيته بين هذا وذاك ، وكانت فرصـة للحملة فعملت على اظهار هذه الشـخصية ، ونموها وساعدت على الشـعور بالقوة ، والاحساس بالذات ، والثقة بالنفس عند المصريين ، كما أن تفاعل الأحداث واتجاهاتها ساعد على ذلك أيضـا سواء قصده الفرنسيون أم لم يقصـدوه ، ومن المعروف أن الحملة الفرنسية كان يهمهما ذلك بل وكانت تحرص عليه لأنها تنشد من احتلال مصر ، بناء أمبراطورية فرنسية فى الشرق تزاحم بها انجلترة ، وتسـد عليها الطريق الى الهند ، ولا يمكنها ذلك الا اذا تحقق لها أساس متين من عواطف أبنـاء هذه المنطقة نفسـها ليدعمها ويحمى ظهرها ، ويكون سـندا نها فى العمل والتقدم • وكان الفرنسيون يعلمون أن الامبراطورية العثمانية فى طريقها الى التحلل والضياع ، وأن الشـعب المصرى ضاق بالمماليك والعثمانيين ويتمنى الخلاص منهم • ولهـذا جاء نابليون مع حملته بالعلماء والمفكرين وحمل معه آلات الطباعة والنشر ، وأخذ

---

(١) انظر تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٨٤ ـ ٨٦ ، والمختار من تاريخ الجبرتى جـ ٢ ص ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

يتقرب من الشعب ويمدحه ، ويمجد دين الاسلام ومبادئه وأحكامه ، ليصل الى قلوب الناس وليجدوا فيه سماحة وعدلا أفضل مما وجدوا عند المماليك والعثمانيين ، .. كذلك أسرع فى اشراك كبار المصريين فى ادارة الدولة وشكل ما يسمى بالديوان العام ، وحين افتتاحه قال : « ان قطر مصر هو المركز الوحيد ، وانه أخصب البلاد ، وكان يجلب اليه المتاجر من البلاد البعيدة ، وان العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول »(١) . وفى موقف آخر تراه يمنى أفراد الشعب خاصة العلماء والأعيان بتولى الحكم وادارة أمور الدولة فيقول : « ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا ، لا ييأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ، ومن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء سيديرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الأمة كلها »(٢) .

وقد حرص على تنفيذ هذه الوعود فكون مجلسا خصوصيا من العلماء كان بمثابة مجلس للوزراء على مستوى مصغر ، وأنشأ الديوان العام الذى كان بمثابة مجلس للنواب ، وكان يأخذ آراء الأعضاء فى بعض القضايا والمشكلات ويعمل برأيهم فى مواقف كثيرة ، نذكر منها نظام المواريث(٣) ، وتعيين الموظفين وبعض الأمور الخاصة بالضرائب والمرافق(٤) ، وكانت هذه فرصة للمصريين ساعدتهم على الاحتكاك بأفكار الفرنسيين ، وتعرفهم على مناهج الحكم التى كان المماليك والعثمانيون يحاولون حجبهم عنها ، وجعلهم مجرد رعايا من الدرجة الثانية ، كما أنها أبرزت منهم بعض الزعامات التى ظلت تقوم بدورها الخلاق فى توعية الشعب والأخذ بيده بعد هزيمة الحملة الفرنسية ومغادرتها مصر .

ومن أبرز هؤلاء الزعماء الشيوخ الأجلاء : الشرقاوى ، والسادات والمهدى ، وعمر مكرم ، وقد عرف عنهم الولاء للوطن والتفانى فى خدمته وحمايته من عناصر الشر التى كانت تحيط به من المماليك

---

(١) تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ١٠٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٧ .
(٣) تاريخ الحركة القومية ص ١١١ ، ١١٢ .
(٤) المرجع السابق ص ١٠٠ .

والعثمانيين والفرنسيين وعلى الرغم من أن رجال الحملة الفرنسية كرموهم وانحنوا خضوعا لآرائهم واتجاهاتهم فانهم وقفوا بكل قوة أمام الحملة الفرنسية حتى لا تجعل من مصر موطنا دائما لها ، وعارضوا بشدة أساليب الاستهتار والخروج على مبادىء الدين من بعض رجال الحملة ، وقادوا الثورات المتوالية فى القاهرة والاسكندرية ضدها • وكان المماليك قد فروا وتركوا الشعب وحده يواجه مصيره أمام الفكر والسلاح المتقدم عند الفرنسيين ، وكانت هذه فرصة ليعرف الشعب قدراته ومواهبه وكيفية منازلة الأعداء ، فلما تم له النصر ، وخرجت الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١م وثق الشعب بنفسه وشعر بقوته وعرف أنه ليس ضعيفا كما كان يظن ، أو كما حاول المماليك والأتراك ايهامه • وعلم أنه من الممكن أن يجابه القوة وأن ينتصر عليها ، لأنه حقق بالفعل انتصارا عظيما على قوة الفرنسيين الرهيبة بينما هرب المتجبرون ودعاة السلطان والرياسة ، وفتح له ذلك الباب ليقاوم الولاة الأتراك الذين فرضوا عليه بعد الحملة ، وأخذ يقصيهم الواحد بعد الآخر حتى كانت ولاية « أحمد خورشيد » فوقف الزعماء والشعب ضده ، وجاءوا « بمحمد على » ونصبوه واليا على أسس ارتضوها هم واشترطوا عزله ان خالف هذه الشروط(١) وفرضوا رأيهم على الباب العالى فى تركية بقبول هذه الولاية ، وأفتى العلماء بأن ذلك متفق ومبادىء الشرع الحنيف ، وأخذوا لأنفسهم حق تولية الولاة وعزلهم كما جاء على لسان الشيخ محمد المهدى الذى يقول(٢) : « ان للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ، ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية ، الحق فى أن يقيموا الولاة ، ولهم أن يعزلوهم اذا انحرفوا عن سنن العدل ، وساروا بالظلم ، لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة »(٣) ، ولم يكد محمد على يتولى الحكم حتى ووجه الشعب بغزوة ظالمة متجبرة من الانجليز سنة ١٨٠٧م ، وكانت فرصة أخرى ليظهر فيها هذا الشعب الأصيل معدنه وصلابته فووجهت الحملة بما لم تكن تتوقعه وهزمت شر هزيمة عند رشيد بأيدى

---

(١) تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ٣٧١ ٠
(٢) تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ٣٧٢ ٠
(٣) المرجع السابق جـ ٣ ص ٤٩ ٠

المواطنين المصريين وكان لأهالى رشيد « النصيب الأوفر فى هزيمة الجيش الانجليزى لأن حاميتها كانت من القلة بحيث لا تستطيع أن تصد الجيش الزاحف »(١) وكان زعماء الشعب بقيادة عمر مكرم يرسلون تعاليمهم الى رشيد ، ويستعدون فى القاهرة لملاقاة الانجليز بحفر الخنادق حول المدينة ، وبناء الاستحكامات والاستعداد للقتال(٢) .

وكان موقف أبناء الشعب يدل على احساسهم بوطنهم ، وبروز معانى الوطنية فيهم ، فكانوا يتسابقون للدفاع عنه والتضحية بالروح فى سبيله ، وعلى الرغم من أن محمدا عليا قد حول ولايته الى ملك يتوارثه الأبناء عن الآباء ظل الشعب المصرى فى طريقه يتابع مسيرته للوصول الى حضارة العصر ، وتربية الأجيال ، وارشادها الى مسالك الحكم والنظم الدولية التى سبقتنا بها الأمم ابان عصور القهر والانحطاط ، واستطاع رفاعة رافع الطهطاوى أن ينقل الى المصريين صورة حية عن نظام الحكم فى فرنسة فى كتابيه « تخليص الابريز » و « مناهج الألباب » وأن يجمع حوله مجموعة من المثقفين الذين تعلموا فى فرنسة ليضعوا أسسا راسخة لتعليم الشعب وتثقيفه والأخذ بيده للوصول الى معارف العصر وعلومه ، وكان « محمد على » يرغب فى اقامة دولة قوية تمتد جذورها فى ربوع الأوطان العربية التى كانت خاضعة للدولة التركية التى أخذ السوس ينخر فى عظامها وساعد ذلك على ظهور قيادات مصرية من المثقفين والعسكريين ورجال المال والأعمال ، وظهرت « جمعية مصر الفتاة » والوطنيون الذين أخذوا يطالبون بأن يأخذ المصريون وضعهم وحقوقهم فى الجيش ووظائف الحكم ، وظهرت الصحف والمجلات ، ونشطت حركة التأليف والترجمة والتفت الناس الى القراءة والمعرفة والاطلاع ، وأصبحت هناك قيادات مؤثرة فى الجماهير ، مما دفع الى قيام « الثورة العرابية » وظهور شعار « مصر للمصريين » بل كان من المعروف أن عرابيا فكر فى خلع الخديوى اسماعيل واعلان الجمهورية(٣) ، ولكنه حين عرض وجهة نظره على أعضاء الحزب الوطنى بعد أن التحم مع جمعية مصر الفتاة عارضوا

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ٤٩ .
(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ٥٢ ـ ٥٨ وما بعدها .
(٣) انظر مذكرات عرابى جـ ١ ص ٧٨ ـ ٨١ وما بعدها .

ذلك الرأى(١) وفكر العسكريون مرة أخـرى ـ حين ووجهوا بغـدر توفيق ـ فى خلعه والتخلص من أسرة محمد على(٢) ولكن القوى الكبرى وعلى رأسها انجلترة لم تسمح لهذه الثورة بالنجاح والظفر ، لأنها كانت تخشى من هذه القوة الشـابة الجديدة ، وبروزها فى هذه المنطقـة التى تتحكم فى مواصلاتها الى الهند وغيرها من مستعمراتها فى الشرق ، فانتكست الثورة وشرد الأحـرار ، وضيق الخناق على الشعب ، ولكن ذلك ألهب الشـعور القومى ، وزاد من الحماسة الوطنية ، وفجـر ينابيع جديدة من حب الوطن والولاء له ، فظهرت واضـحة فى الخطب والأغانى والأناشيد والمقالات والصحف(٣) ، وكان لابد من ظهـور قيادات جديدة تحمل مشـعل النور وتضىء الطريق أمام المكافحين ، فظهر مصطفى كامل ، وكون الحزب الوطنى ، وملأ الدنيا باسـم مصر وعشقها والهيام فيها ، ثم ظهر حزب الأمة من الأعيان ، وكبار الملاك ، وتلاه حزب الأحرار ، حتى كانت ثورة ١٩١٩ فبرز حزب الوفـد ، وهكذا أخذت دائرة الفكر تشمل معظم المصريين ، وأخذ الاتجـاه الى المشـاركة فى الحكم ، وتولى أمور الدولة يملأ نفوس مجموعات هائلة من الشعب ووجدت عدة اتجاهـات ، ولكنها فى مجملها كانت تغـذى الروح المصرية وتعمل على الخلاص واعادة الوطن الى أهله والتحكم فى مصيره ، واذا كانت المسيرة قد ووجهت بكثير من الصعوبات ، وانحرفت ذات اليمين وذات الشـمال فانها استطاعت أن تعيـد لمصر كيانها وأن ترسـل قبسا من نورها الى معظم أوطان الأمة العربيـة التى كانت وما زالت ترى فى مصر الأم والرأس الذى اذا أصيب بالصداع سرى مرضه وألمه الى كل ربوع العـالم العربى ، وبدأت روح القومية العربية تسرى فى وجـدان كل أبنـاء العروبة ، وفتحت مصر أبوابها تتلقف كل صاحب قلم وفكر وجهـاد ، وأخذت دماء الحيـاة تجرى فى شرايين

---

(١) انظر « النظرية العامة للقومية العربية » ص ٢١٠ وما بعدها ومعلوم أن نشأة القوميات فى اوربة ظهرت فى اواخـر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

(٢) انظر مجلة (الكاتب العدد ٦٠) تحت عنوان الحركة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الأوربى ص ١٩ ـ ٢٤ .

(٣) انظر « مصر للمصريين » لسـليم خليل نقاش (٥ أجـزاء) جـ ٥ ص ١٢١ وما بعـدها مطبعة المحروسة بالاسكندرية ١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٢م .

الأمة العظيمة ، ولكنها كانت محكومة بضابط تعشقه وتحبه وتدين له وهو : « الخلافة » تلك القيـادة التى كانت يوما ما صاحبته والتى به نشرت النور والحضـارة والايمان والعدل والشـورى والمحبة فى كل ربـوع الدنيـا ، لذلك لم تكن مصر تريد للخلافة أن تهدم صرحها أو يتزلزل عرشـها ، ولكنها كانت تبغى لها السلامة وأن تصبح خلافة اسلامية حقة تقـوم على مبادىء الدين والمسـاواة والعدل والتقـدم ولهذا كانت اليقظة القومية على الرغم من قوتها وشـدة بأسها ، لا تحلم بأكثر من كيان متميز فى اطار دولة الخلافة ونادى الرائدان « جمال الدين الأفغانى » و « محمد عبده » • بالاصلاح وايجـاد حياة دستورية قائمة على الشـورى والعدل وتوسيع مجالات العلم والثقافة ، والأخذ بوسائل التقدم والقوة ، حتى يستطيع المسلمون الوقوف ضد المستعمرين الراغبين فى تدميرهم والقضـاء على دينهم وثقافتهم • كمـا طالب بالسير فى طريق الحضـارة مع الحفاظ على رابطة العقيدة والتوازن بين عوامل التقدم وبقاء الشخصية الاسلامية(١) ، والتف حولهما جمع كبير من المسلمين فى جميع أنحـاء العالم الاسلامى ، وظهرت رغبة ملحة فى تجديد شباب الخلافة حتى عند الأتراك أنفسـهم ، ولكن العالم كان يتسابق للقضـاء على البقية الباقية من الامبراطورية العثمـانية المنهارة ، والدول الكبرى تعـد نفسها ليأخذ كل منها نصـيبه المقسوم من أطرافها(٢) ، وأبرمت فرنسة وبريطانية وروسية اتفاقات سرية أوضحت فيها غاياتها من الحرب العالمية الأولى ، واتفقت فيما بينها فى ٥ من مارس سنة ١٩١٥ م أن تأخذ روسية بعد الظفر « القسطنطينية » والمضايق : البسفور والدردنيل وفى مارس سنة ١٩١٦م وضعت فرنسة وبريطانية العظمى وروسية مخططا لتقسيم تركية الآسيوية(٣) ، وقبل ذلك كانت فرنسة قد استولت على معظم المغرب العربى تقريبا ، وايطالية على

---

(١) انظر ترجمة حياة الأفغانى لعبد الرحمن الرافعى ، وترجمة حياته أيضا لقدرى حافظ طوقان ، وترجمة حياة محمد عبده « لمحمـد صبيح » وغيرهم •

(٢) انظر تاريخ القرن العشرين لبيبر رونفون تعريب الدكتور نور الدين حاطوم ص ٣١ ـ ٣٦ ، ٤٧ •

(٣) انظر تاريخ القرن العشرين لبيبر رونوفن تعريب الدكتور نور الدين حاطوم ص ٣٤ ـ ٣٦ ، ٤٧ .

ليبيا والانجليز على مصر والسودان وفلسطين ، وهكذا تمزقت دولة الخلافة ، وانهارت الامبراطورية العظيمة ، وظهرت فى تركية العنصرية الطورانية ، وألغيت الخلافة رسميا سنة ١٩٢٤م وافتتن المثقفون فى تركية ومصر وغيرهما من البلاد العربية والاسلامية بالثقافة الغربيـــة ، وبكل ما يجرى فى أوربة •

وكما ظهرت فى تركية الدعوة الطورانية ، ظهرت فى مصر تيارات مصرية فرعونية ، وكانت هذه وتلك ملجأ لجمع أبنـــاء الوطن حول الزعامات لمقاومة المحتلين والطامعين ، ولكن هذا كله بما فيه من حسن وسوء كان عاملا من عوامل التحـــول والتجديد فى كل مجالات الحياة ، ومن بينها الشعر الذى هو بطبيعته أسرع الأشياء الى التبديل والتجديد ، لأنه انفعالات نفسية ووجـــدانية وهى دائما تسبق المـــادة والحركة والحس •

وكان التجديد فى جملته ليس مرتبطا بالتحول الى المصرية ، أو القومية العربية ، وانما كان مرتبطا بالمحافظة على الذات ، والشعور بالانتمـــاء ، والرغبة فى تنمية مشاعر الوطنية ، والارتقـــاء بها الى مستوى التضحية والفداء ، وقد أدى هـــذا الى ظهور موضـــوعات واحساسات وأفكار لم تكن موجودة قبل ذلك ، لأن القومية والوطنية كما يقول العقاد : « انما هى للأمم بمثابة الشخصية للأفـــراد •• بها يناط الواجب فى الحيـــاة ، وعليها تفرض الحقوق ، فمن كان يبتغى عند أمة من الأمم خيرا تؤديه فى هذه الدنيـــا أو حصة تساهم بها فى ثقافتها وعمارتها ، فلن يكون ذلك الا بشخصية قومية تفرض عليهـــا الأعباء ، وتطلب منها الحقوق » •

ولقد كانت محاولات المؤمنين بالقومية العربية لا تهدأ ولا تفتر عن الدعـــوة لها والعمل على بروزها على الدعوات الوطنية فى كل اقليم من أقاليم الأمة العربية المترامية الأطراف ، وعقدت عدة مؤتمـــرات واجتماعات لذلك فى باريس وغيرها من البلاد التى كان العرب يجـــدون فيها متنفســـا لهم بعيدا عن قهر المستعمرين ، وضغط الحكام وعيـــون المتسلطين الذين لا يريدون لهذه الأمة أن تتوحد ، وأن تعـــود الى سالف مجدها وحضارتها • وكان للشـــعر صوت ظاهر فى كل هـــذه المجالات وبين كل المؤتمرات ، وعلى رأس كل اجتماع ، وكان الشعراء أكثر تأثيرا فى الناس من غيرهم فى كل الميادين ، حتى انهم كانوا محط

أنظار المستعمرين والحكام ، وكانوا غرضا من أغراضهم يحاولون احتواءهم تارة ، وقهرهم وحبس أنفاسهم أخرى •

* * *

٢ ــ عوامل اقتصــــادية :

لا شك أن التحـــول الاقتصادى الاجتماعى له تأثير فى حياة الأمم لا يقل عن تأثير التحول السياسى ان لم يسبقه ويزداد أهمية عليه ، لذلك كان القاء نظـرة على تموجات هذا الطور فى مصر مما يســاعدنا على تكوين صورة أفضـــل وأكمل عن التجدد الثقافى ، وظهور عوامل الابتداع فى الشـــعر وغيره من أنواع الفنون والآداب فى المـــدة التى نتناولها بالدراسة •

ولن يحتـــاج الأمر منا الى الايغال فى القدم لنتعـــرف على مسارات الطور فى مصر ، لأن انطواء الامبراطورية المصرية تحت علم الرومان بعد فتح الاسكندر لها غير من حياتها وبدل أساليب العيش فيها ، وأنزل علمها من فوق ساريته العريقة ليصـــبح علما ضعيفا متواضعا ، واستمر يتحول من ضعف الى ضعف حتى جاء الفتح الاسلامى ، وعرفت مصر بعض عصور الازدهار والقوة والتقدم تحت الراية الاسلامية ، حتى رميت بالفتح العثمـــانى فى أوائل القرن السادس عشر ، فصنع بها الأتراك ما لم يصنعه أى عهد قبله ، وأصبحت حياتها الاقتصادية محصورة فى الزراعة والتجـــارة ، وبعض الحرف اليدوية ، وحتى هذه العوامل الاقتصادية الضعيفة التى كانت ثمرة نتاجها ، وحصيلة عرق أبنائهـــا تذهب فى غير رحمة الى الســـادة الجدد من العثمـــانيين والمماليك والملتزمين ، وأثقل كاهل الشعب بالضرائب حتى فقد الناس معنى الملكية ، وأهمية النتـــاج ، وضعفت الحوافز ، ومال الناس الى الخمول ، وانصرفوا الى شجونهم وأحزانهم يجترونها فى مرارة وحسرة • حتى جاءت الحملة الفرنسية ، التى حاولت أن تكسب الشعب الى جوارها فخففت الضرائب عنه ، وأشعرته بملكية الأرض وأعطته من الحوافز ما يدفعه الى العمل والنتـــاج ، وحررته من قبضة المماليك والملتزمين ، وسنت قانون ١٦ من سبتمبر سنة ١٧٩٨م ، الذى يقضى بتمكين الأرض فى أيدى أصحابها بتوثيقها فى سجلات « الرزنامة » ــ الشهر العقارى ــ

وتقدير ثمن جديد للأرض مع الاعتراف بنظام التوريث فى الشريعة الاسلامية(١) وهكذا وضع هذا القانون ثمنا للأرض ، وأقر حق التوريث ، واستن نظاما لتسجيل سندات التمكين الفردى . فوضع النواة الأولى لنشأة الملكية الفردية فى الأرض الزراعية فى مصر — وحطم نظام ملكية الدولة ونظام الانتفاع الذى لم يجر على الدول الا الخراب والدمار لأنه يقضى على الحوافز ، ويؤدى الى الخمول « واللامبالاة » والاهمال(٢) ، ولكن محمدا عليا لم يستفد من هذا القانون ، ولم يترك للشعب جنى ثماره والتمتع به ، فحرم بيع الأرض أو توريثها ، ولم يترك للفلاحين الا حق الانتفاع بها خلال حياتهم(٣) ، ولم يتغير هذا الوضع الا فى عهد عباس الأول حيث اعترف بملكية فردية محددة للأرض(٤) ، وجاء سعيد فأقر حق التأجير والرهن وتوريث الانتفاع . وفى السنة الأولى للاحتلال صدر القانون المدنى الأهلى الذى أقر حق التملك التام(٥) ، ولكنه لم يتحر العدل فى توزيع الأرض فأدى الى تراكمها فى أيدى قلة من القادرين ، وأصحاب السلطان ، وترك معظم أبناء الشعب معدمين لا يملكون شيئا(٦) ، وحتى صغار الملاك الذين استطاعوا احتواء بعض الأجزاء الصغيرة أرهقتهم الضرائب مما جعل بقاء الأرض فى أيديهم أمرا محالا ، وساعد ذلك الكثيرين من الأجانب على شراء هذه الأراضى بأبخس الأثمان ، وانتشر المرابون فى طول البلاد وعرضها(٧) .

ولم يكن حظ التجارة بأفضل من حظ الزراعة ، فقد احتكرت الدولة التجارة الداخلية والخارجية فى عهد محمد على ، حتى جاء سعيد فألغى النظام الخاص بالاحتكار ، ولكن الوضع العالمى بالنسبة للتجارة كان قد سبق الأوضاع فى مصر بمراحل كبيرة ، لذلك كان من السهل على التجار الأجانب ، والرأسمالية العالمية السيطرة على التجارة فى

---

(١) انظر كتاب الأرض والفلاح لابراهيم عامر ص ٧٢ — ٧٥ ، ٧٦ — ٧٩ مصر ١٩٥٨م .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٧٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ٧٩ .

(٤) المرجع نفسه ص ٨٣ .

(٥) انظر الأرض والفلاح ص ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ .

(٦) المرجع السابق ص ٨٩ ، انظر الجداول الخاصة بتوزيع الملكية .

(٧) انظر عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٣٣ ، ٣١٤ وما بعدها .

مصر فى الداخل والخارج ، وساعد على ذلك اعتماد الحكام على الأجانب ، وانشاء المحاكم المختلطة ، والامتيازات الأجنبية فى ظل الاحتلال ، وحاولت الرأسمالية المصرية أن تجد لها مكانا وسط هذا الخضم الهائل ، فأنشأت بنك مصر الذى أسهم فى الزراعة والصناعة والتجارة ، وجمع الجهود المبعثرة لأصحاب رؤوس الأموال لمواجهة عنفوان الرأسمالية الأجنبية(١) .

أما الصناعة ، فقد كان لأبناء الشعب المصرى فيها دور خلاق حتى جاء الاحتلال التركى ، وأكره معظم الحرفيين والصناع المهرة على النزوح الى تركية فاضمحلت الصناعة فى مصر ، وتوقف أغلبها ، حتى جاء محمد على ، فوضع أسسا قوية للصناعة تملكه الدولة وتحتكره ، وبهذا قضى على الصناعات الحرفية التى كانت تقوم على أكتاف أبناء الشعب وبرغبة منهم ، وفى عصرى عباس وسعيد توقفت الصناعة وانهارت كغيرها من الصناعات والفنون ، وحاول اسماعيل اعادتها ، ثم جاء الوافد البغيض « الاحتلال » فحاول أن يقضى على ما بقى منها منذ أيام محمد على واسماعيل ، فأغلق مصنع الورق ببولاق ، ودار سك النقود ، وباع مغازل القطن ، ومصانع النسيج ، وعطل ترسانة صنع البنادق والذخائر ، وباع البواخر النيلية ، وأغلق الحوض لاصلاح السفن وقضى حتى على الحرف الصغيرة(٢) ليخلو الجو للرأسمالية الاستعمارية ، وليمنع الازدهار والتقدم فى مستعمرته الجديدة حتى تظل خاضعة له مستسلمة . وحاول بعض الأثرياء بالمثابرة والجهد أن يقفوا فى وجه هذا التيار بكل الأساليب ، فووجهوا بالعناء الدائم من المحتل ، حتى جاءت الحرب العالمية الأولى ، وظهرت نهضة الشعب المصرى ، وبرزت قياداته بقوة ، وعمت الثورة كل جوانبه بعد الحرب حتى ألغيت الحماية ، واستطاع بنك مصر أن يغذى بعض الصناعات ، فظهرت مرة أخرى صناعات النسيج والسكر وغيرها من الصناعات الصغيرة ، وفرضت الضرائب الجمركية لحمايتها من المنافسة الأجنبية التى حاول

---

(١) تطور الحركة الوطنية ص ٥٦ وما بعدها ، وانظر تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ١٥٧ ـ ١٨٥ .

(٢) تطور الحركة الوطنية ص ٥٢ .

المستعمر والرأسمالية العالمية أن يجعلوها وسيلة للقضاء على هذه الصناعات التى لم يكتمل نموها بعد(١) .

* * *

٣ ــ عوامل اجتماعية :

بناء المجتمعات وتحولها يقوم منذ أقدم العصور على تدرج البناء السياسى والاقتصادى فان كانت الحياة السياسية متسقة معروفة الأهداف والغايات ، والحياة الاقتصادية منتظمة يجرى ماؤها فى قنوات تشمل جوانب الأمة كلها .. فان الحياة الاقتصادية تواكبهما وتنطلق معهما الى ميادين الرقى والتقدم من غير حدود . وقد ألقينا نظرة سريعة على الحياتين السياسية والاقتصادية فى مصر فى عهود مختلفة ، ومن خلال تلك النظرة نستطيع أن نتعرف على ملامح المجتمع المصرى ، وعوامل تقدمه ومعوقاته .

فالمجتمع المصرى فى زمن الحكم التركى كان يتكون من ثلاث طبقات : طبقة الحكام من عثمانيين ومماليك ، وطبقة العلماء وكبار التجار والأثرياء ، وطبقة عامة الشعب أو الرعايا ، وحظيت الطبقة الأولى بالحكم والسلطان والمال والجاه ، ونالت الثانية الاحترام والتقدير والمشاركة فى الحكم بالرأى والمشورة ، وأصابت من العيش نوعا من الرخاء والراحة ، كما نعم كبار التجار والأثرياء بالجاه والبذخ ، أما الطبقة الثالثة وهى الغالبية العظمى من أبناء الشعب ، فكانت حياتها الكفاح والضنى وسط ألغام الجهل والمرض والبطش والجوع والحرمان ، ولم يكن لهم من نصير الا العلماء يقفون بجانبهم فى بعض القضايا ، وحتى هؤلاء العلماء كانوا فى مواقف كثيرة لا يجدون القوة على مواجهة ظلم الحكام وبطشهم حتى جاءت الحملة الفرنسية وحلت محل المماليك والعثمانيين ، وارتفع شأن العلماء أكثر ، وأصبحوا هم بحق ممثلى الشعب ولسانه الناطق وأصبح لهم القدرة على فتح قنوات بين الحاكم والمحكوم ، ثم جاء محمد على وكانت فيه روح المماليك والعثمانيين معا وحول الدولة الى تركة يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وحاول أن ينقص من دور العلماء ويبعدهم عن الزعامة الشعبية ، ولكن ظروف الدولة الجديدة ومسارات حياتها زادت من مكانة العلماء

---

(١) تطور الحركة الوطنية ص ٥٦ .

الاجتماعية ، وبدلا من أن يكون علمـاء الأزهـر وحدهم فى الساحة انضم اليهم علمـاء فى الهندسة ، والطب ، والجيش ، والصناعة ، وأخذت هذه القاعدة تتسع وتقوى باتسـاع شئون الدولة ، وكثرة المبعوثين الى أوربة لحاجة محمد على اليهم ، مما أدى الى حدوث توازن نسبى بين الحكام والعلمـاء الذين هم أصـلا من بين أبنـاء الشعب وان كان بعضهم تحول بالثراء والجاه من طبقته الى طبقة الحاكمين وأصحاب السلطان •

أما طائفة التجار فقد أصابها الانهيار والتحلل ـ نتيجة لاحتكار محمد على للتجارة وسيطرته على مقدرات الرأسمالية الوطنية ولم تجد مفرا من الاتجاه بكليتها الى الزراعة ، فوجد ما عرف بطبقة كبار الملاك وأصبحوا منذ عهد اسماعيل يكونون طبقة مؤثرة لها أوضاعها الاجتماعية الخاصة ، ومصالحها المترابطة ، وبنظرة فاحصة نجد أن معظم هذه الطبقة كان من الأتراك وبقايا المماليك ، وبعض المصريين الذين استطاعوا أن يلتحموا مع الطبقتين ، وبعد انهيار نظام الاحتكار العلوى نمت الرأسمالية المصرية من جديد فى التجـارة والصناعة ، وظهر مع كبار الملاك الزراعيين طبقة أخـرى لها وزنها وثقلها ، واستطاعت بما لها من خبرات واحتكاكات فى الداخل والخارج أن تكون ما عرف بعد ذلك بطبقة رجال الحكم والنفـوذ ، وظهر من بينهم القـادة والوزراء والمستوزرون(١) ، ولكن مجموع الشعب ظل يعيش تحت أثقال البؤس والفاقة ، ولم تتغير حالته الاجتماعية ، اللهم الا فى الشـكل حيث زادت مشاريع الرى والصرف وأنشئت بعض المستشفيات والمدارس ، ولكنه ظل مستغلا ، واتسعت الهوة بين الطبقات ، وأصبح هناك فرق شاسع بين القرية والمدينة فقد ظلت القرية كما هى مأوى الفقـراء والجهلة والمعوزين ، وتغيرت المدينة حيث الصناعة والتجارة ، ودواوين الحكومة ، وقصور الحكام والعظماء والوجهاء ، وأصبح التناقض الاجتماعى واضحا بين الريف والمدينة ، واشتد الصراع بين الطبقات ، وعاد الانسـان المصرى يعانى من حياته الجديدة المحصورة بين رحى الفقر والجهل والمرض من جهة ، ورؤيته لتلك الطبقة التى تعيش فى بذخ واسراف

---

(١) مجلة الكاتب العدد ٥٢ تحت عنـوان دراسة فى المجتمع المصرى ص ١٠٦ ـ ١٢٠ وما بعدها .

واستعلاء من جهة أخـــرى . وكان يطمح بنهاية الاحتكار الى أن يفتح المجال له ليرى نور الحياة ولكن الطبقة الجديدة تلوثت بأدران الحضارة الغربية تلوثا أنساها شعبها الكادح ، وساقها الى تقليد الطبقات الأوربية المترفة والتشبه بها بل والتحدث بلغتها ، والتعامل بأسلوبها فى الحياة العامة والخاصة(١) ، وعرفت المرأة نتيجة لذلك السفور ، ومشـــاركة الرجل فى العمل ، والذهاب الى المسارح ودور السينما ، وكان يحبذ هذا الاتجاه ويدعو له جماعة من المثقفين ثقافة أوربية ، وانتقلت هذه العادات والتقاليد من الطبقة المترفة الى طبقات أخـــرى من الشعب حبا للتقليد والأخذ بشكليات الحيـــاة لا بجوهرها .. خاصة عند كبار الموظفين ، وبقى معظم الشعب كما هو يعيش فى دائرته المحدودة وبين عاداته وتقاليده الموروثة وان كانت الرياح التى هبت عليه جعلته شيئا فشيئا يتجه هو الآخر الى محاكاة هذه الطبقات ومحاولة التشبه بها .

ووسط هذا كله ظلت جماعات من المثقفين تحتفظ بطابعها المصرى والعربى ، وتعمل على حفظ التراث والحضـــارة الاسلامية والشخصية المصرية ، وتذود عن تقاليدنا ومقوماتنا النفسية والاجتماعية ، فنتج من هذا صراع بين القديم والجديد ، أو بمعنى أصح بين الأصالة والتقليد بين الثقافتين الوافدة والقديمة ، وانعكاس هذا الصراع على المجتمع كله ولكنه كان هادئا بطيئا فى المجتمعات الريفية ، حادا وسريعا فى مجتمعات المدن والمثقفين واشتد الصراع بين المتأثرين بالثقافة الأوربية المشايعين لها ، والمتعلقين بالتراث الداعين له ، وتلونت جوانب الصراع ولم تسر على نسق واحد ، فبينما كان البعض ينادى بأخذ حضـــارة الغرب بكل ما فيها ، كان البعض الآخـــر يرفضها أيضا بكل ما فيها . ونادى البعض بأن نأخذ الجوهر منها ونستفيد بوسائل العلم والتقدم ، ونرفض العادات والتقاليد التى تخالف عقائدنا ومقوماتنا الشخصية ، وعلى رأس هؤلاء الشيخ محمد عبده ، ورأى آخرون تغيير المجتمع تغييرا جذريا حتى يمكنه أن ينتقل الى حضـــارة العصر ، وأن ذلك ليس فيه خطـــر على مقوماتنا الشخصية ، بل ربما دعمها وقواها ، وقد امتد هذا الرأى منذ الحملة الفرنسية حتى وقتنـــا هذا ، وقد بدأه

---

(١) انظر مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٧٧ ، ٨١ ـ ٨٥ ، ٩٠ ـ ٩٤ وما بعدها .

الشيخ حسن العطار ، و الجبرتى والخشـــاب(١) ، ثم رفاعة الطهطاوى ، ومن بعده قاسم أمين ، ولطفى السيد وهيكل ، وطه حسين وغيرهم من المفكرين والأدباء ، والصحفيين •

* * *

٤ ــ عوامل ثقافيـــة :

كانت مصر قبل الحملة الفرنسية لا تجـــد لها غذاء من الثقافة والمعرفة الا بين أروقة الأزهر العريقة ، وكانت ثقافتها العلمية ، والفكرية والأدبية كلها من هذا المنهل الخصب • ولكن الأزهـــر كأى جامعة فى العالم اذا لم تطعم بكل جديد يظهر فى ربوع الدنيا من ألوان الثقافة والمعرفة فلابد أن يخبو ضوؤها ، ويخفت صوتها ، وتفتر همتها وتضيع معالمها وسط ركب الحضـــارة والتقدم الجديدين • وهكذا كان حال الأزهـــر فى هذا التاريخ فبعد أن كان مشعلا للفكر المستنير والتقـــدم الانســـانى فى جوانب الأرض ، أهملت فيه العلوم التجريبية الضرورية للحيـــاة كالطب والهندسة ، والفيزياء ، والرياضة ، والفلك ، والكيمياء ، والجبر ، وغيرها مما هى فى الأصل تراث الحضـــارة الاسلامية ، وعلوم الأوائل منهم ، وعكف على دراسة العلوم العربية والشرعية(٢) ، وانطوى على نفســـه يجتر ذكريات المـــاضى فى أسلوب عقيم ليس فيه من التجديد والتحليل الا بعض الهوامش والتعليقات • ومع ذلك كان هو القبس الوحيد الذى تستمد منه العقول ضياءها ، واليه يفد طلاب المعرفة من كل ربوع العالم الاسلامى ، وعلى أعتابه تتحطم أصنام الكفر والزندقة والالحاد •

ولـــا كانت الحملة الفرنسية لها آمال كبرى فى الشرق ، أحضرت معها دعائم هذه الآمال ونواتها ، علمـــاء ومفكرين فى مختلف فنون المعرفة ، فى الكيمياء ، والفيزياء ، والفلك ، والتاريخ ، والجغرافية ، والهندسة ، والصناعات الحربية والمدنية ، وحاول نابليون أن يجعل من هؤلاء العلماء وسيلته لاقامة بنـــاء حضارى فى مصر يوائم الحضـــارة الأوربية ، وحرص على أن يوفر لهم سبل البحث والنتاج ، فأحضر آلات الطباعة ،

---

(١) انظر تاريخ التعليم فى مصر فى عصر محمد على لأحمد عزت عبد الكريم ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٦ •

(٢) تاريخ الأستاذ الامام لمحمد رشيد رضا ج ١ ص ٣٨ ــ ٦٠ ، ٦٤ .

وأجهـزة البحوث المختلفة ، وأصدر صحيفتين هما : « بريد مصر » لسان الحملة ومرآة فكرها ، و « العشـارة المصرية » لسان حال المجمع العلمى والمعبرة عنه(١) وقد كان لهاتين الصحيفتين أثر كبير فى بروز الصحافة المصرية فيما بعـد لأنهما ـ وان كانتا بالفرنسـية ـ نبهتا الأذهان الى أهمية الصحافة ودورها المؤثر فى حياة الأمم ، وظهـر بجانبهما صحيفة « التنبيه » باللغة العربية ، وكان اسماعيل الخشـاب يحررها ويدون فيها ما يجرى فى ديوان القضـاء(٢) ، كما ظهرت الملصقات الجدارية التى كانت تحمل بعض الأوامر والتعليمات ، وكان مع الحملة أيضا موسيقيون ، وفنانون وممثلون ، عزفوا الألحان ، ومثلوا بعض الروايات ، ومع أنها كانت بالفرنسية شاهدها المصريون ، وتأثروا بها ، ووجهت أنظارهم الى هذا الفن ، وأنشأ « مينو » مسرحا للتمثيل يرتاده رجال الحملة وعلية القوم من المصريين(٣) .

ولقد كانت مصر خالية من المكتبات ـ الا لونا خاصا فى المنازل ، أو غير منظم فى المسـاجد ، أو نوعا أكمل لدى كبار المماليك ، ومعروف أن المكتبات هى عدة البحث العلمى والأدبى وعتاده ، ولذلك أنشـأ الفرنسيون مكتبة فرنسية عربية تضم الكتب التى أحضروها من فرنسة ، أو جمعوها من بيوت المماليك ومن المساجد(٤) .

وقد أصبحت هذه المكتبة محطا لأنظار كبار المثقفين ، وميدانا لبحوث أعضـاء المجمع العلمى ، واستطاع العلماء أن يقوموا بدراسات وافية للبيئة المصرية ويجروا بحوثا فى الكيمياء ، وينقبوا عن الآثار ، ويحللوا التربة ، ويدرسـوا أنواع النباتات التى تتلاءم مع التربة المصرية ، كما أنشأوا المصـانع وطواحين الهواء ، ومهدوا وأصلحوا الكثير من الشـوارع(٥) ، وكان لذلك كله تأثير كبير على الشعب ، فهذا الوافد الغريب الى أرضه يصنع بها ما لم يصنعه هو عبر مئات السنين ، ولهذا أخذ يلتقط الكثير ويتأثر به فى أعماقه ، ويتمنى لو

---

(١) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ٩٠٣ ، ٩٠٤ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ١١ ، ١٢ ، ٥٢ .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ١٢٩ وتاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٥٠ .

(٤) تاريخ الأدب العربى ص ٩٠٤ .

(٥) تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ١٤٢ ـ ١٤٩ .

أتيح له أن يكون مثل هؤلاء القـــوم علما وعمـــلا وقدرة ، ويتحسر على سنوات الهوان الطويلة التى ضاعت تحت سطوة المتعالين والمتحكمين ـــ وقد كان قديما هو الرائد والقائد الذى يتشبه به الناس فى كل أمم الأرض ، ويتغـــذى من رحيق علمائه كل طالب علم ومعرفة .

ورحلت الحملة والنفوس بأفكارها وأعمالها حبلى تريد أن تلد فلما جاء محمد على وجدها فرصة ليقيم دولته على هذه الأسس التى رآها الشعب وأخـــذ بها ، فأرسل البعوث ، وأحضر العلمـــاء وأنشأ المدارس المختلفة « ابتدائية ، وتجهيزية ، وخاصة » كما أنشـــأ مدرسة للطب ، ومدارس لعلوم الحرب ، وبعودة البعثات نشطت الترجمة وتأسست الطباعة الرسمية ، وكان عمادها مطبعة بولاق وظهر بجانبها عدد من المطابع الأهلية(١) كان لها جميعا الفضـــل الكبير فى نشر الثقافة قديمها وحديثها ، كما كان لها الأثر العظيم فى احيـــاء التراث وتسهيل تداوله ، وطبعت دواوين كبار الشعراء ، وأصبحت فى متناول أيدى الناس ، وأخذت الصحافة تبرز الى عالم الوجود ، باللغة التركية أولا ، ثم بالتركية والعربية ، ثم بالعربية فقط ، واهتم الناس بها يطالعون فيها فكرا جديدا ويتعلمون منها ما أغلق عليهم عبر عصور طويلة ، وبجانب هذه الأسس الثقافية الفعالة ظهرت صناعات مختلفة فى النسيج والورق والسفن وآلات الحرب ، وشقت القنوات وأقيمت الجســـور ، ومهدت الطرق ، وكانت حياة الناس متصلة بكل هذا فأخذوا يزدادون ثقافة ومعرفة ، ويتطلعون الى حياة أفضـــل ، والى مزيد من العلم والتقدم .

ولكن عباسا الأول ، وسعيدا من بعـــده كانا يجهلان قيمة هـــذا التحول فى حياة الأمة ، فحاولا ايقاف هذا التيـــار ، اما عن جهل ، أو خوف من تقدم الشعب ورقيه ، فأغلقا المدارس وشردا العلمـــاء ، وطردا رفاعة الطهطاوى رائد هذه الحركة ومرشدها الى السودان ، وعم فى عهدهما الظلام ، وتوقفت عجلة التقدم عن الحركة ، فلما جاء اسماعيل عادت الى الانطلاق من جديد ، وأعيدت المصانع التى كانت قد توقفت ، وزيد عليها مصانع للسكر والزجاج ، وأعيد فتح المدارس ، ودخلتها البنات لأول مرة ، وأنشـــئت معاهد عالية دخلتها ألوان مختلفة من العلوم(٢) وهكذا أخذت موجات العلم والمعرفة تعلو وتكتسح كل

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٥٠ .

(٢) عصر اسماعيل ج ٢ ص ١١ ـ ١٤ .

المعوقات فى طريقها ، وظهرت المكتبات العامة ، وقاعات المطالعة ، واهتم الناس بالفنون ، فأقيمت دار « الأوبرا » وتكونت الفرق التمثيلية ، والموسيقية ، وتأثرت كل جوانب الحياة بهذه الأشياء وأصابها التغيير والتبديل ، وبدت ملامح مصر غير ما كانت عليه فى عهـود ما قبل الحملة الفرنسية ، وامتد التغيير الى وسائل المواصلات ، فأنشـئت خطوط السكك الحديدية و « التلغراف » و « التليفون » ولم يستطع توفيق ومعه جنود الاحتلال الانجليزى أن يوقفوا عجلة التقدم ، وجاء عباس الثانى فزادت فى عهده المدارس ، والمكتبات ، ودور النشر والصـحافة ، واتسعت البعثات وتلونت مظاهر الحضـارة بألوان مختلفة شملت كل جوانب الحياة وظهر من بين المصريين علـماء ومفكرون وشعراء وأدباء لا يقلون فى عملهم وفكرهم عن نظائرهم فى الغرب ، وكان للصحافة دور كبير فى كل ذلك ، فمن المعروف أن صحيفة « روضة المدارس » التى كان يرأس تحريرها رفاعة الطهطاوى كانت حافلة بالدراسات القيمة فى مختلف العلوم والآداب ، وكانت البحوث تنشر فى فصـول متعاقبة كما أنها وسعت المجال لعرض بعض أفكار النابهين من الطلاب ، ونشر فيها اسماعيل صبرى بعض شعره وهو ما يزال طالبا كما أنها ساعدت على ظهور الصحافة الأهلية بعد أن نتجت هى من « صحيفة الوقائع المصرية » الرسمية(١) ، وتنوعت هذه الصحف ، فمنها العلمية ، والأدبية ، والسياسية ، والفكاهية(٢) ، وظهر بجانبها الجمعيات والنوادى العلمية والأدبية مثل « جمعية المعارف » بغرض نشر الكتب النافعة ، و « جمعية التعريب » لترجمة الكتب الحديثة و « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ، و « النادى الشرقى » ، و « نادى المدارس العليا » ، وغير ذلك من الجمعيات ، والنوادى التى بعثت مع الصحافة الحياة والحركة فى المجتمع الأدبى والثقافى ، وكان لبعضها الفضل فى احياء التراث ونشره ، وترجمة الكتب واصدار المجلات ، واقامة الندوات والمحاضرات(٣) .

---

(١) انظر « تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضـتين الفكرية والاجتماعية » للدكتور ابراهيم عبده ص ٧٠ ـ ٨٢ ، ٩٣ وما بعـدها مصر سنة ١٩٤٤م .

(٢) « عصر اسماعيل » (جـ ١ ص ٢٦١) .

(٣) « الصحافة المصرية فى مائة عام » للدكتور عبد اللطيف حمـزة ص ٥٣ ـ ٦٠ (المكتبة الثقافية ١٤) بدون تاريخ .

وزاد اتصال المصريين واحتكاكهم بالثقافات المختلفة ، وتأثروا بها ، وعملوا جهدهم على نقلها الى اللغة العربية حتى تكون فى متناول أكبر قدر من الناس ، واتسع نشاطهم فى الترجمة والاقتباس من علوم الغرب مما أدخل صفحات كثيرة من هذا الفكر الانسانى المتحضر الى الفكر المصرى والعربى ، ولا شك أن هذه الترجمة كانت أخطر وسائل انتحول الثقافى وأعظمها أثرا ، خاصة فى مجال الشعر الذى عنينا بدراسته فى هذا البحث ، لأن البناء اللغوى للشعر وأخيلته وموسيقاه وضروبه تأثرت أيما تأثر بمضامين هذا الفكر الجديد ، بل وبلغته ومعانيه ، وكان شعرنا فى حاجة حقا الى هذا الاتصال ، حتى يستفيد من ثمرات العبقرية عند هذه الأمم المتقدمة ، وليطعم تراثه القديم بتلك الثمرات وليخرج من القيود التى ضربت حوله عبر مئات السنين ، ويصل فى بنائه وقدرته الى ما وصل اليه شعر الأمم الأخرى ، وقبلنا عرفت الأمم ذلك • فنهض الأدب اللاتينى باتصاله بالأدب اليونانى ، وقاد الأدب الايطالى الأسبانى الآداب الأوروبية الأخرى فى عصر النهضة ، ومن قبل هذا كله نهض الأدب العربى القديم بالتقائه مع الآداب الفارسية واليونانية والرومانية ـ أيام العباسيين ـ فليس بدعا أن يعود الأدب العربى فى عصره الحديث ، ويتأثر بالأدب الأوروبى الذى هو فى الأصل وليد آداب الأمم الأخرى ومن بينها الأدب العربى الذى كان حتى القرن العاشر الميلادى سيد الآداب الانسانية كلها ، وكان يغذى الآداب الأوروبية فى العصور الوسطى بمواد موضوعاتها فى ميدان الشعر ، وقصص الفروسية والحب ، وتصدر مجالات تجديد كثيرة فى الأدبين الفارسى والأوروبى(١) حتى عدت عليه عاديات الدهر ، فأصابه الوهن والضعف ، وانحصر بين دائرتى التقوقع والاهمال ، وطغت على قدراته الخلاقة ألسنة أعجمية لا تكاد تبين ، وعقول أجنبية لا تستطيع التحليق به الى آفاقه البعيدة ، لأنها اما غير عربية ، أو عربية ليس لها من القدرة العلمية والخيالية ما كان للأجداد والأحفاد فى العصور العربية المزدهرة ، حتى كان العصر الحديث وبدأت غشاوات الجهل تنزاح عن مصر والعروبة ، وظهرت عمليات التلقيح العلمى والأدبى بين الأمم ،

---

(١) « الأدب المقارن » للدكتور محمد غنيمى هلال ج ١ ، ٢ ـ الانجلو المصرية ١٩٦٢م .

فأسرع الرعيل الأول من أبناء البعثات فى التقاط ذلك والاستفادة منه ، وعملوا على الاتصال بالآداب الأخرى على الرغم من اتجاه الدولة العسكرى الصناعى فترجم رفاعة رواية « مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك » وترجم شوقى أثناء وجوده بفرنسة قصيدة « البحيرة » وحافظ ابراهيم « خنجر مكبث » وفى ديوان خليل مطران بعض القصائد المترجمة عن « شكسبير » مثل « حنا الصغير » وغيرها ، وعنى بعضهم بترجمة « الأليـــاذة » و « رباعيات الخيام » و « حكايات لافونتين »(١) وفى دواوين المازنى والعقاد ، وأبى شادى ، وعلى محمود طه ، وابراهيم ناجى وغيرهم الكثير من القصائد المترجمة ، ولم تكن مجلة أدبية تخلو من قصيدة مترجمة ، فمجلة « أبوللو » ترجم فيها اسماعيل الدهشان « ليالى الفريد دى موسيه » ومختار الوكيل ترجم « الى قنبرة » كما نشرت المجلة أيضا « من مشرقيات فيكتور هوجو » و « درع القلب » و « الشريد » لشكســـبير وترجمـــات أخرى متنوعـــة(٢) ، وكذلك اهتمت مجلتـــا « الثقـــافة » و « الرســـالة » وغيرهما من المجلات بترجمة العديد من القصص والروايات والقصائد لكبار الأدباء والشعراء فى مختلف بلاد العـــالم ، وترجم للمنفلوطى روائع من الأدب الفرنسى — بوساطة الشـــاعر محمد عثمان جلال الذى كان يجيد الفرنسية — فصاغها بأسلوب عربى فصيح من أمثال « ماجدولين » و « فى سبيل التاج » و « الشاعر » كمـــا حول كثيرا من القصص الأوروبية القصيرة الى قصص عربية فى اللغـــة والأسلوب والفكرة ، وترجم محمد كامل حجاج لـ« هوجو » و « لامرتين » و « دوموسيه » و « كورنى » وغيرهم ، وأخرج الزيات « مختـــارات من الأدب الفرنسى » ترجم فيـــها مجموعـــة قصص لـ« موباسان » وقصائد لـ« لامرتين » ولغيرهما من كبار أدباء فرنسة ، واتجه بعض المتخصصين الى ترجمة المذاهب الأدبية والنقدية ، ومن أوائل هؤلاء الشيخ نجيب الحداد الذى عقد موازنة بين الشـــعرين العربى والأفرنجى ، نقل فيها تعريفات للشعر من مصادر أجنبية ، ووازن

---

(١) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث لأنيس خورى المقدسى ج ٢ ص ١٧٤ بيروت ١٩٥٢م .

(٢) جماعة أبوللو وأثرها فى الشعر الحديث ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ — ٣٦٠ وما بعدها .

بين الشعرين فى اللفظ والمعنى والوزن والقافيـــة(١) ، وكتب روحى الخالدى « علم الأدب عند الافرنج والعرب » على هيئة مقالات فى مجلة الهلال ، ثم جمعها فى كتاب تحدث فيه عن « الكلاسيكيـــة » و « الرومانتيكية »(٢) وتبعه قسطاكى الجمصى بكتاب « منهل الوراد فى علم الانتقـــاد » الذى نهج فيه نهجا جديدا فى النقد ، واتجه الى المذاهب الأدبية بالدراســـة والتحليل وعرف بها وباتجاهاتها ، بأساليب المفكرين فيها ، وقد ســـاعد هذا على التجديد والتقدم فى نظراتنا النقدية والأدبية ، وأدى الى نوع من الالتحـــام بين أدب أدبائنا وهذه الآداب التى نتناولهـــا بالدراســـة(٣) ونتج من ذلك كله أن تكونت جماعات من الأدباء والنقـــاد والمفكرين تقيس أدبنا وشعراءنا ومفكرينا بمقاييس أوروبية ، ومن هؤلاء محمد حسين هيكل وطه حسين ، والعقاد ، ولطفى السيد ، والمـــازنى ، وشكرى ، وأحمد زكى أبو شادى وغيرهم ، وفى دراساتهم عن أبى العلاء ، والمتنبى ، وبشار وابن الروحى خير دليل على ذلك ، بل أنهم أخذوا يتناولون التراث على ضوء النظريات الأوروبية فى الأدب والنقد كما فعل طه حسين فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » وحاول أصحاب الديوان « العقـــاد وشكرى والمـــازنى » أن يجعلوا كل أشعارنا مرتبطة بهذه المقاييس الغربية الجديدة ، وظهر بجانبهم أصحاب فنون أخرى تأثروا بها أيضا من الغرب ، وهى القصة والرواية والمسرحية من أمثال فرح أنطون ومحمد تيمور وأخيه محمود ، وهيكل ، وتوفيق الحكيـــم ، وكان التنافس شـــديدا بين هذه الفنون ، وبين الشعر الذى كان يعد قيثارة العربية وميدان صولجانها واستطاعت بحق أن تزاحم الشعر وتنزله عن عرشـــه الذى تربع عليـــه مئات السنين ، واقترب الشعراء من هذا الركب وتنادوا اليه ، فأخذت الأنماط الجديدة تظهر فيه ، واستفاد الشعراء من الموازنات بين شعرنا بطرقه الفنية ، وشعر الآخرين وخصائصه ، بل ان كثيرا منهم وقف على هذه الخصائص

---

(١) « النقد الأدبى المعاصر فى الربع الأول من القرن العشرين » لاسحق موسى الحسينى ص ١٤ ـ ١٧ مصر ١٩٦٧م .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ .

(٣) تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى مصر فى الربع الأول من القرن العشرين لحلمى على مرزوق نهضة مصر ١٩٦٦ ص ٣٢١ ، ٣٢٣ ـ ٣٢٦ ، والنقد الأدبى المعاصر ص ٧٧ .

فى قراءته للشعر الأوروبى ، وحاول أن يستفيد ويفيد منها ، وكان معظمهم مجيدا لاحدى اللغـات الأجنبية . ومتصلا بها اتصالا يكاد يدنيه من فكر أهلها وأساليبهم فى صناعة الكلمة أدبا وشعرا(١) .

وليس غريبا أن يكون رائد شعرنا الحديث « البارودى » ممن يعرف اللغـات التركية ، والفارسية ، والانجليزية ، وأن يكون أمير الشعراء « شوقى » خبيرا فى الفرنسية والتركية ، وأن تكون جماعة « الديوان » فصحاء وبلغـاء فى الانجليزية ، ورأس مدرسة « أبوللو » أحمد زكى أبو شادى عالمـا فيها أيضـا ، بل ان معظم شعراء هذه الحقبة كانوا على علم بلغة على الأقل بجانب اللغة العربية ، وبعضهم كان يعرف أكثر من لغة ، وبحكم الظروف التعليمية والسياسية والاجتماعية كان اتصـالهم بهذه اللغـات دائما فكان يسبب ظهور رد الفعل فى أقوالهم ومنظوماتهم الشعرية . وقد رأينا ذلك واضحا فى أشعار أصحاب الديوان ، وجماعة أبوللو ومن نهج نهجهم ، وكان لهذا كله تأثير فى اتجاهاتنا الأدبية والفنية وما زال .

* * *

(١) الأدب العربى المعاصر فى مصر لشـوقى ضيف ص ٨٣ ، ٨٥ وما بعدها .

الفصل الخامس

التقليد والتجديد وأثرهما الفنّى

١ ــ التقليد :

بعد أن ألقينا نظرة سريعة على العوامل المؤثرة فى حياة الأمم ــ سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ــ ونتبعنا مراحلها على أرض مصر بدءا من سلطان المماليك ، ثم الاحتلال التركى ، ومرورا بالحملة الفرنسية ، فعصر محمد على ومن تبعه من أسرته حتى الاحتلال الانجليزى ، وظهور الحركات الوطنية وتفاعلها مع الشعب ، وبروز المثقفين المصريين ، والتقائهم بالفكر الأوروبى ، وتأثرهم به ، ومحاولة صبغ الوطن بهذه الصبغة الأوروبية التى هزت حضارتها وتقدمها جوانب الأرض ، وأحدثت فى عاداتها وتقاليدها ومفاهيمها وثقافاتها ما يشبه الزلزال الذى يمحو كل ما حوله من معالم ، والعوامل التى كانت تساعدهم فى ذلك أو تقف فى طريقهم ، ومدى قابلية الشعب لها أو رفضه ...

بعد هذا كله يمكننا أن نبدى رأينا فى الشعر وموقفه عبر هذه الحقب فهو بلا شك من أبرز معالمها ، وما حدث له ، وفيه يعد صورة واضحة ومعبرة عن مسيرة الشعب المصرى وانتقاله من عصر الى عصر .

لقد ظل الشعر طوال عصور الاضمحلال القومى والحضارى والثقافى مضمحلا فى غالبيته ، مثقلا بأغلال التقليد ، بل وفسدت معانيه كما فسدت ألفاظه ، وكادت سماء مصر تخلو من أنغام شاعر مجيد بعد أن أبدل العثمانيون الدواوين العربية بدواوين تركية ، وقضوا بذلك على كل أمل فى ظهور كاتب أو شاعر ممتاز ، وأصبح ما يكتب ليس الا أسجاعا وأساليب ركيكة ، محشوة بالألفاظ التركية والعامية ، و « بدائع الزهور » لابن اياس ، وتاريخ الجبرتى خير الأمثلة لما صارت اليه الأساليب العربية فى هذا العصر ، فقد ملأ ابن اياس كتابه بالألفاظ

العامية من مثل : « ضربهم وبهدلهم » و « طفشوا فى الحـارات » و « حطوا غيظهم فى العبيد والغلمان »(١) ، وكذلك الجبرتى فى تاريخه حيث يقول : « ولموا الزاد ورحلوا » و « طلعوا عليهم من الحارات كالعفاريت » وغير ذلك مما هو منتشر عندهما فى معظم الصفحات(٢) وتحول الشعراء الى ببغاوات يتصايحون بمقطوعات وقصائد لا شعر فيها ولا فن ، انما هى ترديد وتكرار لبعض ما سمعوه ، يتناولونه بما يسمونه تربيعا ، أو تخميسا ، أو تسبيعا ، أو تشطيرا ، ويسبغون عليه ألوان البديع التى حفظوا منها أطرافا ، واستبد بهم عملان سيئان هما : التواريخ ، وهى حساب بيت أو شطر بحساب الجمل بحيث يوافق هذا الحساب السنة التى مدح فيها الممدوح أو ولد المولود ، أو أقيم العرش الى غير ذلك ، ثم الالغـاز حيث يلغز الشاعر ببيتين أو أكثر عن أى شىء ، ولم يتحرجوا فى أثناء ذلك من ذكر المصطلحات العلمية ، ولا من ذكر الألفاظ التركية والعامية(٣) ، ولا نستطيع أن نجد فى هذه الحقبة شاعرا يعبر عن عاطفة أو شعور واضح ، لأن الخواطر تبلدت وضاقت أغراض الشعراء ومعانيهم وظلوا يدورون فى فلك من الأغراض المصطنعة حتى جاءت الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ م وحملت معها كل التيارات الفكرية الجديدة فى أوربة ، وبدأ الصدام الكبير بين الجمود المتحجر فى مصر ، والتحرر المنطلق من فرنسة ، وحدث صراع عنيف بين اللونين من الحياة ، اللون الخامد الراكد ، واللون المتقد النشط . واستطاع المصريون أن يفرضوا رأيهم لأول مرة على الباب العالى فى تركية ، ويضعوا محمدا عليا على رأس الدولة بعد رحيل الحملة الفرنسية بوقت قليـل سنة ١٨٠٥ م وحاول محمد على كما قلنا قبل ذلك أن يسير على نهج الحضارة الأوروبية فى الصناعة والزراعة والتجارة والاستثمار . ولكن الشعر ظل فى أثناء الحملة الفرنسية وفى عصر محمد على ينظم بالطريقة الموروثة عن العصر العثمانى ، ولم يبد عليه التأثر بالتقـاء العقلين : المصرى والفرنسى ، ونحن نلمح ذلك عند أعظم شعراء هذه الحقبة « اسماعيل الخشاب » ، و « الشيخ حسن العطار » فليس فى

---

(١) انظر بدائع الزهور لابن اياس ص ٦٠ وما بعدها .
(٢) انظر تاريخ الجبرتى ج ١ ص ٣٩ وما بعدها .
(٣) فصول فى الشعر ونقده ص ٢٥٦ .

ديوان الخشـــاب ما ينم عن تأثيرات جديدة سوى بعض أشعار يعبر بها المصريون عن سخطهم على الفرنسيين على الرغم من أن الجبرتى يقول : « انه كان نادرة عصره فى المحاضرات والمحاورات ، واستحضار المناسبات والماجريات وقال الشعر الرائق ، ونثر النثر الفائق ، وعينه الفرنسيون فى كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه ... »(١) وديوان الخشـــاب — كما يقول الدكتور شوقى ضيف من أنه أشعر شعراء عصره(٢) يعد امتدادا للشـــعر المصرى فى العصر العثمانى ، فهو فى جملته صور لفظية لا تنم عن عواطف وأحاسيس عميقة ، وقد تدثرت هذه الصور بثياب غلاظ من المحسنات البديعية ولا نجد وراء هذا الا ضروبا من التكلف لتضمينات ، أو تخميســـات ، أو تشطيرات ، أو توريات ، وليس فى الشعر روح ولا حياة ، ولم يعمر الخشاب طويلا فى عصر محمد على ، فقد توفى سنة ١٢٣٠ هـ ، وعمر الشيخ حسن العطار اذ توفى سنة ١٢٥٠ للهجرة ، ولكنه انصرف عن الشعر ، وشعره فى جملته لا يخرج عن نطاق شعر الخشاب .

ولا يتصور المرء تغيرا سريعا فى الشـــعر وغيره من الثقافـــات والفنون لأن الأدب والثقافـــة والفن انما هى طرح لمشاعر الأمم ، وثمرة لمـــا يتفاعل فى وجدان أبنائهـــا ، ولا يعقل أن ينتقل الضـــعفاء الخامدون مرة واحدة الى الوثوب والانطلاق ، والتفاعل مع العصر ، ولكن الحقيقة أن النهضة منذ ذلك التاريخ قد بدأت قوميا ، واجتماعيا ، وحضاريا ، وثقافيـــا ، وكان لابد من أن تمر مدة حتى تخرج بذور النهضة أشجارهـــا ، وتؤتى أكلها بعد أن يكون الشعب قد تمثل ما قدم اليه من زاد ، وامتلأت أنفاسه بعبير الحياة الجديدة حتى يستطيع أن يضيف الى الزهـــور زهرة ، وأن تكون هذه الزهرة دالة عليه ، فالشعب المصرى ، وان كان بدأ يستعيد التراث الذى نفض عنه الغبار بعد مجىء الطباعة ، وينظر فى الثقافات الوافدة له من وراء البحار ، وأبناؤه فى البعثات ينهلون من المعارف الأوروبية ما يتاح لهم ، وتسمح به الظروف ، وان كانوا ما زالوا مشدودين بسلاسل عصر ما قبل النهضة وبراعمهم لم تتفتح فى أكمامها بعد ، خاصة أن النهضة فى العلوم كانت أقوى وأشد

---

(١) تاريخ الجبرتى جـ ٣ ص ٢٩٨ .
(٢) فصول فى الشعر ونقده ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

منها فى الآداب ، والعلم كما نعرف لا يؤثر كثيرا فى الشعر وانما الذى يؤثر فى الشعر هو الأدب ، وطريق نهضته فى عهد محمد على وخليفته عباس وسعيد لم يكن معبدا ، لأنهم لم يهتموا بالشعراء ، ولا باللغة العربية ، لأنهم فى الحقيقة كانوا تركا فى ثياب مصرية • فكان الشعر كاسدا فى سوقهم لعدم عنايتهم به ، وعدم فهمهم للغته ، فضلا عن تذوقه •

وكان الناس منساقين بطريقة أو بأخرى الى مجـاراة الحكام ، ومحاولة الترقى فى الأعمـال الجديدة التى كان مقياس التقدم فيها اجادة اللغـة التركية ، لذلك كان الذين يميلون الى الشعر قراءة أو دراسـة قلة ضئيلة ، وعده كثيرون من الناس لهوا لا حاجة لهم به ، واستمر ضعف اللسـان العربى ، وتراجعه طوال هذه الحقبة من عصر النهضة حتى نهاية عهد عباس الأول ، ونتج عن هذا خلو المجتمع المصرى من وجود شاعر مجيد ، ولم يظهر بعد الخشـاب والعطار شاعر له وزن أو ثقل • فقد جاء بعدهما الشيخ محمد شهاب الدين والسيد على الدرويش ، وشعرهما لا يعلو مطلقا عن شعر سلفيهما ، بل ربما ينزل عنه درجات(١) ، وكان لابد من أحداث قوية ورجفات عنيفة تفك عن الشعر أغلاله وقيوده ، وكانت هذه الرجفات والأحداث كما يقول الدكتور شوقى ضيف : « قد بدأت تعمل عملهـا فى الأرض الصلبة الغليظة ، ومن أهم صورهـا وألوانها أن مطبعة بولاق أخذت تخرج للأدباء كتبا قديمة غير مسجوعة ، ولا مطرزة بفنون البديع ومحسناته ، كما أخذت تخرج بعض الدواوين القديمة التى تخلو خلوا تاما من مصطلحات البديع ومصطلحات العلوم فضلا عن حساب الجمل وما يتصل به من لف ودوران فى الألفاظ ، فكان ذلك عجيبا للأدباء ، اذ رأوا وراء أسجاعهم وفنون بديعهم وتمارينهم الشـعرية صورا أخرى للعربية لم يكونوا يعرفونها ولا كانوا يظنونها ، فهذا ابن المقفع يكتب « كليلة ودمنة » بلغة سهلة لا تكلف فيها ولا تصنع ، وانما فيها الانطلاق والاسترسال ، والانفكاك من كل ما يعوق الأسلوب أو يعثر بمعانيه(٢) ، وكذلك وجدوا

---

(١) انظر تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر لشـيخو ج ١ ص ١٩٩ وما بعدها •

(٢) فصول فى الشعر ونقده ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ •

شعر القدماء من الجاهليين والاسلاميين والعباسيين لا تطغى عليه أى زينة لفظية ، ولا يستر معانيه أى مصطلح علمى ، فأدركوا أن وراء شعرهم الآسن شعرا حيا فيه نضرة وجمال ، فزهدوا فيما كانوا يصنعونه ، وبدأوا يتنسمون هواء العربية النقى الذى يملأ السهول والرياض بالخصب والجمال ، وتولى اسماعيل الملك سنة ١٨٦٣ م والنفوس قد استعادت توازنها أو كادت ، وبدأت العقول تتفحص ما كانت تعيش عليه من ضآلة وتخلف ، وتتطلع فى اصرار الى تخطى هذه الحواجز التى سجنت داخلها ، والانطلاق الى عالم الجمال والروعة الذى أوحت وتوحى به العربية منذ فجر تاريخها وساعدهم على هذا رغبة اسماعيل فى العلم واقدامه على احياء النهضة التعليمية ، وفتح المدارس العليا ، وارسال البعوث ، وعنايته بالطباعة والصحف ، والمجلات ، وتشجيعه للأدباء والشعراء ، والاحتفال بهم فى مجالسه ، مما جعل الكتاب يحرصون على تجويد أساليبهم ، ويتنافسون على أن تصبح أساليب سهلة فى متناول الجماهير ، وعلى رأس هؤلاء الشيخ محمد عبده وغيره من كتاب « الوقائع المصرية » ، كما اتجه الشعراء الى ذلك أيضا ، وحاولوا مجاراة الكتاب ، وتخطى التعقيدات التى نزلت بهم وبأشعارهم ، وظهرت جماعة على رأسها على أبو النصر ومحمود صفوت الساعاتى ، وعبد الله فكرى ، وعبد الله النديم ، وعلى الليثى استطاعت أن تغير فى صناعة الشعر ، وأن تجدد فى أساليبه وأنغامه ، وأن تبتعد به عن حساب الجمل والألغاز والمحسنات البديعية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوه شعرا معبرا عن آمال الناس وآلامهم ، ولا أن يجعلوه مصورا لشخصياتهم وأهوائهم وميولهم ، حتى يكتب له البقاء ، ولذلك نسيه الناس أو تناسوه ، بل وحرص بعضهم على عدم نشره وابادته ، كما عرف عن الشيخ على الليثى أنه لعن من ينشر ديوانه المخطوط ، وأن « عبد الله النديم » أراد أن يحرق ديوانيه الصغير والأوسط ، فهؤلاء الشعراء جميعا كما يقول الدكتور شوقى ضيف : « على الرغم من تخلصهم من ألعاب الدرويش والشيخ شهاب لم يكونوا تعبيرا سليما ولا تاما للأحداث والهزات التى أصابت أدبنا فى القرن الماضى ، فقد قصروا تقصيرا عن حمل المهمة ، ولم يستطيعوا أن يفهموا صناعتهم على أنها ينبغى أن تكون شيئا طبعيا حرا ، لا دخل للبديع ولا للتخميس والتشطير فيه ،

ولا دخل لحساب الجمل وأرقامه . فظلوا يبدئون ويعيدون فى صور محفوظة ، وظلوا يكررون ويرددون الأساليب الملتوية الموروثة »(١) .

وكان لابد أن تضع العربية وليدا — بعد أن بعثت من جديد وأن يرضع هذا الوليد لبانها ، ويشم مع عبير الحياة أنفاسها ، ويشب بين رياضها وأزاهيرها ، فتمتلىء نفسه بها ، وترتوى مشاعره من حياضها ليرسلها بعد ذلك أنغاما حلوة تشجى النفوس ، وألفاظا رقيقة تهذب الوجدان ، ومعانى سامية تربى الخلق ، وتتصل بالحياة ، وتتفاعل مع نبض الوجود ، وحركة المجتمع ، وتغير الناس .

وطال الانتظار ، ولم يأت الوليد ليواكب حركة التاريخ ، وانطلق الناس يثبون الى كل شىء ، الا اللغة والأدب والشعر ، فقد كانت حركتهم اليها بطيئة ، وسيرهم نحوها كالسلحفاة ، ترى سائرة ولكنها لا تطوى من المسافات الا القليل . وبدا الطريق فى بعض الحالات متعرجا ينساب من جهة فيسرع الأدب واللغة ، ويتعثر الشعر بين هضابه ووديانه ، ولكنه فى كلتا الحالتين طريق وعر ضيق المسالك حتى أراد الله أن يبزغ نجم هذا الوليد القادر على تذليله ، وتخطى صعابه فكان محمود سامى البارودى الذى ولد سنة ١٨٣٨ م وتخرج فى المدرسة الحربية سنة ١٨٥٤ م وسافر الى الآستانة ، ثم التحق بخدمة اسماعيل وتقلب فى مناصب الجيش والقصر ، وشارك فى الثورة العرابية ، كما شارك قبلها فى حروب الدولة العثمانية بكريت وفى البلقان ، وحوكم مع من حوكموا عقب ثورة عرابى ، ونفى الى « سرنديب » ، حيث مكث بها سبعة عشر عاما ، ثم عاد الى مصر حينما صدر عفو عباس عنه ، ولم يلبث طويلا حتى توفى سنة ١٩٠٤ م بعد أن كان قد أعاد الى العربية رونقها والى الشعر جماله ، والى الرجولة والشهامة عزتها ، وعبر الطريق الصعب لينطلق بعده السالكون بلا عثرات أو توقف .

* * *

٢ — التجديد :

نستطيع أن نقول فى ثقة — بعد هذه الرحلة الطويلة ، عبر الحياة المصرية منذ الاحتلال التركى حتى الاحتلال الانجليزى — إن الشعر

---

(١) فصل فى الشعر ونقده ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

كان متوقفا عن الحياة فى بعض الأحيان ، وينبض بها فى أحيان أخـرى ولكنه نبض المريض العاجز الذى لا يستطيع أن ينفع أو يؤثر فيما حوله ، وأنه ظل كذلك حتى بعد بدء النهضة العلمية والفكرية والاجتماعيه فى مصر بعد الحملة الفرنسية ، ولم يستطع بأى حال من الأحوال أن يخرج من نطاق التصنع الممل ، والتقليد المخل ، والاسفاف فى المعانى حتى بدأ البارودى يدلى فيه بدلوه ، فجاء شعره قصة بديعة مليئة بالظلال والالوان عن حياته فى الحرب ، وفى السلم ، فى الطفولة والشباب والرجولة ، فى مراتع الصبا ، ومجالس الحكم ، ومجتمعات الأدب ، بين حلوان والروضة وملاهيهما ، وفى النفى وعذابه ، والتشريد وآلامه ، كل وحدة فيه ، وكل قصيدة تعد تجربة نفسـية خاضهـا الشاعر ، وانفعل بها فجرت على قلمه تعبيرا سالت على شباه تصويرا لا التواء فيه ولا غموض فى نظم حفل بالعواطف والأحاسيس ، واهتم بالمشاعر والمواقف والقضـايا الانسانية فكان الفرق بينه وبين العصريين من الشعراء كالفرق بين الشجرة المظلة المثمرة ، والشجرة التى لا ظل لها ولا ثمر ، فكلتاهما موجودة ولكن شتان بين هذه وتلك ، وبدأ الناس لأول مرة يقرأون فى شعر البارودى شعرا ليس فيه حسـاب الجمل والمهارات الهندسية ، والبديع المصطنع ، بل هو فيض من القلب ينطلق كالسيل الجارف من غير حدود أو قيود ، وأدركوا من خلاله معنى الالهام الذى لا يمكن أن يوجد فى كل الطباع ، والذى ليس صناعة تتعلم ، وانما هو سليقة وطبع ، وقد عبر البارودى نفسـه عن هذا بقوله : « ان الشعر لمعة خيالية يتألق وميضهـا فى سماوة الفكر فتنبعث أشعتها بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدى بها السالك »(١) • وكانت طريقته فى صناعة الشعر وفكرته عنه جديدة على أهل عصره فى الأسلوب والمضمون ، كما جاءت كل قصائده تعبيرا حرا طليقا عن انفعالاته وحوادثه ، وتجاربه النفسية على عكس ما كان معهودا فى عصره ، ولذلك عد ـ بحق ـ رائد الشعر العربى الحديث ، وصاحب الثورة الكبرى فى تاريخ الشعر فى القرن التاسع عشر ، ومن المعروف أنه لم يتعلم العروض أو النحو أو البديع وانما قال الشعر عن سليقة ملهمة وحافظة واعية ، وبصيرة دقيقة ، ودراية بأشعار الجاهليين والاسلاميين والأمويين والعباسيين ، ويقول

---

(١) انظر مقدمة ديوان البارودى جـ ١ ص (ب) •

عنه الشيخ حسين المرصفى : « انه لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع الى بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرته ، حتى تصور فى برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسب ما تقتضيه المعانى والتعليقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ، وسمعته مرة يسكن ياء المنقوص والاسم المعتل بها منصوب ، فقلت له فى ذلك ، فقال : هو كذا فى قول فلان ، وأنشد شعرا لبعض العرب ، فقلت : تلك ضرورة ، وقال علماء العربية انها غير شاذة . ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم . حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها ، واقفا على صوابها وخطئها ، مدركا ما ينبغى وفق مقام الكلام وما لا ينبغى ، ثم جاء من صنعة الشعر باللائق بالأمراء »(١) : أى : ان صناعة الشعر عند البارودى ترجع فى أصلها الى الالهام ، وتقليد فحول شعراء العربية من أمثال امرىء القيس والنابغة ، وحسان بن ثابت ، وبشار ، وأبى نواس ، والمتنبى والشريف الرضى وغيرهم ممن حافظوا على جمال العربية ورونقها ، وعذوبة ألحانها . وحلو جرسها ، فصناعة الشعر عنده ألفاظها ومعانيها ترجع الى النماذج الفنية القديمة ، وترفض فى اصرار القوالب العصرية المصطنعة والمعقدة التى لا صلة للعربية الأصيلة بها ، ديوانه حافل بمعارضاته لأبى نواس ، والمتنبى ، والنابغة ، والشريف الرضى ، وأبى فراس ، وابن النبيه ، ولا تكاد تجد فرقا بين قصيدته ، وقصيدة أى شاعر من هؤلاء من حيث السبك والنغم ، واختيار اللفظ ، وحسن المعنى ، بل ربما تفوق على بعضهم فى المعانى التى أسبغ عليها فكره الناضج وتجربته الحية جمالا ورقة لم يعرفها العرب الأوائل ، وأما قصائده الأخرى فى غير المعارضات فانها تدل على أن شخصيته لم تذب فى هؤلاء الكبار ، وأن تجاربه الواسعة لم تنقرض فترتد الى تجارب الآخرين ، وانما هى شخصية العصر وتجاربه وآلامه وآماله تحيط به من كل جانب ، وتدفعه الى طرح أقواله وأنغامه مصورة لكل

---

(١) انظر الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى جـ ٢ ص ٤٨٩ وما بعدها طبع سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م القاهرة .

خلجة من خلجات مجتمعه ونفسه ، فهو اذن ليس مقلدا ذابت شخصيته وانطبعت عليه سمات المقلدين ، وانما هو مهتد ومستضيء بهم عبر ظلاله وخيالاته وأحلامه مع بناء فكره كله على تجاربه وعصره ، لذلك كان شعره كله تعبيرا حيا عن الروح المصرية المتوثبة فى عصره ، وصورة ناطقة عن الطبيعة المصرية ، والثورة العرابية وما صاحبها من قلق واضطراب فى نفوس المصريين ونفسه ، وفيه وقفات عند آثارنا الفرعونية ورحلات عبر آلام النفس المصرية بعد الهزيمة والاحتلال ، والنفى والتشريد فهو بهذا كله قد بعث الشعر العربى من رقاده ، وأعاد له حياته ، ونفخ فيه من روحه ، وأصدر فيه عن أعماق نفسه وأعماق وطنه ، ولا شك أن ذلك كله يعد بمقاييس ما كان سائدا فى عصره تجديدا • وهو — وان كان فى رأينا تجديدا يعود الى الأصول الأولى — يعد استيعابا للوعى الفنى ، للنفس العربية الخالدة بجانب النفس المصرية الحاضرة ، ويثبت بقدراته وموازينه أن التيار العربى عاد الى بنيه ليصل ما انقطع ، وليحرك المشاعر القومية التى عدا عليها المستعمرون ، وحاولوا طمسها عبر قرون مظلمة طويلة •

وكان حرص البارودى على اكتمال جوانبه الفنية يدعوه كثيرا الى التأمل والنظر فيما أبدعته قريحته من قصائد ، فيعود اليها كلما سنحت له الظروف ليجود أسلوبها ، ويهذب ألفاظها ، ويرقق معانيها ، ويؤلف بين جوانبها ، كما كان يفعل أسلافنا فى حولياتهم وغيرها من قصائد المنافسة والمناجزة فى سوق « عكاظ » ولذلك جاءت صياغته متوازنة وموازية للشعر العربى فى أزهى عصوره ، ورأينا منه أبياتا كثيرة بل قصائد كأنها عمد تشق أعنان السماء ، ومعنى ذلك أنه مع ما توافر له من الهام وشفافية نفس اتصل بأسرار مهنته اتصالا دقيقا ، فعرف كيف تؤلف الألفاظ وتجود الصياغات ، وكيف يضم بعضها الى بعض وكيف تسوى ، حتى يتكون القصيد ويتكامل بناؤه من غير ضعف ولا هنة ، ومن ينظره فى ديوانه يلاحظ ذلك واضحا ، فمن المعروف أنه لم يجمعه وينشره على الناس الا فى أخريات أيامه ، وأن قلمه قد مس الكثير منه بالتعديل والتغيير ، مما يدل على أن كل كلمة فيه جاءت نتيجة كفاح وجهاد طويل فى الصناعة والفكرة ، والذى يعود اليه والى ما جاء منه فى كتاب « الوسيلة الأدبية » للمرصفى يرى مظاهر التفتح والتعديل التى أجراها فى كثير من الأبيات والقصائد حتى تستوى

أجزاؤها وتتآلف ألفاظها ومعانيها قبل أن يطبع ديوانه ، وهذا يدل على أن البارودى رجع الى قصائده ، وفحصها بعين بصيرة قبل أن يضعهـا فى الديوان ، وأنه كان يرفع كلمة ويضع أخرى ، أو يزيل شطرا ويأتى بغيره ، أو يحور ويغير البيت كله ، أو يأتى بأبيات جديدة لم تكن موجودة فى الأصـل ، ولم يكن هذا كله معروفا قبل البارودى ، لأن من كانوا قبله اتخذوا من الشـعر صناعة للهندسة والحسـاب والتاريخ ، ليس فيها كلها بحث عن الجوانب الفنية كما جعلوا التزيين بالبديع والتحلية بضروبه كل غايتهم ، ولذلك وقفت همتهم للحصول عليه مهما نبا اللفظ أو تعثر ، ولهذا كان البارودى مجددا فى الصياغة ، والبناء ، والمعـانى والأفكار والأساليب حتى فى النظر والتأمل بالنسبة لأبناء عصره .

ونستطيع أن نلاحظ صحة ما ذهبنا اليه بالرجوع الى « الوسيلة الأدبية » وديوان البارودى فقصيدته التى عارض فيها أبا فراس مس التعديل بعض أبياتها حين أثبتها فى الديوان حيث يقول(١) :

وخيـل يعم الخافقين صهيلها نزائع معقـود بأعرافها النصر

فقد جاء بكلمة « يعم » بعد أن كانت فى الأصـل « يرج »(٢)

ومن القصيدة نفسها جاء فى الديوان(٣) :

أقاموا زمانا ثم بدد شـملهم ملوك من الأيام شيمته الغـدر

وقد كان فى الأصل(٤) :

أقاموا زمانا ثم بدد شـملهم أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

فقد نزع الشـطر الثانى كله من البيت ، وهذا يدل على أنه نظر اليه فلم يجده مستقيما من حيث اللفظ والمعنى ، فأتى بغيره ، وهو بلا شك أكثر جمالا ورقة وعذوبة لفظ .

وفى قصيدته الدالية التى صور فيها حنينه الى مصر حين كان يقاتل مع الجيوش العثمانية فى البلقان أجـرى تعديلا فى بعض الأبيات

---

(١) انظـر ديوان البارودى جـ ٢ ص ٤٣ ط دار المعـارف بمصر ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م .

(٢) انظر الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤١٤ طبعة سـنة ١٢٩٢هـ ـ ١٨٧٥م ـ القاهرة .

(٣) ديوان البارودى جـ ٢ ص ٤٣ .

(٤) الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤١٤ .

بحذف شطر بكامله ، وبعض الكلمات التى وجدها نابية غير موحية حيث جاء فى الديوان قوله(١) :

ومن شيمى حب الوفاء سجية وما خير قلب لا يدوم له عهد

وقد كان فى الأصل(٢) :

ومن شيمى حب الوفاء ولم يكن ليخلص ود لم يحطه الوفا بعد

فقد أزال كلمة « ولم يكن » وهى حقا ثقيلة على اللسان وغير موحية كالكلمة التى جاء بها بديلة عنها « سجية » ، وغير الشطر الثانى كله بآخر أكثر جمالا وعذوبة وحسن جرس ، وفى القصيدة نفسها تعديل فى سبعة أبيات أخرى يخالف نصها ما جاء فى الوسيلة(٣) ، كما غير فى الديوان مطلع قصيدته التى عارض بها أبا نواس حيث قال(٤) :

أبى الشوق الا أن يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير
وهل يستطيع المرء كتمان لوعة ينم عليها مدمع وزفير

وقد كان مطلع القصيدة فى الأصل(٥) :

تلاهيت الا ما يجن ضمير وداريت الا ما ينم زفير
وهل يستطيع المرء كتمان أمره وفى الصدر منه بارح وسعير

---

(١) ديوان البارودى جـ ١ ص ٢١٣ .

(٢) الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤٩٨ ـ ٥٠٠ .

(٣) وصاحب الوسيلة الأدبية هو الشيخ حسين المرصفى (حسين ابن أحمد المرصفى) عالم لغوى أديب ضرير ، تخرج فى الأزهر ، وتعلم اللغة الفرنسية ، ونبغ فى علوم العربية وآدابها ، ثم اشتغل بالتدريس فى الأزهر ودار العلوم ، وهو يعد من الأفذاذ الذين ردوا على اللغة العربية فى العصر الحديث ما كان لها من البهاء فى العصر القديم ، ومن تلاميذه وأصحابه الذين انتفعوا بفضله وأدبه : حفنى ناصف ، البارودى ، عبد الله فكرى ، ومن مؤلفاته المطبوعة « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » جزءان جمعا محاضراته فى دار العلوم ، ونسبته الى « مرصفا » من قرى مركز بنها محافظة القليوبية . توفى سنة ١٣٠٧هـ ـ ١٨٨٩م ـ انظر حاشية ديوان البارودى جـ ١ ص ٢٠٩ .

(٤) ديوان البارودى جـ ٢ ص ١٨ ، ٢٦ .

(٥) الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩ .

فقد محا البيت الأول كله ، وأتى بآخـر أكثر جمالا ورونقا ، وأحسن سبكا وايقاعا ونغما • واستبدل فى البيت الثانى كلمة « أمره » وهى عامة لا توحى بحرقة الشوق ولوعته ، وأتى بكلمة « لوعـة » وهى فى ذلك مشجية وموحية ، وكذلك أزال الشطر الثانى كله من البيت الثانى وأتى بآخر أكثر ترابطا واتصـالا ، وأجمل لفظا ومعنى(١) ، ويتضح لنا نبوغ البارودى وقدراته الفنية اذا عرفنا أن ما جاء فى « الوسيلة الأدبية » من شعره وهو كثير من نظمه بين عامى ١٨٦٣ ــ ١٨٧٥م وهو بين الرابعة والعشرين والسادسة والثلاثين فى ريعـان شبابه ، وعنفوان قوته ، بعد عودته من الآستانة فى حاشية الخديوى اسماعيل فى رمضـان سنة ١٢٧٧هـ ــ فبراير سنة ١٨٦٣م ، وقبل أن يتم طبع « الوسيلة الأدبية » سنة ١٢٩٢هـ ــ ١٨٧٥م ، ففى نحو اثنى عشر عاما أخرج شـعرا كثيرا بلغ به كما يقول الأستاذ على الجارم(٢) : « قمة الجودة والاتقان فى زمانه ، وبارى به الفحول فى أزهى عصـور الأدب العربى ، فكان بحق ــ محيى القريض والأسـوة الحسنة لمن احتذى مثاله ، ونسـج على منواله » وهكذا استطاع البارودى أن يعيد الى الأسلوب العربى الفصيح عذوبته وجماله ، وأن يجعل الأدباء والشـعراء والمثقفين يعودون اليه فى يسر وسهولة ، وأن يمهد الطريق لمن جاءوا بعده ، كشـوقى ، وحافظ ، ونسيم ، ومحرم ، ومحمـد عبد المطلب ، والكاشف ، وغيرهم وغيرهم لينسـجوا على منواله ، ويوقعوا على أوتاره ، ويرددوا أنغامه ، ومع انتاجه الغزير لا نجـد فيه ضعفا أو تهافتا ، كما نلاحظ تمكنه من الفصحى ، وعدم اللجـوء الى العامية ، كما حاول بعض أهل عصره ممن أرادوا التجديد مثله • فقـد حاول محمد عثمان جلال وبعض زملائه ممن تعلموا الفرنسية وأجادوها أن يكتبوا بالعربية فلم يهتدوا الى الطريق الصحيح كما فعل البارودى ، ووقفوا وسط متاهات من سبقوهم من التصنع بالسجع والبديع وأرقام الجمل والتشطير والتضمين ، وظنوا أن هذه هى اللغة العربية الفصحى

---

(١) ومن المعـروف أن البارودى عاد الى ديوان شعره بالتنقيح بعـد عودته من « سرنديب » سنة ١٣١٧هـ ــ ١٨٩٩م ــ أى بعد حوالى ربع قرن من طبع الوسيلة الأدبية •

(٢) انظر حاشية ديوان البارودى جـ ٢ ص ٢٦ .

فهجروها واتجهوا الى العامية يحاولون عن طريقها الوصول الى المعنى الذى يدركه عامة الناس وكانوا متأثرين فى ذلك بما عرفوه عن تاريخ الآداب الأوربية الحديثة حيث كان الأوربيون فى العصور الوسطى يتخذون اللغة اللاتينية أداتهم للتعبير عن عقولهم ومشاعرهم ، وينظمون بها أشعارهم ، وينشرون آدابهم ، ولا يهتمون بلغاتهم المحلية حتى ظهرت الاستكشافات الجغرافية الحديثة فى القرن الخامس عشر ، وتغيرت الحياة من جذورها فى أوربة وتحول الناس تحولا هائلا ، وعاد كل شعب الى نفسه يبحث أغوارها ليكتشف ما فيها من عوامل تساعد على تقدمه ، وتسهل له حياته العلمية الجديدة ، وكانت اللغة من أهم هذه العوامل وأخطرها ، فاتجهوا الى لغاتهم المحلية لتكون ميدان فكرهم وفلسفتهم ، وهجروا اللغة اللاتينية • ولم ينته القرن السادس عشر حتى كانت هذه اللغات قد حلت فى أوطانها محل اللغة اللاتينية ، وأخذت مكانتها فى نفوس أبنائها ، وظهرت بها آداب رائعة لفتت الأنظار اليها ، ووجهت الباحثين الى درسها وتعميق أصولها ، ولا ينكر أحد تلك الروائع التى حفل بها الأدب الانجليزى أو الفرنسى أو الايطالى أو الألمانى فى تلك الحقبة ، وحتى وقتنا هذا •

ولكن تلك النظرة من محمد عثمان جلال ومن سار على دربه كانت نظرة خاطئة ، لأن اللغة العربية تقوم أسس بنائها على القرآن منبع الفكر الدينى ، والفلسفات الروحية والخلقية والتشريعية عند العرب والمسلمين ، ولا يمكن للهجات المحلية عند شعوب العرب أن تحل محله ، ، أو حتى تأخذه بالتحوير والتغيير ، لأن ذلك سوف يؤدى الى الانتقاص من جوهر الدين وقدرته على البقاء والصمود فوق النزول بالأسلوب العربى الى الحضيض ، على العكس من اللغة اللاتينية التى أمكن للشعوب الأوربية هجرها ، والانتقال الى غيرها مع الاحتفاظ بكل قيمهم وفلسفاتهم الدينية ، لذلك لم يكتب النجاح لمحاولة محمد عثمان جلال واستطاع أصحاب الفصحى أن يحتجوا بالقرآن الكريم ، وبنماذج الأدب العربى الرفيع ، وأن ينبهوا الى أن فى اتخاذ العامية أسلوبا للكتابة ما يجعلنا ننقض تراثنا الدينى والفنى معا ، وبهذا تمكنوا من القضاء على هذه المحاولة وايقاف قدرتها على النمو والبقاء ، وساعد على ذلك ظهور بعض الأدباء والشعراء الذين لجأوا الى الفصحى وأبدعوا فى الكتابة والشعر بها ، كالبارودى ، والمرصفى ، والشيخ محمد

عبده ، وغيرهم من كتاب الوقائع المصرية ، ومن ساروا على طريقهم فى الشعر والنثر ، واستطاعوا أن يجعلوا الفصحى مرة أخرى أداة للتعبير المطلق من القيود ، والمتصل بكل جوانب الحياة الفكرية ، والأدبية ، والاجتماعية ، والصناعية ، وغيرها من متطلبات العصر الحديث .

ونستطيع أن نقول ان أهمية البارودى فى هذه المرحلة بالذات ترجع الى أنه استطاع أن يصل الشعر بالماضى مع قدرته على تصوير الحاضر ، وهو أسلوب لم يندفع فيه صاحبه مع الجديد فى تهور ، ولا مع القديم فى غير تحفظ ، ولكنه وازن موازنة دقيقة بين القديم والجديد . موازنة تقوم على الاحياء لأصول شعرنا التقليدية دون أن تطغى هذه الأصول على حياة الشاعر ومحيطه وبيئته ومشاعره ، ومشاعر قومه وقضاياهم السياسية والاجتماعية والنفسية ، وقد تأثر بأسلوبه هذا شعراؤنا فى مشارق العالم العربى ومغاربه ، وحمله عنه فى كل قطر عربى تلامذة مختلفون ، أشهرهم حافظ ، وشوقى ، وخليل مطران ، وشكيب أرسلان ، وصدقى الزهاوى ، هؤلاء الذين أثرى الشعر العربى الحديث بروائعهم ، وحافظوا على جمال الفصحى ورونقها ، وجددوا ما استطاعوا فى الأفكار والمعانى والأخيلة والأساليب والطرق مع بقاء كل خلجة فيهم تنادى بعروبتها ، والانتماء الى الأصول والجذور العربية الأولى .

وهكذا ظهرت بوادر التجديد على أيدى البارودى ومن تبعه من الشعراء مصاحبة للشعور القومى الذى بدأ ظهور ملامحه بالثورة العرابية ، وأخذ يملأ الصدور ، ويفيض على أقطار النفس بعد الاحتلال الانجليزى ، مما جعل الشعراء يلتفتون الى ألوان الشعر العربى وضروبه وفنونه ، ويشاركون به فى تصوير آلام الشعب ، ويتحسسون مواقعهم ومواقفهم من الركب الانسانى ، ومع ظهور الحركات الوطنية لمقاومة الاحتلال ، عرفوا دورهم فى توجيهها والانطلاق بها الى غاياتها فبدأوا ينفعلون بأحداث العصر ، ويملأون أنوفهم بهوائه الطلق ، وقلوبهم بالثقة فى حياة أفضل ، فنبذوا أغراضا لم يعد العصر فى حاجة اليها ، وأساليب لم تعد تتجاوب مع ظروف الحياة ومطالبها ، وراحوا ينتقون ألوانا تلائم روح العصر وتوائم أسلوب الحياة الجديدة ، ويستسيغها طابع التغيير الذى ملأ الدنيا وانطلق فى سماء مصر .

وقد اتجه هؤلاء الشعراء أول الأمر الى مناهج التجديد منادين بالكف عن المديح والهجاء والندبة ، والمشاركة بايجابية فى كل ما استحدث من أغراض أملتها ظروف الكفاح وواقع العصر ، وتلونت دعواتهم بألوان من المذاهب الفلسفية والنفسية التى ظهرت فى الغرب والتى أصبح لها قيمة ووزن عند المفكرين والشعراء فى مختلف أمم الأرض .

وكان ظهور شوقى الشاعر المبدع فى أواخر القرن التاسع عشر بتيسير سعد للشعر العربى ، واللغة الفصحى عامة .. خاصة أن قيثارة البارودى قد خفت صوتها ، أو كاد بعد النكبات المتوالية التى حلت بصاحبها ، وهو الذى على يديه ظهرت أول فكرة للتجديد ، فقد نعى فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه — الذى صدر — سنة ١٨٩٨ م(١) على الشعراء تسخيرهم أشعارهم للمديح الذى يفل مواهبهم ويقيدها ، قال : « والحاصل أن انزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئة يجل عنها ، ويتبرأ الشعراء منها ، الا أن هناك ملكا كبيرا ما خلقوا الا ليتغنوا بمدحه ، ويتفننوا فى وصفه ذاهبين فيه كل مذهب ، آخذين منه بكل نصيب ، وهذا الملك هو الكون »(٢) .

وقد حاول تطبيق نظريته هذه فاتجه الى ضروب جديدة من الشعر منذ بدأ ملحمته الكبرى فى هذا الفن ، فنظم على ألسنة الحيوان أشعارا قلد فيها « لافونتين » الشاعر الفرنسى المعروف ، ثم انتقل على هدى ما قرأ من شعر تاريخى عند الفرنسيين الى قصيدته الرائعة « كبار الحوادث فى وادى النيل » ومضى ينظم فرعونياته الخالدة فى أبى الهول

---

(١) انظر مقدمة الجزء الأول من الشوقيات الذى نشر سنة ١٨٩٩م ، ومجلة الهلال نوفمبر ١٩٦٨م فى بحث للدكتور شوقى ضيف بعنوان (شوقى والشخصية الثنائية عند الدكتور هيكل) ، وهناك خلاف حول تاريخ نشر الجزء الأول من الشوقيات ، فالدكتور عبد الرحمن يرى أنه نشر سنة ١٨٩١م وقد ذكر ذلك فى بحث له بالهلال سنة ١٩٦٨م والصيرفى فى العدد نفسه يرى أنه نشر ١٩٠٠م ، والدكتور محمد صبرى فى مقدمة الشوقيات المجهولة ج ١ ص ٢٦ يثبت أنه طبع بمطبعة الآداب والمؤيد بمصر فى المدة ما بين سنتى ١٨٩٩ — ١٩٠٠ م .

(٢) مقدمة الجزء الأول من الشوقيات طبع سنة ١٨٩٩م ، ومجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٦٨م من ص ٩ — ١٧ .

والنيل ، وقصر أنس الوجود ، ومد بصره الى ينابيع الاسلام الثرارة فاستمد منها مدائحه النبوية البديعة(١) .

وقد تفتحت على أنغامه الحديثة ، وألحانه الجديدة ، ودعوته للابتكار أنفس الشعراء فبدأوا يتسابقون ويتلاحقون للضرب على أوتاره فى النظم والتجديد معا فدعا خليل مطران — فى مقدمة ديوانه الذى صدر سنة ١٩٠٨م — الى الوحدة العضوية فى القصيدة العربية ، ومجاراة الطبع ، ووصف الطبيعة(٢) ممهدا بذلك لفن القصص الشعرى ، وتطويع الشعر لأصول « الدراما » ومناديا بألا يكون الشاعر متكلفا متصنعا متعبدا لأشعاره ، بل يجرى على الطبع والسجية ، ويسترسل مع الفطرة النفسية .

ثم توالت دعوات التجديد بعد ذلك فنادى بخيت شاهين(٣) فى مقاله « الشعراء المحافظون ، والشعراء العصريون » الى أن يكون الشعراء عصريين ، وأن يدرسوا الشعر الأجنبى ، وينبذوا القديم وأغراضه الباطلة كالمدح والهجاء ، والأسماء القديمة ، وعدم الوقوف على الأطلال ، وذكر ديار الأحبة ، وما الى ذلك مما كان طابعا للقصيدة العربية القديمة ، ونظم نقولا رزق الله قصيدة تحت عنوان : « الشعر والشعراء » يلوم فيها الذين يتبعون أسلوب المدح والهجاء ، ويترسمون ضروب السلف وخطواتهم ، وينادى بالتأثر بالحياة العصرية والانفعال بها حتى يواكب شعرنا شعر الأمم الأخرى ويكون معبرا عن الحياة .. وفيها يقول(٤) :

ليت شعرى متى أرى شعراء الشـ رق يوما بفضلهم أغنياء
ورثوا من تقدموهم فنالوا شر ارث مذلة وشقاء
بين هجو كالسب أو هو أدنى ومديح تعده استجداء

---

(١) انظر فصول فى الشعر ونقده ص ٢٨٧ .

(٢) انظر أبو شادى وحركة التجديد فى الشعر العربى للدكتور كمال نشأت ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٦٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٤) ديوان مناجاة الأرواح لنقولا رزق الله ج ١ ص ١ — ٤ مطبعة الروايات الجديدة بدون تاريخ .

انما الشعر للنفوس غذاء أفسدوه فصيروه هباء
أيها الشاعر اتق الله واذكر أن للشعر حكمة عليا
لا تقلد فيه ولا تكلف فى المعانى مشقة وعناء
قل سلام على القديم ودعه فكفانا تقليد القدماء

وله قصيدة أخرى حول هذا المعنى ألقاها فى حفل أقيم لحافظ ابراهيم سنة ١٩١٢ م تحت عنوان « الشاعر »(١) دعا فيها الى عدم التكسب بالشعر ، وترك المدح ، ومعرفة الشاعر لدوره ووظيفته فى الحياة الأدبية والاجتماعية ونادى بالانطلاق الى الكون الفسيح ، واقتباس أسرار الجمال والفتنة منه ، وصياغتها شعرا يملأ النفوس ، ويحرك الوجدان ، ويحيى المشاعر وفيها يقول :

انما الشعر حكمة الله فينا سكنت فى العقول والأفهام
صحب الأنبياء عصرا فعصرا وتجلى على الرجال العظام
وعجيب من أمره انه يأ بى مقام الذليل فى الأقوام

ثم يخاطب حافظا فيقول :

شاعر العصر أنت تحمل مشكا ة فبدد بها سواد الظلام
أنت أعجوبة الخليقة فى الغر ب وفى الشرق سيد الأحلام
لك فى الأرض والسموات ملك هو أسمى من كل ملك سامى
مطلق الحكم أنت فيه وحر لم تقيد بسنة ونظام

وتتابعت قصائده التى تؤكد دعوته ، وتحلل غايته منها ، ففى قصيدته « الى كل شاعر » يقول(٢) :

وصف ما ترى أوعانه أنت شاعر فعقلك فى هذا وذاك امام
كذا الشعر لا ما كان وصفا مصنعا ووزنا باجهاد النفوس يقام

وقال نجيب الحداد(٣) : « ان تقديم شعراء العرب لقصائدهم بالغزل والنسيب والحكم والأمثال وغيرها مخل بالوحدة العضوية ، ويجب على شعرائنا هجر ذلك الأسلوب » .

---

(١) ديوان مناجاة الأرواح لنقولا رزق الله جـ ١ ص ٦١ ـ ٦٤ مطبعة الروايات الجديدة بدون تاريخ .
(٢) مناجاة الأرواح جـ ١ ص ٣٠ .
(٣) مختارات المنفلوطى لمصطفى لطفى المنفلوطى ص ١٣٥ وما بعدها مصر ١٩٢٨ .

وقد أخذ الشعراء — استجابة لهذه الدعوات — يجددون كل حسب قدرته فى طريقة النظم ، وفى الأغراض والمعانى ، وينشدون بطريقة أو بأخرى تحقيق الوحدة العضوية فى قصائدهم • وكلما ظهر ديوان قدم له صاحبه بما يبين نظرته الى التجديد ومفاهيمه فى رأيه سواء كان متأثرا بأشعار الغرب أو غير متأثر بها ، ولكنه يريد مسايرة الركب والعزف على أوتار العازفين •

وفى سنة ١٩٠٨م ظهر الجزء الأول من ديوان الشاعر أحمد نسيم ، وقدم له عالمان فاضلان بما يوضح موقفهم ، وموقف صاحب الديوان من التجديد وأساليبه(١) ، وأشارا الى تعريف « لامارتين » الشاعر الفرنسى المشهور للشعر ، وأخذا يعزفان على ألحانه بما يدل على تأثرهما بالشعر الفرنسى وبمواقف شعرائه واتجاهاتهم •• حيث يقولان : « سأل أحدهم « لامارتين » الشاعر الفرنسى المشهور عما هو الشعر ، فأجاب : « هو تجسيم ما يلهم به الفكر ، ويصطفيه الضمير مما فى الطبيعة من المناظر الجميلة والأنغام المتناسبة التى لا ينبو عنها السمع » وعرفه آخر بأنه « خيال يتمنى به صاحبه حياة عالية » واقتصر بعضهم فقال : « انه فن التحرير نظما » واستطردا يقولان : « وعلى ذلك يكون الشعر بحسب التعريفين الأولين هو كل كلام دل على حالة من حالات النفس نظما كان أو نثرا ، وبحسب التعريف الأخير يكون هو الكلام الموزون المقفى سواء دل على حالة من الحالات النفسية أو لم يدل • وخطأ ذلك واضح لا يحتاج الى برهان »(٢) ثم أخذا يبينان رأيهما فى الفرق بين الشعر والنظم ، والنثر ، ومن مجمل أقوالهما نلمس أول دعوة للشعر الحر أو الشعر المنثور ، وهى دعوة سبقت زمانهما بربع قرن تقريبا ، ولم يلجأ اليها الشاعر الذى قاما بتقديم ديوانه ، كما لم يلجأ اليها أحد من شعراء هذه الحقبة بل ان ديوان نسيم بجزئيه يقوم على التقليد ، واتباع ضروب الشعر التى عرفت عن العرب منذ أقدم العصور ، وحين أراد صاحبا المقدمة أن يبينا أوجه التجديد عند الشاعر وقعا فى دوامة الفهم الخاطىء لمفهوم التجديد فهما يقولان : « واليوم بدأ حضرة أحمد أفندى نسيم على هذا الدرب

---

(١) انظر ديوان أحمد نسيم ج ١ ص ٢١ صاحبا المقدمة هما القاضى عبد الرحيم (بك) أحمد والشاعر محمد (بك) هلال .

(٢) ديوان أحمد نسيم ج ١ ص (و) •

فنظم قصيدة فى أربعة أغراض وهى : « الدعوة الى الاتحاد » « والمطالبة بالمجلس النيابى » « والرد على كرومر » « والتعلق بالأريكة الخديوية » فجاءت قصيدته حافلة بالحقائق رافلة فى حلة البلاغة(١) ، وهما يقصدان بذلك أن الشاعر سار على منوال « شكسبير » و « فيكتور هيجو » ولكن الحقيقة أن نسيما ما سار الا على درب أبى نواس أو البحترى أو المتنبى أو غيرهم من شعراء العرب الأقدمين وديواناه ليس فيهما ما يدل على رأى الكاتبين وان كان الشاعر فى بعض نظمه نادى بالتجديد دون أن يحققه أو يقوم به ، وفى نهاية المقدمة قال الكاتبان(٢) : « رب انهم قد ظلموا الشعر والشعراء حقهم بحبسه فى تلك الأوزان وتلك القوافى ، واقتصارهم على كل ناظم وزان فى نسبته اليه ، فألهمهم صوابهم واهدهم سبيل الرشاد » • ومع ذلك لا نرى عند نسيم الا تلك الأوزان وتلك القوافى • وحتى فى قصيدته التى يدعو فيها الى التجديد نرى تلك الأوزان وتلك القوافى ، وذلك حيث يقول تحت عنوان « الشعراء »(٣) :

أرى كل يوم فتى شاعرا ... تلقى الفصاحة عن « باقل »
يحن الى غزل بارد ... ويمدح عصر أبى وائل
ويشتاق « ليلى » ومجنونها ... وما هو فى القوم بالعاقل
يذكرنا العيش فى شعره ... ويهفو الى «الناب» و «البازل»
ويطرى خلائق لو خيرا ... لمدوا اليه يد السائل
فيا شعراء الزمان انقهوا ... وجولوا بطرف لكم جائل
خذوا الغرب فى شعركم أسوة ... ليحيا بها الشرق فى الآجل
هزبر وشمس وبدر الدجى ... أباطيل تحلو لدى الجاهل
تعالوا فأنحوا على ظالمين ... ساسوا الشعوب بلا « كامل »

فهو — وان كان يريد التجديد فى الموضوع — تنطق كل خلجة منه قائلة : أنا شاعر قديم فى الصياغة ، وفى الأوزان والقوافى والضروب

---

(١) ديوان أحمد نسيم جـ ١ ص ٣ — ٦ ، جـ ٢ ص ١٩ — ٢١ ، وقد طبع الجزء الأول من الديوان بمطبعة الاصلاح سنة ١٣٢٦هـ — ١٩٠٨م والجزء الثانى بمطبعة الهلال بالفجالة سنة ١٣٣٠هـ — ١٩١٠م .

(٢) المقدمة ص (ح) .

(٣) ديوان أحمد نسيم جـ ١ ص ٧٩ ، ٨٠ .

وحتى آخـــر يوم فى حياته لم يقل شيئا يخالف ما عرف عن عرب القرون الأولى •

وكان على الغاياتى شـــاعرا شابا تخطى العشرين بقليـــل حين أصدر ديوانه « وطنيتى » وحاول أن يواكب حركة التجديد ، فقدم لديوانه بكلمة عن الشعر والشعراء أبدى فيها رأيه فيهما ، وأتبعهـــا بترجمة لأنشودة « المرسلييز » الفرنسية ، تلك الأنشـــودة التى صاغها الضابط الفرنسى « روجيه دى ليل » فى يونية سنة ١٧٩٢ م لتصبح حتى الآن النشيد الوطنى لفرنسة ، ويرددها الرجال والنساء والأطفال فى المناسبات الوطنية فتلهب مشاعرهم وتحرك نفوسهم كما لم تفعـــل الكلمة فى نفوس الناس من قبل • وتمنى أن يكون لمصر نشيد مثله ، وأن يتجه الشـــعراء هذا الاتجاه ، فلا مدح ولا هجاء ولا غزل ، وانما عبادة للوطن ، وتقديس لترابه ، وموت فى سبيله(١) ، وقد حاول السير على هذا فعلا فجـــاء ديوانه كله فى الوطنية والكفاح ، وسجن بسببه ، محمد فريد الزعيم الوطنى ، والشيخ عبد العزيز جاويش الكاتب الكبير ورئيس تحرير « اللواء » ، وخـــرج هو من مصر هاربا من الســـجن ، ولم يعد اليهـــا الا بعد سبعة وعشرين عاما ولكن قصائد الديوان كلها تسير على منوال الشـــعر العربى القديم ، وتعزف على ألحانه فى المطلع والمنتهى ، وتدخل فى ضروبه وأوزانه وقوافيه ، وحتى قصيدته التى تصـــور أنه أتى فيها بجديد والتى نظمها على هيئة قطع كل قطعة ذات روى خاص ، وقال عنها : « اننى فعلت ذلك حتى تسهل على الشاعر بعض الصعاب التى يصادفها فى سبيل القافية والتزام الروى فى جميع القصيدة ، وهى طريقة وسطى بين طريقة الشـــعر المرسل والطريقة القديمة ، وقد اخترت أن تكون القطعة سبعة أبيات اتباعا لاصطلاح علمـــاء العروض المعتمد فى أن القصيدة سبعة أبيات فصاعدا من بحر وضرب وروى واحـــد ، وبهذا يصح أن تكون كل قطعة قصيدة قائمة بذاتها ، وان شئت فهى قصـــائد متعددة فى قصيدة واحدة ، فعسى أن يروق ذلك لشعرائنا فيقدموا على القريض ليكون صغيرهم بعـــد احجامه وضعفه شاعرا مقداما قادرا ، ويتسنى لكبيرهم

---

(١) انظر ديوان وطنيتى ـ المقدمة من ص ١٩ الى ص ٣٨ •

أن يتحدى شعراء أوربة وبياريهم فى الشئون الاجتماعية العصرية ، فيصبح لهم فى كل معنى قول مأثور وأثر مشكور »(١) .

نعم حتى هذه القصيدة ليس فيها جديد أو تجديد فقد عرف العرب هذا المنوال ونسجوا عليه فى العصر العباسى ، واتسع نطاقه فى الأندلس ، وحين أراد أن يقدم لعمله بما يدل على التجديد دخل فى منتهى الالتزام بالقديم ، وهو اتباع رأى العروضيين فى أن القصيدة سبعة أبيات فأكثر ، والتزم به وجاءت اشارته عن تحدى شعراء أوربة ومباراتهم لتدل على أنه تأثر بالحركة الأدبية الوافدة من هناك دون وعى أو بصيرة بمضامينها ، ودون موازنتها بالشعر العربى القديم بالذات ، لأن الشعر العربى فى عصوره المختلفة لم يخل من الخوض فى الشئون الاجتماعية التى نادى بأن نطرقها مثل شعراء أوربة . والقصيدة فى الذكرى الأولى لوفاة الزعيم « مصطفى كامل » وهى تحت عنوان « رب ذكرى هيجت شجنا » وبدأ المقطوعة الأولى منها هكذا(٢) :

عجبا للقريض كيف عصانى ... ولدمع دعوته فتتاءى
كنت يوم الوفاة أول باك ... نظم الدمع والقريض رثاء

وفى المقطوعة الثانية :

ليت شعرى ماذا دهانى حتى ... جف بالأمس مدمعى ومدادى

وفى الثالثة :

أدهشتنى حياة مصر وأحيا ... أملى نشؤها العظيم الرجاء

وفى الرابعة :

مصر انى أرى أمامك يوما ... صامت القول ناطق الأفعال

وفى الخامسة :

أيها النيل هل تعود سعيدا ... ويجود الزمان بالحسنات ؟

وكل مقطوعة مكونة من سبعة أبيات كما قال وليس فيها من جديد لأننا يمكن أن نعدها خمس قصائد على رأيه ورأى العروضيين ، وأما أوزانها وموسيقاها ومعانيها وألفاظها فقديمة قدم الشعر العربى ، وان كانت مملوءة بالحماسة والوطنية(٣) .

وفى موكب التجديد هتف الشاعر الكبير حافظ ابراهيم بما لم يفعل

---

(١) وطنيتى ص ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) وطنيتى ص ٥٨ .
(٣) وطنيتى ص ٥٨ ، ٥٩ .

فقد دعا ــ فى الجــزء الأول من ديوانه ــ الشــعراء أن يفكوا عن أنفسهم القيود التى وضعوها ويستفيدوا من الغرب وثقافته ، وهو نفسه عاش ومات داخل ما أسماه بالقيود ولكنه قال ــ حتى لا يرمى بأنه تخلف عن الركب الجديد ــ تحت عنوان « الشعر »(١) :

ضعت فى الشرق بين قوم هجود ... لم يفيقــوا وأمة مكســال
قــد أزالوك بين أنس وكاس ... وغــرام بظبيــة أو غــزال
ونسيب ومدحــة وهجــاء ... ورثــاء وفتنــة وضــلال
آن يا شــعر أن نفك قيــودا ... قيدتنــا بهــا دعــاة المحــال
فارفعــوا هــذه الكمائم عنــا ... ودعــونا نشــم ريح الشــمال

وفى قصيدته التى نظمها وألقاها فى مهرجان مبايعة شوقى بامارة الشعر قال(٢) :

وخذ بزمام القوم وانزع بأهله ... الى المجد والعلياء أكرم منزع
وقفنا على النهج القويم فاننــا ... سلكنا طريقا للهدى غير مهيــع
ملأنا طباق الأرض وجدا ولوعة ... بهند ودعــد والرباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا مواقفــا ... بسقطاللوى«والرقمتين»«ولعلع»
وأقوامنا فى الشرق قد طال نومهم ... وما كان نوم الشــعر بالمتوقع

ثم قال :

ونحن كما غنى الأوائل لم نزل ... نغنى بأرماح وبيــض وأدرع
عرفنا مدى الشىء القديم فهل مدى ... لشىء جديد حاضر النفع ممتع
لدى كل شعب فى الحوادث عدة ... وعدتنــا ندب التراث المضيع
فيا ضيعة الأقلام ان لم نقم بها ... دعامة ركن المشرق المتزعــزع

ومع هذه الدعوات المتلاحقة كان مفهوم التجديد عنــد أصحابها لا يتعدى محاولة التعبير عن العصر ومشاكله وقضاياه ، وما ظهر فيه من مخترعات وأدوات حديثة لم يعرفها العرب الأقدمون ، وأما بنــاء القصيدة وصياغتها وتفاعيلها وأضربها فهى موغلة فى القدم .

ونستطيع أن نقول ان هذه الدعوات التجديدية فى الشعر ــ على بساطتها .. ومع ما صاحبها من نشــاط ثقافى وفكرى ، وحركات وطنية ،

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم جـ ١ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ . وانظر فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ ٢ ص ٣٠ .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم جـ ١ ص ١٩ ــ ١٣٠ .

واجتماعية ، وتكوين للأحزاب والجماعات ـــ أدت الى بروز الشخصية المصرية العربية ، وخلقت المثقف الواعى ، وبثت فى النفـــوس روح التحدى للعصر ومناجزة المثقفين والمفكرين العالميين ، وأطلقت الطاقات نحو العمل الخلاق المثمر الذى ظهر فى صورة منظمة بعد أن افتتحت الجامعة وبعد أن عرفت كل مجموعة من المثقفين طبيعة اتجاهاتها • مما أدى الى ظهور مدارس أدبية لها شخصيتها وطابعها ، ومدارس نقدية كذلك ، وكان من أبرز هذه المدارس « مدرسة المحافظين ، ومدرسة الديوان ، وجماعة « أبوللو » ثم شعراء التفعيلة » • ويمكننا أن نحدد فى ايجاز ملامح الثلاثة الأول لأنها تدخـــل فى نطاق المدة الزمنية التى ندرســـها وأما شعراء التفعيلة ، فلم يتضـــح منهجهم الا بعد انقضاء تلك المدة •

* * *

(أ) مدرســـة المحافظين :

يقوم منهجها على المحافظة على تقاليد الشعر العربى فى الأسلوب والصياغة والمعنى ، وجزالة اللفظ واستقامته ، ونصاعة التركيب ومتانة النسيج ، والتمسك بمقومات الشعر العربى وشخصيته(١) وقد قامت النهضة الأدبية الحديثة عند العرب على أكتاف هذه المدرسة ، وشملت كبار شعراء العصر وأشهرهم ، واستمر تأثيرها حتى وقتنا هذا ، وفى تصورى أن هذا التأثير سيستمر لعدة أجيال قادمة • ومن أعـــلامها البارودى ، وشـــوقى ، وحافظ ، وخليل مطران ، والرافعى ، ومحمـــد عبد المطلب ، وأحمد محـــرم ، وأحمد نسيم ، وعبد الحميد الديب ، وحفنى ناصف • وغيرهم من شعراء الأقطار العربية الذين كانوا يلتقون معهم فى الرأى والفكر « كالكاظمى والرصافى وبشارة الخورى »(٢) •

ولا نعنى بالمحافظة ـــ هنا ـــ التقليد ، اذ هناك فرق كبير بين المحافظة والتقليد ، لأن المحافظة أحيانا قد تكون الحرص على صلات نبيلة لا يسهل فصم عراها أو تناسيها كالمشاعر العربية المشتركة التى

---

(١) انظر محمود سامى البارودى للدكتور الحديدى ص ١٨٥ .

(٢) انظر فى الأدب المعاصر للدكتور عبد الرحمن عثمان ص ٤٨ •

تنقلها الفصحى من نفس الى نفس مهما بعدت الشقة ، واختلفت الدروب(١) .

أما التقليد ان كان للنماذج الآسنة فيعد جمودا . وان كان للنماذج الرائعة فانه يعد حفظا للتراث ، ونحن نعلم أن لكل عصر ظروفه ودواعيه ولأبنائه آمال وآلام وأحلام تختلف عن العصور السابقة ، وتقتضى التعبير عنها وتصويرها بما يناسبها ويناسب عصرها . والتجديد — كما يقول العقاد — : « لا يكون بانكار فضل العرب ، أو تعمد الخروج على الأساليب العربية ، كما أن أشياء كثيرة تكون المحافظة عليها جمودا وتخلفا عن ركب الحياة »(٢) .

وكان زعماء هذه المدرسة يمثلون هذا المفهوم خير تمثيل ، فهم يتفقون ويختلفون على أن يلتزموا بسلامة الأسلوب وصحته من حيث اللغة والاعراب ، والسير على نهج القصيدة العربية ، ويختلفون فى التصوير والموسيقى والمعانى التى تحددها وترسم أبعادها ثقافة كل شاعر واتجاهاته . فشوقى ومطران يلتقيان عند الرغبة فى التجديد المتأنى مع الحرص على القديم ، ويظهر عليهما أثر الثقافة الفرنسية وتأثرهما بشعرائها « الرومانسيين »(٣) ، وأما حافظ فثقافته عربية خالصة ، وليس له من الثقافة الفرنسية أو غيرها الا أطراف لا تلهمه شيئا فى باب التجديد(٤) .

وبعض شعراء هذه المدرسة فهم المحافظة فهما خاطئا اذ تصور أنها العودة الى تراث الأقدمين ، والضرب على أوتارهم ، وترديد مضامين شعرهم وأفكارهم ، فحاكاهم فى ذلك محاكاة نقلته من عصره الى عصر آخر لا يتفق معه ولا يدل عليه . وتصور أنه بذلك من المحافظين ، وهو فى الحقيقة جمود وتكرار ، وفقر وضآلة ، وتقليد عاجز عن الابداع والانطلاق .

وقد أدى ذلك الى وقوعهم تحت أغلال قواميس لغة الشعر القديمة وأوزانه ، فأصبحوا تقليدا للتقليد ، وحملة لتعابير ورسوم القدماء

---

(١) المرجع السابق ص ٥١ .

(٢) ساعات بين الكتب للعقاد ج ١ ص ٢٠٣ الطبعة الثانية دار الكتاب العربى بيروت سنة ١٩٦٩ .

(٣) الأدب المعاصر ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للعقاد ص ١٧ .

من غير وعى أو الهـام كما فهمها بعضهم على أنها نهج من سبق من الموثوق بجميل شـعرهم وصدقه ، فألغـوا بذلك أنفسهم وراحوا يستفتحون بذكر الدمن والشـكوى والبكاء والنسيب وألم الفراق ، وسرى الليـل ، وأنضـاء الراحلة والبعير(١) وحسبوا هذا تجديدا ، وهم فى الحقيقة أول المقلدين كما تصـور آخرون أن نقل صور المـاضى بما فيه ومن فيه هو المحافظة والثبات على المبدأ ورعاية التراث ، وهم فى الحقيقة عاجزون مضيعون لهذا الفن وأهله • وحجر بعضهم على عواطفه حتى لا تنطلق ، وعلى خياله حتى لا يبدع ، وعلى تجاربه حتى تظل بعيدا عنه فى تصوير الحياة التى يحياها ، وبذلك عاش مع الأقدمين عاجزا عن المواجَهة البصيرة بحقائق الكون والمجتمع والنفس البشرية التى هو جزء منها ، بل أخمد كل ما له من ميول طبعية الى الفضـول الذكى ، والمصارحة الطيبة ، والصدق النبيل(٢) •

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل : « ان قصائد هؤلاء قـد تعجبك ولكنها لا تلبث أن تخبو ، •• لتحل محلها الصنعة فى الشعر والتجويد والنظم لأن الالهام فيه انطبع فى نفسه من حوادث خارجة عنها(٣) أو لأنه بدا عاريا من اللحم والدم لا يثير الانفعـال ولا يوحى برؤية ، ولا يزيد عن رصد التجارب الشعورية فى نفوس الآخرين »(٤) •

ويقول العقاد : « ان بعضهم أراد أن يكون عصريا لينطلق من تقليده فراح يخدع نفسـه بوصف الآلات الحديثة والمخترعات العصرية » فنظم فى وصف الطائرة لأن الأقدمين نظموا فى وصف البعير ، ووصف المعارض الصناعية لأنها من مستحدثات هذا الزمان ، وراح يقفو أثر الصحف فى الحوادث السياسية(٥) •

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابنَ قتيبة ص ١٤ والمذاهب النقدية للدكتور ماهر حسن فهمى ص ٥٣ .

(٢) انظر بحثـا للدكتور محمد النويهى (ثورة الشـكل والمضمون فى الشعر المنطلق) مجلة الشـعر عدد أغسطس سنة ١٩٦٢ .. بتصرف وتصويب لبعض الأخطاء •

(٣) انظر ثورة الأدب ص ٦٧ ، وفى الأصل : « ولا يوحى برؤيا » وهو خطا •

(٤) انظر النقد الأدبى للأستاذ سيد قطب ص ٦٥ طبع بيروت .

(٥) انظر ساعات بين الكتب للعقاد ص ٤ ، ٢٠ ، ٢٥ •

ان هؤلاء لم يفهموا معنى المحافظة . واختلط عليهم الفهم والتفرقة بينها وبين التقليد(١) ، وراحوا يسيرون على نهج السابقين فى أغراضهم الشعرية وأساليبهم وأخيلتهم .

ومن هؤلاء حفنى ناصف ، والرافعى ، والجارم ومحمد عبد المطلب والقاياتى ، والكاظمى ، والرصافى فى العراق ، ويمكننا أن نشاهد ذلك واضحا فى أشعارهم ، وأن نراه مجسما فى معارضاتهم لشعراء العصور السالفة .

فالقاياتى يعارض أبا تمام ، والرافعى يعارض المتنبى ، ومحمد عبد المطلب يقلده ويسير على نهجه فى رثائه لفتحى زغلول ، والجارم يعارض ابن زيدون وشوقى وحافظ يبدآن بعض قصائدهما بالغزل سيرا على نهج الأقدمين ، ودواوين شعرهم ممتلئة بما يدل على وقوعهم أسرى التقليد والمحاكاة للأقدمين ، فهذا شوقى يبدأ قصيدته فى مدح الرسول بالغزل ، ويطيل فيه كما فعل حسان بن ثابت فيقول(٢) :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

ويستمر غزله فيما يقرب من خمسة عشر بيتا ، حتى يخلص الى مدح الرسول ليقول :

نبى البر بينه سبيلا وسن طريقه وهدى الشعابا

ويناجى الأطلال كالجاهليين فيقول فى قصيدته « بعد المتنبى »(٣) :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا وأجزيه بدمعى لو أثابا

وتستمر تلك المناجاة فى خمسة وعشرين بيتا حتى يدخل فيما يريد قوله :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا

وكذلك حافظ يبدأ بالغزل وهو يريد المديح ، فقد استهل قصيدته فى مدح البارودى بقوله(٤) :

تعمدت قتلى فى الهوى وتعمدا فما أثمت عينى ولا لحظه اعتدى

ويستمر غزله الى قريب من نهاية القصيدة ليقول :

أمير القوافى ، ان لى مستهامة بمدح ومن لى فيك أن أبلغ المدى

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) الشوقيات جـ ١ ص ٦٨ .

(٣) الشوقيات جـ ١ ص ٦٤ .

(٤) ديوان حافظ جـ ١ ص ٧ .

ومحمد عبد المطلب يرثى فتحى زغلول فيقول(١) :

أرى الشعر يدمى بالعيون المآقيا كفى حزنا أن تسمع الشعر باكيا

وهو بذلك يعارض قصيدة المتنبى :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وعلى الجارم يعارض ابن زيدون ويسير على نهجه فى بدء قصيدته « الحب والحرب » بالغزل فيقول(٢) :

مالى فتنت بلحظك الفتاك وسلوت كل مليحة الاك

ويستمر فى غزله أكثر من عشرين بيتا ، ثم يخلص الى مراده بتناول الحروب وما تجره من مآس وأحزان ، وما تقيمه من مناحات ومآتم فيقول :

من عهد قابيل وليس أمامنا فى الأرض غير تشاكس وعراك

ولسنا هنا بصدد استقصاء القصائد والمواقف التقليدية عن شعراء « مدرسة المحافظين » لأنها فى الحقيقة كثيرة ، بل تكاد تشمل جل دواوين بعضهم ، ولكن ما نحب أن نخلص اليه أن معظمهم — وان أراد — لم يوفق فى التجديد ، ولم تسعفه به ملكته وقدراته ، لأن روحه لم تكن بها شحنة من القوة الشعورية والفهم الصادق ، واليقين الثابت بأهمية التجديد وجدواه ، ولذلك كان التجديد فى الشعر عند مدرسة المحافظين وقفا على شوقى وخليل مطران .

أما شوقى ، فهو بلا جدال شاعر مطبوع موهوب ملك من جوانب الثقافة والمعرفة القديمة والحديثة ما جعله سيد شعراء عصره ، وأتاحت له ظروف حياته وتجاربه أن يكون بلبلا صداحا بلا خوف ولا خشية على مال أو عيال ، لأنه فى ثراء وعزة ، وموضع اجلال واكبار ، ولذلك انطلق الى التجديد بايمان ووعى ، وأفسح لفكره المبدع كى يصنع ما لم يستطع غيره أن يصنعه ، وقد بدأ — منذ حداثته — بالتوجه الى ضروب جديدة من الشعر فنظم على ألسنة الحيوان أشعارا قلد فيها « لا فونتين » الشاعر الفرنسى المعروف ، وألف مسرحيته الشعرية

---

(١) ديوان محمد عبد المطلب ص ١٠٦ ، وانظر تطور الشعر العربى ص ٧١ .

(٢) ديوان على الجارم جـ ٢ ص ١٢٧ — ١٣٣ .

الأولى « على بك الكبير » سنة ١٨٩٣م(١) ، وبعد عودته من المنفى اتجهت شاعريته الى الشعب ، فأخذ يصور عواطفه ومشاعره ، ويصدح بأنغامه وألحانه مجددا فى موسيقى الشعر ، تسعفه فى ذلك فطرة موسيقية رائعة ، وجعل ينظم الأناشيد الوطنية ، والأزجال الغنائية ، وحقق فيهما تفوقا لم يعرفه شعرنا الغنائى العربى من قبل ، ثم مضى يحقق أملا طالما راود المجددين ، اذ أدخل فيه لأول مرة فى تاريخنا « الفن التمثيلى » ومصره وعربه واتجه فيه الوجهة الخاصة التى اتجهها فى شعره الغنائى ، فكتب مسرحيات مصرية استمدها من تاريخ مصر ، وأرضى فيها عواطف العرب عامة مصريين وغير مصريين ، واستحق كما يقول الدكتور شوقى ضيف(٢) : « أن يقام له حفل تكريم يشترك فيه شعراء مختلفون من البلاد العربية ليضعوا على مفرقه تاج امارة الشعر العربى الحديث » ، وأن يظل متربعا على عرش هذه الامارة بقية حياته .

وينقل الأستاذ طاهر الطناحى عن شوقى قوله : « وجدت بعد انطواء هذه الحقبة الطويلة أن الأوان قد آن للبدء فى التأليف الروائى ، لأنى أومن أن الشعر العربى على غير ما يتهمه المغرضون يتسع للمسرح ، ولأن المسرح المصرى قد ارتقى فيما يبعث على الاعجاب ، ويبشر بالمستقبل الجديد »(٣) .

ومسرحيته « مصرع كليوباترا » : تشهد بصدق نظرته ، وعمق فهمه للغة وقدرته على تطويعها لما يريد ، فهو لم يصبها فى قوالب كما رآها شعراء التقليد ، ولكنه كان يتنقل من موقف الى موقف فى انسياب وعذوبة ، ويعثر على الأوزان والقوافى والمعانى والألفاظ التى تسعفه فى صياغة ما يريد من مشاهد وأحداث ، وذلك كله جديد على الشعر العربى ، ولنر معا هذا المشهد(٤) :

---

(١) انظر فصول فى الشعر ونقده للدكتور شوقى ضيف ص ٢٨٧ والهلال عدد نوفمبر سنة ١٩٦٨ ص ١٢ ، ١١٠ ، ١٢٦ ، ١٦٨ ومقدمة الجزء الأول من الشوقيات سنة ١٨٩٩ م .

(٢) انظر فصول فى الشعر ونقده ص ٢٨٨ .

(٣) انظر شوقى وحافظ للأستاذ طاهر الطناحى ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٤) انظر « مصرع كليوباترا » ص ٢٧ ، و « كليوباترا فى الأدب والتاريخ » للدكتور محمد حسن عبد الله ص ٣٧ ـ ٩٣ المكتبة الثقافية رقم ٢٦٧ الهيئة العامة ١٩٧١م .

أنطونيو : الهتى
الملكة : قيصرى
أنطونيو : سلطانتى
الملكة : ملكى
أنطونيو : عندى لك اليوم يا دنياى أخبار
الملكة : عجل فديتك
أنطونيو : لا .. لابد من ثمن
الملكة : كرائم المـــال ؟
أنطونيو : ما للمـــال مقدار

..يمد اليها جبينه فى ضراعة ..

ردى على هامتى الغار التى سلبت فقبلة منـــك تعلوها هى الغـــار

..تقبله ..

كليوباترا :

اليوم تعلم روما أن ضرتهـــا تقلد الغـــار من تهوى وتختار
واليوم تعلم «روما» أنفارسها جيش بمفرده فى الروع جرار
«أنطونيو»سيدى هل نحن فى حلم أسالم أنت ؟ لا أسر ولا عار

وتمضى المسرحية على هذا الايقاع الرائع ، والتصـــوير المبدع الذى كان الشعر العربى يفتقر اليه ، وعجزت عنه قدرات أجيال متعـــددة حتى سعدت هالة الشعر بشوقى فأعطته هذا الالهام ، ومنحته هذا السر الذى أغلق عن سواه .

ولقد غدا شوقى بحق المجدد الأول للشعر فى المضمون والديباجة ، والتصوير ، والموسيقى ، وهى أدوات المصور البارع والشاعر الفنان ، واذا كان الشعر لا يعدو فى حقيقته ثلاثة أشياء « المعنى والتصوير والموسيقى » فان شوقى بلحمه ودمه كان هذه الثلاثة مجتمعة .

« أما خليل مطران ، فقد مهد للشعر القصصى والشعر التمثيلى على الرغم من أنه لم يخرج بالشـــعر العربى عن قالب القصيدة الى قالب الحوار ، وذلك أنه قد طوع القصيدة لعناصر القصص والدرامة »(١)

---

(١) انظر الشعر المصرى بعد شوقى الحلقة الثانية للدكتور محمد مندور ص ١٩ ، ٢٩ .

وكان قد سبقه الى القصة رفاعة الطهطاوى(١) ولكن مطران — فيما فعل — كان متأثرا بالشعراء الصعاليك ، وقصائد ابن أبى ربيعة التى تقترب من هذا اللون ، بل ربما كانت قصيدة الحطيئة التى مطلعها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل ببيـــداء لم يعرف بها ساكن رسما

هى التى أوحت اليه بهذا اللون من التجديد ، وقد حاول فى أكثر من موقف أن يدخل الى ما يريد ، ولكنه لم يستطع أن يحقق هدفه(٢) .

كما دعا الى الوحدة العضوية ، وهذا تجديد فى شكل القصـــيدة العام بتحقيق الوحدة العضوية لها ، وحتى فى هذا نلاحظ تأثره بالأقدمين فابن قتيبة دعا الى ذلك فى القرن الرابع الهجرى(٣) قال : قيل لفلان : أنا أشعر منك قال : وبم ذاك ؟ قال : « لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه » وحتى ابن قتيبة كان متأثرا بالجاحظ وآرائه فى ذلك ، فقد تحدث الجاحظ عن التلاحم والتوافق وعن البيت وأخيه ، وغير ذلك .. مما هو أسس الوحدة العضوية(٤) ، ودعا مطران الى امتزاج الشاعر بالطبيعة امتزاجا وجدانيا يصـــل الى حد انصهار النفس وذوبانها فى مشـــاهدات الطبيعة التى تملأ الدنيا بالجمال والحركة ، والايقاع والنغم(٥) ، وقد حاول ذلك فى قصيدته « المســـاء » — حيث كان يناجى حبيبته بخواطر منوعة متواكبة ، ويصور مشعة قوية ممزوجة بألوان الطبيعة — فقال(٦) :

قلب أذابته الصبابة والجـــوى وغـــــلالة رقـــت من الأدواء
والروح بينهما نسيم تنهـــد فى حالى التصـــويب والصعداء

---

(١) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٧١ ط ٤ .
(٢) فى الأدب المعاصر ص ٥٤ .
(٣) انظر موسوعة الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الأســتاذ أحمد شاكر . القاهرة دار احياء الكتب العربية سنة ١٣٦٩هـ — ١٩٥٠ .
(٤) انظر اتجاهات وآراء فى النقـد الحديث للدكتور محمد نايل ص ٧١ دار المعارف سنة ١٩٦٦ .
(٥) انظر فن الشعر للدكتور محمد مندور ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٦) انظر ديوان الخليل ج ١ ص ١٤٤ — ١٤٦ طبعة دار الهـلال والشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث مصطفى الســحرتى ص ١٠٣ — ١٠٤ — مطبعة المقتطف سنة ١٩٤٨ .

والعقل كالمصباح يغشى نوره كدرى ويضعفه نضوب دمائى
ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء
وخواطرى تبدو تجاه نواظرى كلمى كدامية السحاب ازائى
والشمس فى شفق يسيل نضارة فوق العقيق على ذرا سوداء(١)
مرت خلال غمامتين تحدرا وتقطرت كالدمعة الحمراء

ولا شك أن هذا المنحى فيه تجديد فى المضمون والديباجة للقصيدة العربية ، وأنه أفسح للشاعر مجالات التعبير عن الذات ، وعن حركة الحياة وما فيها من صخب وضجيج ، ولين وقسوة ، ومهد لمن جاء بعده من الشعراء وسيلة الخروج على شعر المناسبات ، والانغماس فى صور الحياة وأشكالها وألوانها ، كما أنه نوع أيضا فى الأوزان فى القصيدة الواحدة وحذا حذو الموشحات ، وأراد أن يخوض مجال الشعر المنثور ، ولكنه عدل عنه(٢) حتى لا يرمى بالضعف ، أو يتصور أحد النقاد أن هذا طريق لاسقاط نظام القصيدة العربية ، والتحلل من أوزانها — وكان فى كل هذا متأثرا بالأدب الغربى ، بل لقد ذهب بعض الدارسين الى أنه أخذ الكثير منه لفظا ومعنى(٣) ، ومع هذا عد هو وشوقى من أبرع شعراء التجديد فى مدرسة المحافظين .

ويقول عنه الدكتور زكى مبارك : « هو شاعر مبدع ، ومن المكثرين ، وله وثبات لا ينهض بها الا الفحول .. وهو تحفة من تحف الذوق والوفاء .. خصب الذهن ، مثقف العقل ، مرهف الاحساس ، وكان الناس يسمونه « شاعر القطرين » فلما مات شوقى سموه شاعر الأقطار العربية ، مع أنه من أزهد الناس فى الألقاب ، وقد تولى رياسة جمعية « أبوللو » فى مصر بعد شوقى وهى جمعية شعرية أثرت أبلغ التأثير فى الشعر الحديث ، ومن أقطاب هذه الجمعية الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، والدكتور ابراهيم ناجى ، وهما من أكثر الناس تغنيا بالشعر بين أدباء هذا الجيل »(٤) .

وقد استطاع هذان الشاعران شوقى ومطران أن يوجها الشعر

---

(١) هذا خطأ من الشاعر ، والصواب : سود .
(٢) فى الأدب المعاصر ص ٥٦ .
(٣) فى الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٨١ .
(٤) الموازنة بين الشعراء للدكتور زكى مبارك ص ٢٩٠ دار الكتاب العربى . القاهرة سنة ١٩٣٦ .

العربى الحديث وجهة جديدة ، حفلت بالتغيير فى الموضوعات والأفكار والأوزان والموسيقى ، ومهدا الطريق للخروج على القوالب المألوفة التى كان النقاد يتصورونها تسابيح وترانيم مقدسة ، ويعتقدون أن الخروج عليها كفر والتزيد فوقها الحاد وشرك ، وبهذا أصبح الباب مفتوحا لمن يرد الابداع والتجديد .

ولما كانت هذه الحقبة مليئة بالحركة والنشاط فى كل مجالات الحياة بمصر — خاصة فى الأدب والشعر — ظهرت مدرسة جديدة لها طابعها وشخصيتها ومميزاتها ، وهى :

(ب) جيل المذهب الجديد فى الشعر :

وكان ظهورها بصورة ذات تأثير وفعالية حين ظهر كتاب « الديوان فى النقد والأدب » لزعماء هذه المدرسة « العقاد ، والمازنى »(١) وعند ظهورها كان الشعر محل رعاية وعناية من جماعات من الشعراء المحافظين .. تسهر عليه وتقوم على شئونه ، وتحافظ على نهجه ، ولكنهم كانوا مختلفين فيما بينهم ، فمنهم من فهم المحافظة فهما خاطئا فوقف عند تقليد القدماء ومعارضتهم .. ، ومنهم من أراد أن يكون عصريا فأخذ يصف الآلات والمخترعات الحديثة كما كان الأقدمون يصفون الناقة والبعير ، وارتفعت همة آخرين منهم فأخذوا يجددون فى الصورة والشكل والأسلوب الشعرى ، ونظموا المسرحيات والملاحم والقصص واتجهوا الى الطبيعة يغترفون منها ما يملأ الروح والوجدان ، وتثرى به المشاعر والقلوب والحواس ، واستطاعوا بما وهبوا من فصاحة وبلاغة أن يطوعوا اللغة لأغراضهم ومقاصدهم وأن يجعلوها مشرقة ذات جرس حلو ، ورنين عذب .. بعد أن كانت بلا صوت ولا حركة عند من سبقهم من شعراء القرن التاسع عشر .

وقد نجحوا فى فتح ميدان آخر كاد — قبلهم — يكون معدوما

---

(١) لم يظهر من الديوان فى النقد الأدبى الا جزءان طبع أولهما فى يناير وثانيهما فى فبراير سنة ١٩٢١م وأعيد طبعهما بعد شهرين — انظر الديوان بجزأيه ط ثالثة مطبعة الشعب بالقاهرة — ويذكر عبد المعطى حجازى فى بحثه « شوقى رومانتيكيا » المنشور فى مجلة الهلال نوفمبر ١٩٦٨ والخاص بشوقى فى ذكراه ص ١٠٧ أن الديوان ظهر سنة ١٩٢٠م .

وهو ميدان النقد ومع أنه هو الآخـــر كان تقليـــديا يناجز من بعيد باللمحة والاشارة .. سار موازيا لحركة البعث فى الشعر .

وكان من زعمائه الشيخ حسين المرصفى(١) ، والشيخ حمـــزة فتح الله(٢) وشكيب أرســـلان والمنفلوطى وغيرهم ممن عكفوا على دراسة علوم اللغة وأصولها وحاولوا الاتجاه الى النقد والتجديد فيه ، ولكنهم اتبعوا أسلافهم من نقاد العصر العباسى ، وساعدت الصحف والمجلات على انتشار حركة النقد وتنوعها ، فما ان يظهر كتاب أو قصيدة حتى تمتلىء الصفحات بالنقد والتحليل لمـــا كتبه الكاتب ، أو نظمـــه الشـــاعر فتجد وجهة نظـــر لغوية وأخرى فنية ، وثالثة تاريخية ، ورابعة أدبية ، ويشتد الحوار ، وتكثر المجادلات ، وتثور المعارك(٣) .

وبجانب هؤلاء ظهرت جماعة أخـــرى من النقاد المتأثرين بالآداب الأوربية والنظريات « الرومانتيكية » فى الشعر وعلى رأسهم روحى الخالدى ، بمقالاته الشهيرة فى مجلة « الهلال » وكذلك كتابه « الأدب عند الافرنج والعرب » الذى ظهر سنة ١٩٠٦م وكان له تأثير كبير فى توجيه الشعر نحو غايات ومثل عليا(٤) وكان معه فى الميدان نجيب الحداد ، وخليل مطران ، وسليمان البستانى(٥) ، وقد استطاعوا جميعا أن يوجهوا أنظار الشعراء الى مفاهيم وآراء جديدة فى الشعر ، وأن يضعوا أقدامهم على أول الطريق الصحيح الى الارتقاء بالقصيدة العربية مع المحافظة على قيمها اللغوية والفنية والموسيقية .

وتبع هؤلاء وأولئك بعض أعلام فى النقد والأدب ، لم يقتصر فكرهم

---

(١) انظر ترجمة عنه من هذا البحث .

(٢) ولد سنة ١٨٤٩م وتوفى ١٩١٨م معجم المؤلفين ج ٤ ص ٨٠ عمر رضا كحالة .

(٣) انظر فيض الخاطر لأحمد أمين ج ١ ص ٣٥٥ ط رابعة مطبعـــة النهضة المصرية .

(٤) كان روحى الخالدى يعمل قنصلا فى فرنسا من قبل حكومة الأستانة ، وكان شغوفا بالأدب الفرنسى ، وقرأ لفيكتور هوجو زعيم الرومانتيكية وغيره من أدباء فرنسا وتأثر بهم وأخـــذ يراسل الهـــلال ويكتب فيه المقالات من سنة ١٩٠٢م حتى وفاته سنة ١٩١٣م (ولد سنة ١٨٦٤) وهو من أبناء فلسطين ومن كبار أدبائها .

(٥) انظر فى الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥ .

وعملهم على الأدب العـربى ، ولكنه امتـد الى الآداب الأوربية يغترف منها ويحاول أن يشد الآداب والأديب العربى اليها ، وأن يربط بينها وبين الأفكار الغربية العصرية حتى لا تكون هناك فجوة بين حاضرنا وحاضر هذه الأمم المتقدمة ، وكان بعضهم متأثرا بالأدب الفرنسى من أمثـال طه حسين وهيكل ، والبعض الآخـر متأثرا بالأدب الانجليزى كالعقـاد ، وشكرى ، والمـازنى ــ زعماء مدرسة الديوان ــ ولكنهم جميعا كانوا حصيلة الفكر العربى أولا وأخيرا ، وكان جهادهم ينصب بالدرجة الأولى على الارتقاء باللغة ، والشعر ، والفن ، حتى نصل بهم الى مستويات الفكر الحديث عند هذه الأمم المتقدمة(١) .

وأرادت جماعة « الديوان » أن يكون الشعر تعبيرا عن الشعور ، وأن يكون الشاعر صادقا فيما يعبر عنه ، ويهدف اليه .. لأن الشعر فى نظرهم هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق »(٢) ، وليس صنعة القوالب التى تفرضها الظروف والمناسبات . ولهذا دعوا الى التجديد فى الشكل والمضمون .

أما فى الشـكل : فنادوا بأن يكون الشاعر صادقا فى تعبيره عما يشعر به متجنبا الكذب والادعاء ، والتكلف والمغالاة فى التعبير ، ويريدون بالصدق هنا ــ الصدق الفنى ــ اذ ليس المقصود من الصدق فى التعبير أن ينقل الشىء كما هو ــ بل كما يحسه ويشعر به فنيا ــ لأن الشاعر بذلك ينقل ما يريد وما يشعر الى المتلقى .. أى : القارىء أو السامع ، ــ ولهذا هجم العقـاد الظن بأن اجتناب المبالغة والتزام الصحة العلمية هو وسيلة الشعر العصرى .. لأن الشاعر قد يكون مبالغا ومع هذا يصدق فى مبالغته ، .. كأن يقول لحبيبه : انه أبهى من الشمس ، لأن الشمس لا تسره كما يسره حبيبه ، والمبالغة مقبولة اذا كانت تعكس احساسا صادقا ، وكان الغرض منها التجلية والتقرير ولم نكن ضربا من الكذب والادعاء(٣) .

---

(١) دراسات فى الشـعر العربى المعاصر لشوقى ضيف ص ٩٠ ــ٩٤ وما بعدها ط ثانية دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ .

(٢) فصول من النقـد عند العقـاد ص ١٦٦ لمحمد خليفة التونسى مكتبة الخانجى ــ القاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٣) ساعات بين الكتب ج ١ ص ١١٩ ، ١ ط ثانية دار الكتـاب العربى بيروت ١٩٦٩م .

وأما فى المضمون : فالصدق فيه عندهم ، أن يعبر الشاعر عما يحسه وتختلج به نفسه ، ويضطرم به وجدانه ـ لأن الشعر خطرات ضمائر وخلجات مشاعر ، وهمسات شجون ترجع الى الاحساس(١) ، وهو ـ على اختلاف موضوعاته وأبوابه ـ : مظهر من مظاهر الشعور النفسانى ، ولن تتموج حركة فى النفس بغير أثر ظاهر فى العالم الخارجى والشاعر العبقرى معانيه بناته ، فهن من لحمه ودمه ، وأما الشاعر المقلد فمعانيه ربيباته ، فهن غريبات عنه ، وان دعاهن باسمه(٢) ، وعلى الشاعر أن يكون صادقا فى احساسه بالواقع والطبيعة ، والأحداث القومية والاجتماعية ، وبما ينفعل به من أفكار وآراء . لأن الشاعر الحق هو الذى يصف ما يخالط حسه ، وما يشعر به ، وتحتضنه عواطفه .. لا من يحاول أن يصف صور العصر ومظاهره وان لم يكن لها فى وجدانه آثار أو شجون ، ويرى العقاد أنه على الرغم من التقدم العلمى الحديث يجب أن نفهم : أن الشاعر لو وصف الابل والصحراء ، بعد معايشة وحب ومعاناة لهذه الصحراء ، أو تلك الابل ، بحيث أصبحت جزءا من نفسه وقطعة من حياته ومشاعره ، لكان بذلك الشاعر الحق ، الشاعر العصرى المجدد(٣) « فهم ينكرون الوصف المجرد من الاحساس والعاطفة ،... الذى لا يبغى سوى الوصف .. ، لأن الوصف ليس شعرا اذا لم يكن مقرونا بعواطف الانسان وخواطره وذكره وأمانيه ، وصلات نفسه ، والشاعر الكبير ليس هو ذا التشبيهات الكثيرة الذى يكثر من مثل « وكأن » ولو كان ليس بعدها الا المعنى المتضائل ، والصورة المضطربة غير المتجانسة الأجزاء ، وأجل المعانى الشعرية ، قيل فى تحليل عواطف النفس ، ووصف حركاتها كما يشرح الطبيب الجسم .. والشعر ما أشعرك ، وجعلك تحس عواطف النفس احساسا شديدا ، لا ما كان لغزا منطقيا ، أو خيالا من خيالات

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٢ .

(٢) « ديوان عبد الرحمن شكرى » ص ١٠٢ ، ١٠٣ (مقدمة العقاد للجزء الثانى) الطبعة الأولى للديوان جميعه سنة ١٩٦٠ دار المعارف الاسكندرية .

(٣) انظر فصول فن النقد عند العقاد ص ١٦٥ ، ومقدمة العقاد لكتابه « بعد الأعاصير » ص ١١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٠ .

معاقرى الحشيش » ، فالمعانى الشعرية هى خواطر المرء وآراؤه وتجاربه وأحوال نفسه ، وعبارات عواطفه(١) ، كما أنكروا تكالب الشعراء على الأحداث اليومية ، والموضوعات والقضايا الاجتماعية ، وجعلها ميدان أفكارهم وأعمالهم لأنها فى نظرهم « لا تعكس احساسا صادقا ، اذ ليس يكفى أن يذكر الشاعر بعض المعالم القومية ، والتواريخ ، وأسماء البلاد ، أو يعنى بالحوادث حتى يكون شاعرا ، لأن الشاعر هو الانسان الذى يشعر بقومه وبالناس وبالدنيا ، .. وليس معنى ذلك فى نظرهم رفض القومية أو الابتعاد عن التغنى بها لأن الشعر المصرى بعد شوقى ــ كما يقول العقاد ــ : « تغنى بالانسان ، ولا تفهم القومية فى الشعر الا على أنها انسانية مصبوغة بصبغة وطن من الأوطان »(٢) .

وهذه المدرسة تلقى بالها كله الى شعور الانسان فى جميع الطبقات ، ولا تحصر شعورها فى طالبى الخبز وعبيد الاقتصاد ، وهى على هذا مدرسة الطبيعة والانسانية ، ولا يتأتى أن تكون بمعزل عن القومية بحال لأن « القومية » سجينة كل انسان مطبوع ولو عنى بالقطب الشمالى أو قطب السماء ، كما أنهم لم يرفضوا أغراض الشعر المألوفة لمجرد الرفض ، وانما حينما تستخدم بعيدة عن المشاعر والأحاسيس ، وحين يلجها الشاعر لمجرد الصنعة والمحاكاة .

فالمدح عندهم مثلا غرض من أقدم أغراض الشعر ، ولكنهم لا يرفضونه « لأنه جائز فى كل أمة ، ومن كل شاعر ، ولا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ القصيدة فى مدح عظيم يعجب به ، ويؤمن بمناقبه اذا كان المادح يعكس حسا صادقا ويقول ما يعتقد(٣) ، أما اذا كان مضطرا الى المديح أملا فى العطاء من غير اعتقاد صحيح ، أو عاطفة صادقة فما يقوله ليس بشعر ، ولن يقال : ان للأدب مكانا فى الأمة ، والشاعر مضطر فيها الى اذلال عقله وتسخير كرامته فى مديح لا تستسيغه العقول ، ولا يليق بالرجل الحر المريد لما يقول »(٣) .

---

(١) ديوان عبد الرحمن شكرى الكامل مقدمة ج ٥ للشاعر ص ٣٦٣ ، ٣٦٤

(٢) انظر لمحات من حياة العقاد : لعامر العقاد ص ٢٧٥ ــ ٢٨٥ تحت عنوان بين العقاد وشوقى . مؤسسة دار الشعب بالقاهرة ١٩٦٨ .

(٣) شعراء مصر ص ١٨ ، ١٩ وفصول من النقد ص ١٦٥ ، ومقدمة بعد الأعاصير ص ١١ .

فهم يريدون أن يكون ولوج الشـــاعر لضروب الشعر على أخلافها مقرونا بفيض من الاحساس والشعور بالموقف ، حتى تأتى المعانى مصورة لحقيقة ما فى الوجدان ، فيظل أثرها فى النفوس ، ولا تنتهى وتذوب بانتهاء الموقف ، لأن القـــراء اذا قرأوا قصيدة جعلوا يلتقطون منها ما يناسب أذواقهم ، ثم ينبذون ما بقى من غير أن يبحثوا عن السبب الذى جعل الشاعر ينظم فى قصيدته هذه المعانى(١) .

والاحساس والعاطفة والمشاعر عندهم لا تعنى أن يكون الشـــعر مجموعة من العواطف المتكلفة ، تأتى فيها الكلمات ميتة تدل على التوجع أو ذرف الدموع(٢) ، أو تأتى حافلـــة برقة الشـــكوى والحنان الأنثوى والبث ، والشـــقاء والسقم والحزن(٣) ، لأن هذه لا تكون عاطفة نابعة من الشعور ، وانما هى ادعاء للعاطفة يرفضونه ، ويأبون على الشـــعر أن يكون كاذبا ، وعلى الشاعر أن يكون مستنبتا للمعانى متمحلا لها ، فكل ما لا صدق فيه سواء فى المحتوى أو المضمون لا قيمة له فى نظرهم ..

وكما رفضوا العواطف الكاذبة رفضـــوا أيضـــا أن يكون الشعر مجموعة من العواطف الرجراجة التى لا يضبطها عقل أو ينتظمها فكر ، لأن الشعر فى نظرهم لا غنى له عن الفكر ، والفكر لا يعنى به فى الشعر الا على قدر ارتباطه بالاحساس . والشاعر الحق هو الذى « لا يعنى بالفكر لذاته ولسداده ورزانته بل يعنى به من أجل الاحساس الذى نبهه ، أو العاطفة التى أثـــارته »(٤) ، ومع اتفاق المـــازنى والعقـــاد وشكرى حول ضرورة صدق الاحساس ، وفيض العاطفة عند الشـــاعر حتى يكون شعره مرآة صادقة معبرة عنه وعما يريد الخوض فيه ، وأن يصحب هذا الصـــدق وتلك العاطفة فكر ضابط لهمـــا ، واتزان يدل عليهما .. وجدنا اختلافا بينهم فى أشعارهم ، بل وفى الآراء التى قدموا بها دواوينهم ، وسجلوها فى كتاب الديوان بجزئيه ، وفى بعض الحالات جاءت كلماتهم غير مفهومة وغير محدودة الأبعـــاد ، بل وكثيرا ما نراها مكررة ومعادة .

---

(١) ديوان شكرى مقدمة جـ ٣ ص ٢٠٩ .

(٢) ديوان شكرى مقدمة جـ ٣ ص ٢٠٧ .

(٣) ساعات بين الكتب جـ ١ ص ١٢٦ ، وانظر أيضـــا دراسات فى الشعر العربى المعاصر لشوقى ضيف ص ٩٥ وما بعدها .

(٤) الشعر غاياته ووسائله ص ٢٠ .

يقول شكرى عن « العاطفة فى الشعر »(١) : « ان الشـــاعر الكبير لا يكتفى بافهام الناس ، بل هو الذى يحاول أن يسكرهم ويجنهم بالرغم(٢) منهم » •

وهذا يخالف ما ذهب اليه المـــازنى فى ضبط العاطفـــة واتزانها واحكامها بالفكر كما وضحنا •

كما يخالف معظم ما نتج العقاد من الشعر ، فمنذ الوهلة الأولى تحس أن العقاد فى شعره يغلب جانب الفكر والعقل على الاحساس والعاطفة وان كنا قد رأيناه فى نقده يقول بارتباط الفكر بالاحساس والعاطفة وبأن الفكر لا يكون شعرا الا اذا ارتبط بهما ونبع منهما « ومزية الانسان دائما أن يحس حين يفكر ، وأن يفكر حين يحس ، وأن يكون نصيبه من الانسانية على قدر نصيبه من الفكر والاحساس »(٣) وكبار الشعراء فى العربية وغيرها كانوا فى أشعارهم على هذا القياس كالمتنبى وشكسبير والخيام •

ويغالى شكرى فيقول : « ولشعر العواطف رنة ونغمة لا تجدهـــا فى غيره من أصناف الشعر ، وسيأتى يوم من الأيام يفيق الناس فيه الى أنه هو الشعر ولا شعر غيره ، وينبغى للشاعر أن يتعرض لمـــا يهيج به العواطف والمعانى الشعرية ، وأن يعيش عيشة شعرية موسيقية بقدر استطاعته ، وينبغى له أن يعود نفســـه على البحث فى كل عاطفة من عواطف قلبه وكل دافع من دوافع نفســـه ، لأن قلب الشاعر مرآة الكون ، فبه يبصر كل عاطفة جليلة شريفة فاضلة ، أو قبيحة مرذولة وضعيفة »(٤) •

وشعراء الجاهلية وصدر الاسلام فى نظر شكرى كانوا أصدق عاطفة ممن أتى بعدهم ، لأن نفوسهم كانت كبيرة ، وعواطفهم قوية لم يتلفهـــا الترف والعنف ، وغير ذلك من الصفات التى تطرقت الى الأمة فى عهد الدولة العباسية وما بعدها من العصور •

وهذا القياس غير صحيح ، فليس كل شعراء الجاهلية ، وصدر

---

(١) مقدمة ديوان شكرى ووسائطه ص ٢٠ •
(٢) الصواب : على الرغم منهم •
(٣) مقدمة ديوان بعد الأعاصير للعقاد ص ١٣ ــ ١٥ •
(٤) مقدمة ديوان شكرى جـ ٣ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ •

الاسلام ينطبق عليهم هذا الوصف ، كما أن شعراء العصور التالية فى مجملهم لا يخرجون عنه • لأن لكل انسان حالات وطبائع ومواقف ومقتضيات تلون عواطفه بألوان تتناسب مع هذه الحالات سواء أكان فى عصر متقدم أو عصور متأخرة ، وكل خطرة عند كل شاعر مبدع لها مرد من حياته وتجاربه ومشاعره وعواطفه •• أيا كانت هذه المشاعر وتلك العواطف •

ولسنا ننكر على رواد هذه المدرسة ما قاموا به من تجديد فى الشكل والمضمون فى القصيدة العربية ، ولا اهتمامهم بالصدق ، صدق التجربة ، والصدق الفنى ، بل ان أفضل ما قاموا به ، هو العمل على تحقيق الوحدة العضوية للبناء الفنى للقصيدة ، وكتابتهم للقصة الشعرية وتنويعهم فى الموسيقى والقافية • وكانت آراؤهم فى هذا الاتجاه ذوات أثر كبير فى وحدة القصيدة العربية وترابطها فى عصرنا الحالى •

يقولون عن تفكك القصيدة وأثره فى تخلخلها(١) : « فأما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية ، وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة ، اذ كانت القصائد ذوات الأوزان والقوافى المتشابهة أكثر من أن تحصى • فاذا حسبنا التشابه فى الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من القصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز ••• ان القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ، واللحن الموسيقى بأنغامه ••• بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها •• ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية فى الشعر فلم تجدها فاعلم أنه ألفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد ، أو شعور كامل بالحياة » •

ولكننا أيضا نستطيع أن نقول : ان الشعر العربى عبر عصوره المختلفة لم يخل من العواطف الفياضة ، والفكر المنظم ، والترابط المعنوى ، وان اختلف من شاعر الى شاعر ، ومن عصر الى عصر ، لأن كل فن تجرى عليه هذه السنة من الصحة والفساد ، من الصدق والادعاء ،

---

(١) الديوان ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٣١ ط ثالثة مطبوعات دار الشعب وانظر أيضا لمحات من حياة العقاد لعامر العقاد ص ٢٦٥ ـ ٢٧٤ •

من الشعور الصادق والشعور الكاذب ، والأمم تنهض وتقوى فتقوى نفوس أبنائهـا وترتفع أقدارهم ، وتفيض عواطفهم ، وتصدق مشاعرهم ، فيأتى شعرهم معبرا فى صدق عن هذه النفوس وتلك المشاعر ، وتضعف الأمم ، وتتبدد قواهـا ، وتنفك أواصرهـا ، ويقع أفرادها صرعى الترف أو البؤس ، أو الجهل ، والانحطـاط والذل فتضعف نفوس أبنائهـا ، وتفسـد عواطفهم وتنحط مشاعرهم ، فيأتى شعرهم صورة لأحوالهم ، ويدخل الكذب والادعاء ، وتتحايل عليـه كل أسباب الفساد النفسى والاجتماعى ويغرق فى الأصباغ والألوان والمغالاة والاسراف ، ويفنى فيه الفكر ، وتنحط معانيه ، وينساق وراء غايات وأطماع ومآرب لا تحيى فنا ولا تربى شعورا أو عاطفة أو وجدانا .

وقد مر الشعر العربى بهذه الأطوار والأحوال ، وكانت أعنف موجات التدمير التى أصابت كيانه بالتمزق والتحلل ، تـانك الموجتان المملوكيـة والعثمانيـة اللتين لا تعرفان العربية ولا تحفلان بها ، حتى أراد الله أن تدب فيه الروح من جديد ويعود الى الحياة وليدا ناضجا ثابت الأصل والأركان على أيدى البارودى ، ومن تبعه من شعراء العصر الحديث الذين حاولوا — بقدر ما أعطوا من موهبة وقدرة وعلم وفن — أن يجعلوه صورة حية لعصرهم ولغتهم ، وأن يفتحوا له من الآفاق ما يصله بشعر الأمم الراقية مع الاحتفاظ بالديباجة العربية المشرقة وتراكيبها الجزلة ، وأصالتها العريقة فى اللفظ والمعنى .

وكان موقف مدرسة الديوان ينحصر فى هذه الاتجاهات : « التوسع فى مفهوم الشعر ، والتعمق فى تناول الخاطرة ببسطهـا وتحليلها ، التجديد فى المضمون حتى ولو كان الموضوع قديما(١) ، الاعتداد بالشعر قيمة انسانية وليس قيمة لسانية . ربط القصيدة ببعضها ، وجعلهـا بنية حية وليست قطعا متناثرة(٢) الاهتمام بالاحسـاس والمشاعر ، وبروز شخصية الشاعر فى شعره ، اباحة تنوع القوافى فى القصـيدة الواحدة ، أو ارسالها من قيد القافية جملة ، والاكتفاء بموسيقية الوزن عن موسيقية القافية الواحدة .

---

(١) انظر مجلة المجلة عدد نوفمبر سنة ١٩٦٨م بحث بعنوان ثورة على امير الشعراء بقلم جلال العشرى .

(٢) انظر مجلة الهلال عدد نوفمبر سنة ١٩٦٨م ص ٢٠٩ تحت عنوان المعارك الأدبية بين شوقى ونقاده لأنور الجندى .

وقد تعلق بهذه الصيحة التى أطلقت سنة ١٩٦٤ أصحاب الشعر الحر فى أيامنا هذه ، ولكن أصحاب الديوان أنفسهم لم يفعلوا ذلك أبدا ، وتراجعوا عن هذا القول • وهجم العقاد سنة ١٩٦٤ م « الشعر الحر » •• فى حديث « تلفزيونى » وقال عنه انه مهزلة ، فمن أى شعر يتحرر ؟ يتحرر من البحور والقوافى •• أى : أن الشعر يتحرر من الشعر(١) ، وظل العقاد حتى نهاية حياته يهجم الشعر الحر ويرفضه(٢) ، وهذا الموقف من العقاد ــ وهو أحد زعماء مدرسة الديوان وداعية التجديد ــ خالف فيه طه حسين(٣) وأحمد أمين(٤) ومحمد حسين هيكل(٥) الذين ينظر اليهم على أنهم من المحافظين •

ونستطيع بعد هذا العرض الموجز لأفكار واتجاهات مدرسة الديوان أن نقول : ان الشعر العربى منذ أقدم عصوره حفل بمثل هذه الآراء وتلك الاتجاهات ، ففى العصر العباسى كانت هناك محاولات لأبى تمام وابن الرومى لتعميق النظرة الشعرية فى مجال الفكرة كما صنع أبو تمام ، وفى مجال التوليد واستكناه خفايا الطبيعة كما فعل ابن الرومى(٦) كما مر بهذه التجربة الأدب الغربى فى القرن التاسع عشر ، كما أن أكثر القضايا النقدية التى أثارتها هذه المدرسة ضد شوقى وحافظ لها جذور فى النقد العربى القديم والحديث • فالتفكك والاحالة والتقليد والولوع بالأعراض دون الجواهر التفت اليها النقاد العرب كالآمدى والجرجانى وغيرهما(٧) ، كما كانت لهم آراء قيمة حول وحدة القصيدة التى أراد بها نقدنا الحديث « وحدة الغرض » وحتى وحدة الغرض

---

(١) انظر كتاب يسألونك للعقاد ص ٨٩ ــ ٩١ تحت عنوان فى الشعر العربى ط ثالثة بيروت سنة ١٩٦٨م •

(٢) انظر الحلقة الأولى من كتاب الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى دراسات فى الأدب العربى ومذاهبه ص ٢٤٦ ــ ٢٤٩ .

(٣) انظر من أدبنا المعاصر لطه حسين ص ٣٠ ــ ٣٦ تحت عنوان التجديد فى الشعر مطبعة مصر سنة ١٩٥٩م •

(٤) انظر فيض الخاطر لأحمد أمين ج ٢ ص ٢٤٣ •

(٥) انظر ثورة الأدب ص ٦٣ ــ ٦٥ .

(٦) دراسات فى الأدب العربى ومدارسه الحلقة الأولى محمد عبد المنعم خفاجى ص ٢٤٨ ــ ٢٥٠ •

(٧) انظر « المذاهب النقدية » لماهر حسين فهمى ص ١٠٦ ــ ١٣٠ • و « النقد والنقاد المعاصرون) ص ١١٨ ، ١١٩ •

هذه اختلطت عند العقاد وغيره من نقادنا المحدثين بما سموه الوحدة العضوية » أى بناء القصيدة بناء هندسيا بحيث تخرج من بين يدى الشاعر كالكائن العضوى الذى لا يمكن نقل جزء منه مكان جزء آخر ، وهى دعوة سليمة من ناحية الفلسفة الجمالية ، ولكنها لا تكاد تتصور فى الشعر الغنائى ، ويرجع تاريخهـا الى أقدم العصور حيث أثارهـا أرسطو فى كتابه « الشعر » ونادى ابن طباطبا فى « عيار الشعر » بوجوب الصلة بين أبيات القصيدة ، وبحيث تكون هذه الصلة بمثابة سلك جامع لمـا تشتت يضبطه فى نظام ويجمعه فى قران وتآلف واتحاد(١) كما أن ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » قال : « قيل لفلان أنا أشعر منك ، قال : وبم ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه » وهذه دعوة للوحدة العضوية ، أثارهـا هذا الناقد فى القرن الثالث الهجرى(٢) ، وفى القرن الرابع نادى بها « الحاتمى » وقال : مثل القصيدة كمثل الانسـان فى اتصـال أعضائه ببعض(٣) ، وقبل مدرسـة الديوان قال ذلك الشيخ حسين المرصفى(٤) ، وحلله وأفاض فيه خليـل مطران(٥) .

وقد جعلت الشـعر الغنائى جل غايتها ، وحرص العقاد على أن يذكر به شاعرا وناقدا(٦) ، وكان تعلقهـا بالمنهج النفسى ، وحرصها

---

(١) انظر « حديث الأربعاء » لطه حسين ج ١ ص ١٤٣ دار المعارف سنة ١٩٥٦م وكتاب « فى الثقافة المصرية » لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس طبع بيروت سنة ١٩٥٥م ، وملحق الجمهورية فى ٥ ابريل سنة ١٩٥٢ مقال للدكتور طه حسين حول صورة الأدب والوحدة العضـوية . وأخبار اليوم فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٤ مقال له أيضا تحت عنوان « الى ان عياه التجديد » وصحيفة المقرى فى ٧ من مارس سنة ١٩٥٤م و « المذاهب النقدية » لمـاهر حسن فهمى ص ١٢٤ ، والنقد والنقاد المعاصرون ص ١١٢ .

(٢) انظر مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤ . وابن قتيبة حياته وآثاره للدكتور اسحق موسى الحسينى .

(٣) المذاهب النقدية ص ١١٠ .

(٤) راجع الوسيلة الأدبية ج ١ ، ج ٢ .

(٥) انظر النقد الأدبى الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٢٤٠ ـ ٢٤٨ ط خامسة سنة ١٩٧١ مطبعة الأنجلو المصرية .

(٦) انظر عباس العقاد ناقدا ص ١٤٦ .

على ظهور شخصية الشاعر فى شعره أثرا من آثار قراءة زعمائها للآداب والمذاهب الأوروبية • ودراستهم لعلم النفس ، وما جد فيه من تفريعات ومفاهيم ، وقد دفعهم ذلك الى النظر الى « من قال » ؟ •• لا « الى ما قيل » ، واهتم العقـاد كثيرا بعرض البيئة التى نشأ فيها العمل الفنى(١) ، والحقيقة أن هذا الاتجاه أبعدهم عن الشـعر الموضوعى كما أنه لا يمكن جعله قاعدة مطلقة ، لأن « فرويد » نفسـه قرر أن التحليـل النفسى لا يمكن أن يطلعنا على طبيعة النتاج الفنى(٢) •

ومن هذه الاتجاهات كلها تجمعت ارادة زعماء هذه المدرسة حول الشعر الغنائى ، وظلت تنادى بأن يكون تعبيرا عن الوجدان الفردى ونجحت ـ شكليـا ـ فى ذلك نجاحا كبيرا جعل تجديدنا الشعرى كله ـ مع الأسف الشديد ـ يجنح الى هذه الصبغة ، خاصة أنها تمشت مع الظروف النفسية والاجتماعية والحيوية التى كانت تشتد كرباتها عليهم وعلى من تلاهم من الشعراء ، فكان تعبيرهم عن الوجدان الفردى تنفيسا لمشاعرهم وتعبيرا عن ذواتهم ، وان كان هذا التعبير الفردى قد تحول بعد ذلك الى تعبير عن وجدان الجماعة •

ومن الغريب أن زعماء هذه المدرسة « شكرى والعقاد والمـازنى » انقسموا على أنفسهم ، فكتب شكرى فى مقدمة الجزء الخامس من ديوانه نقدا شديدا للمازنى وقال : انه يهجم على الشعراء الغربيين ، ويقتبس من روائعهم ويختلس منهم دون أن يصرح بذلك ، ونص على مجموعة من اقتباساته واختلاساته(٣) واعترف المـازنى بذلك فى مقدمته الجزء الثانى من ديوانه وظل ينتظر مرور بعض الوقت ، حتى اذا أخرج كتاب « الديوان » مع العقـاد ثار على شكرى ثورة عنيفة وكتب فيه فصلين بعنوان « صنم الألاعيب » هجم فيهما منهج شكرى فى نقده لحافظ ، وعد حديثه عن آلام البشرية مرضا ، ونسى أنه كان مرض العصر ، وأنه

---

(١) انظر فى الأدب الحديث جـ ٢ ص ٢٦٢ والنقد والنقاد المعاصرون ص ٩١ ، ١١٠ وشعراء مصر وبيئاتهم للعقاد ص ٤ وما بعدها .

(٢) انظر النقد الأدبى لسيد قطب ص ١٢٤ ، ١٢٦ وما بعدها والنقد والنقاد المعاصرون ص ٩٩ ـ ١٣٠ وما بعدها .

(٣) انظر ديوان شكرى مقدمة جـ ٥ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، وانظرأيضـا لمحات من حياة العقاد ص ٩٥ ، وصفحات مطوية من معارك العقاد السياسية لعامر العقاد أيضـا ص ٦٠ ـ ٧٥ دار الرائد العربى بيروت ١٩٧٠م .

هو نفسه أصدر عن هذا المرض فى ديوانه ، بل ان ما أصابه منه كان أوسع مما أصاب شعر شكرى ، فان شعره أنات وزفرات وعبرات وآلام وأحزان عميقة(١) .

وقد قضت هذه المعركة على الشاعرين جميعا ، فالمازنى انصرف عن الشعر الى السياسة والصحافة ، وهجر شكرى فى أثره الميدان ، ولم يعد ينظم الا نادرا وكانت تلك خسارة كبرى فى تاريخ شعرنا الحديث لأن كلا من الشاعرين كان يحسن صناعته ، ويقبل عليها عن فهم دقيق للشعر الغربى ، اذ كل منهما كان يأخذ نفسه بثقافة واسعة فى الآداب الغربية ، وكل منهما كان واسع جوانب النفس والعقل ، وكل منهما استطاع أن يوجد فعلا تجربة جديدة فى شعرنا صادرة عن نفس تنفعل بمشاهد الحس والجمال(٢) ، ثم كف العقاد فيما بعد عن نظم الشعر وانصرف الى فنون الأدب الأخرى .

* * *

(ج) جماعة أبوللو :

لم يكن ما صنعه شعراء « مدرسة الديوان » هو منتهى أمل أدعياء التجديد فى النهوض بالشعر ، ولذلك وجدنا جماعة جديدة تأتى فى أعقاب « مدرسة الديوان » ، تريد أن تصل بالتجديد الى غايات أسمى — فى نظرهم — مما نادى به زعماء مدرسة الديوان ، واتخذوا اله الشعر عند اليونان « أبوللو » رمزا لهم وأصدروا صحيفة بهذا الاسم أفسحوا فيها المجال للبحوث والآراء التى تعنى بتجديد الشعر العربى فى العصر الحديث .

وكان تكوين هذه الجماعة فى أوائل العقد الرابع من هذا القرن ، وظلت مجلتها التى تنادى بأفكارها ومبادئها تصدر نحو ثلاث سنوات ، ثم اختفت ، وان كان بقى أثرها بعد ذلك لسنوات عديدة .

وكان الداعى الى تكوين هذه الجماعة والمشرف على مجلتها أحمد

---

(١) انظر الأدب العربى المعاصر فى مصر للدكتور شوقى ضيف ص ٦٣ ، ٦٧ — القاهرة دار المعارف ط ثانية سنة ١٩٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٨ ومعالم الأدب العربى المعاصر لأنور الجندى ص ٥٣ بيروت دار النشر للجامعيين طبعة أولى سنة ١٩٦٤م .

زكى أبو شادى العالم والشاعر المشهور(١) ، ومعروف أن « أبوللو » هو رب الشعر عند الاغريق وطبعى أن يكون من عمله أن يرعى كل مناهج الشعر ومذاهبه • وهذا هو ما حدث فعلا بالقياس الى هذه الجماعة ، فانها ضمت بين صفوفها أصحاب الذوق القديم المحافظ ، كما ضمت أصحاب الذوق الجـديد من المعقولين والمتطرفين(٢) فمنذ تأسيسها فى سبتمبر سنة ١٩٣٢ م أسندت رياستها الى أحمد شوقى أمير الشعراء ، ثم الى خليـل مطران ، ثم الى الشاعر أحمد محرم ، وكان صدور المجلة فى ديسمبر سنة ١٩٣٤ م ، وكان مطران ومحرم نائبى الرئيس فى مدة رياسة شوقى ، وكان أبو شادى أمين سر لها(٣) وكان من أعضائها البارزين : ابراهيم ناجى ، وأحمد رامى ، ومحمود حسن اسماعيل ، وكامل كيلانى ، وأحمد الشايب ، وعلى العنانى ، ومحمود صادق ، وسيد ابراهيم ، وعلى محمود طه ، ومحمود عماد ، ومختار الوكيل ، ومحمود أبو الوفا ، وحسن القاياتى ، وحسن كامل الصيرفى وغيرهم ممن يمثلون الجيلين القديم والحديث ومعظمهم ممن كان يهجمهم العقاد والمـازنى وشكرى زعماء مدرسـة الديوان ، وقد أصـدرت جماعة « أبوللو » عددا من دواوين الشـعر الى جانب مجلتها • ومن بين هذه الدواوين « الينبوع » ، و « أطياف الربيع » ، و « الشعلة » و « فوق العباب » ، و « أشعة وظلال » لأبى شادى ، و « من وراء الغمام » لابراهيم ناجى ، و « الألحان الضائعة » للصيرفى ، و « الزورق الحـالم » لمختار الوكيل • كما قامت بطبع بعض الكتب والدراسـات الأدبية ، وأفسحت صفحات مجلتها للبحوث المختلفة فى الأدب والشعر ، ومع ذلك كانت تفتقد المنهج الثابت المحدد ، فهى ليست كجماعة « شعراء

---

(١) ولد أحمد زكى أبو شادى فى ٩ من فبراير سنة ١٨٩٢ م وتوفى فى ١٤ من ابريل سنة ١٩٥٥م •

(٢) فصول فى الشعر ونقده ص ٢٩٤ •

(٣) انظر دراسات فى الأدب العربى الحديث للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ص ٤٤٩ ـ ٢٥٧ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة بدون تاريخ ، وفى الأدب المعاصر لعبد الرحمن عثمان ص ٩٣ مصر ١٩٦٨ والأدب العربى فى سوريا لسامى الكيالى ص ١٤٦ ، ١٤٧ (الادارة الثقافيـة) لجامعـة الدول العربية ـ مكتبة الدراسات الأدبية (١٥) دار المعارف بمصر بدون تاريخ .

النهضة » التى عنيت بالأصول التقليدية ، ولا كجماعة « الجيل الجديد » التى ثارت عليها واتبعت طريقة شعرية جديدة وربما كان من أسباب ذلك كما يقول الدكتور شوقى ضيف(١) : « أن شعراءها اضطربوا بين ما كان فى أيديهم وتحت أعينهم من نماذج متعددة ، فقد كان أمامهم نموذج أصحاب النهضة من مثل شوقى ، ونموذج « الجيل الجديد » من مثل العقاد ، ونموذج المهاجرين الى أمريكا من مثل « أبى ماضى » وليس ذلك فحسب فقد أخذ نموذج رابع يظهر فى لبنان ، وكان يقتدى فى بدء ظهوره بنموذج المهاجرين الى العالم الجديد ، ثم لم يلبث أن انغمس فى الرومانسية الفرنسية على نحو ما هو معروف عن الياس أبى شبكة ، وسرعان ما نفخ فيه يوسف غصوب وسعيد عقل من روح المذهب الرمزى الفرنسى الذى جعله يستحيل عندهما الى صور مبهمة تمتزج فيها الحواس والمجردات ، ولا تكاد تتضح معالم المعانى ..

ولم تكن هذه النماذج وحدها تملأ جو الشعر والشعراء حينئذ ، فقد اتسعت ترجمة الآداب الغربية شعرا ونثرا ، وكثرت المجلات الأدبية الأسبوعية والشهرية التى تكتب فى حقائق الشعر ، وتترجم بعض النماذج لكبار الشعراء الغربيين محللة مناهجهم وخصائصهم ، وكثيرا ما أثيرت فيها خصومات عنيفة حول القديم والجديد فى الشعر وكذلك حول بعض الشعراء المحافظين والمجددين ، لهذا لم تعمر هذه الجماعة طويلا ، وتوقف نشاطها ، واختفت مجلتها حين نقل أبو شادى الى الاسكندرية ، وطلب اليه أن يقلل من نشاطه الأدبى(٢) .

ولقد كان من أهداف هذه الجماعة القضاء على الزعامات الأدبية التى أخذت تملأ سماء مصر والتى كانت الأحزاب تقف وراءها وتعمل على تحريكها حتى تكسب هذا الأديب أو ذاك الى جانبها ، واحلال التعاون والاخاء محل التفاخر والبذاء .. بين الأدباء ، والسمو بالشعر العربى ، وتوجيهه نحو غايات ومثل عليا ، وترقية مستوى الشعراء

---

(١) فصول فى الشعر ونقده ص ٢٩٥ .

(٢) « دراسات فى الأدب العربى الحديث ومذاهبه » ص ٢٥٢ ، و « أبو شادى وحركة التجديد » للدكتور كمال نشأت ص ٦٦ ، ١١١ ـ ١١٣ ويذكر الدكتور كمال نشأت أنه وصله خطاب سرى من وزارة الصحة سنة ١٩٤١ يحرم عليه الاشتغال بأى فن أو أدب .

أدبيا واجتماعيا وماديا ، والدفاع عن مصالحهم وكراماتهم ، والاتصال بالنهضات الفنية فى الشعر فى جميع أنحاء العالم ، والعمل على مسايرتها(١) .

ولهذا كانت صلتها قوية بمدرسة المحافظين ، كما حاولت أن تمد القنوات بينها وبين « مدرسة الديوان » لولا موقف العقاد المعاند منها ، كما اتصلت بمدارس الأدب الغربى على مختلف فنونه ومواقعه ، وامتد فكرها الى العذريين وغزلهم ، والأندلسيين وهيامهم بالطبيعة(٢) والى شعراء المهجر وخاصة « جماعة الرابطة القلمية » التى أنشئت سنة ١٩٢٠ م ، وجاء شعرهم صورة لذلك كله(٣) وان كنا نلمح فيه عوامل التأثر بالشعر الغربى الرومانتيكى أكثر من غيره ، وكثرة الاتجاهات واختلافها باختلاف ثقافة كل شاعر وتنوعها ، بل ان هذه الاتجاهات المختلفة وجدت عند الشاعر الواحد منهم ، فهو ينظم من مناهج مختلفة ، ولعل أبا شادى مؤسس جماعة « أبوللو » كان خير من يصور ذلك ، فقد نظم من كل طريقة ، وفى كل موضوع وجدانى أو بوحى ، فلسفى أو عادى ، غنائى أو قصصى ، درامى أو غير درامى ، وله دواوين كثيرة ، وهى تشبه دائرة معارف شعرية فيها من كل اتجاه ومن كل نزعة حتى فى لغته وألفاظه فبينما هو يعنى بالاطار التقليدى اذا به يتخلى عنه فى غير نظام ، ويصدق هذا القول على كثير من زملائه وأعلام مدرسته(٤) ومن خلال هذا كله ظهرت عليهم وعلى أشعارهم سمة

---

(١) أبو شادى وحركة التجديد ص ٤٠٤ .

(٢) انظر مجلة أبوللو العدد الأول من سبتمبر ١٩٣٢م ص ٥٤ ، ٥٥ ، وأبو شادى ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، وابراهيم ناجى حياته وشعره لصالح جودت ص ١٣٩ ـ ١٤٦ ، وفى الأدب المعاصر ص ٩٣ .

(٣) انظر جماعة أبوللو واثرها فى الشعر الحديث للأستاذ عبد العزيز الدسوقى ص ١٥٧ ، ١٥٩ ـ القاهرة جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦٠م طبعة أولى .

(٤) انظر ديوان أطياف الربيع لأبى شادى ، وديوانه « الينبوع » و « الشعلة » وديوان ليالى القاهرة لابراهيم ناجى ودواوينه أيضا وراء الغمام ، والطائر الجريح ، ولعلى محمود طه « الملاح التائه » و « ليالى الملاح التائه » و « أرواح وأشباح » وزهر وخمر والشوق العائد ، وانظر أعداد مجلة أبوللو فبراير ومارس وابريل ومايو سنة ١٩٣٣ =

متميزة عن غيرهـــا هى سمة الحزن والألم التى عمت معظم دواوينهم حتى لا يكاد يخلو منها ديوان شاعر فهى عند أبى شادى والصيرفى وناجى ومحمود حسن اسماعيل ، كما هى عند على محمود طه وشيبوب ، وغنيم ، ورامى ، ومختار الوكيل وغيرهم • ويرجع ذلك الى تأثرهم بالرومانتيكية وما أشاعته من أجواء الحزن فى الأدب الغربى والآداب الانسانية عامة(١) والى ما كان الاستعمار والقصر يقومان به من ضغط شديد على الحريات فى هذه الحقبة مما أدى الى انطواء كثير من الشعراء على أنفسهم يتغنون بالألم ويعكسونه على كل ما حولهم من الطبيعة ، وكذلك الوضع الانسانى العام الذى ساد كل ربوع الدنيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وظهور العديد من المذاهب الفلسفية التى امتد تأثيرها الى مجالات الأدب والشعر ، وكان شعراء هذه الجماعة ــ مصريين وغير مصريين ــ على صلة بهذه المذاهب الفلسفية ومتأثرين بها ، ولهذا وجدنا هذا الجو الحالك السواد يسيطر حتى على الشـــعراء غير المصريين الذين لا يدخلون تحت نطاق المؤثرات السياسية المصرية ، وانما يدخلون فى دائرة المؤثرات الأدبية العالميـــة من أمثال الشابى وبشير وشيبوب وغيرهم •

ومن المعلوم أن الحرب العالمية الأولى أدت الى انهيـــار كثير من القيم عند الانســـان ، وزعت الاخلاق عند الأمم والأفراد مما نتج عنه ظهور نزعات الانحلال والتفلسف المذهبى والاجتماعى والاقتصـــادى والصناعى ، وكان لذلك كله تأثير على شـــعراء « أبوللو » خاصـــة « الرومانسيين » الذين نادوا بالثورة على كل التقاليد الفنية وأصول الصنعة الأدبية ، وقالوا بأن الشعر لغة الاحساس الانسانى فهو غير مقيد ، والأدب لا يصدر عن صنعة مقصودة أو نشاط ذهنى أو عمل أرادة • والضابط الوحيد عندهم هو هدى السليقة واحساس الطبع

= وأكتوبر سنة ١٩٣٤ م ، ومجلة الأسبوع عدد (٦) سبتمبر سنة ١٩٣٤ م وصحيفة الوادى فى ٣ من سبتمبر سنة ١٩٣٤م ، وناجى حياته وشعره ص ١٣٩ ــ ١٦٠ وعلى محمود طه حياته وشعره ص ١٣٥ ــ ٢٣٥ وجماعة ابوللو واثرها فى الشعر ص ١٠٢ ــ ٢١٢ وفصـــول فى الشـــعر ونقده ص ٢٩٥ .

(١) انظر الشـــاعران المتشـــابهان الشابى والتيجانى ص ٨٥ ــ ٩٦ لأبى القاسم محمد طبع دار المعارف وديوان رامى ص ٢٠ ــ ٢٥ ط ثانية الدار القومية للطباعة سنة ١٩٦٥ •

حتى لنرى كبارهم يزعمون أن أروع القصائد ما كانت أنات خالصة ، أو عبرات صـافية ، وهى فى حقيـقتها تحتوى على كل أمراض العصر ومآسيه(١) كما كان لترجمة المذاهب الفرنسية المستحدثة .. خاصه مذهب « اللاخلقيين » .. أثر كبير عليـهم ، فابراهيم ناجى ترجم « أزهار الشر » وعلى محمود طه كتب عن « بودلير وفرلين » فى مقدمته « لأرواح الأشباح »(٢) .

وبجـانب هذه المؤثرات الغربية وجدنـا تأثرهم بشعراء العصر العباسى الثانى ، وهم فى جملتهم اما باك على الدهر ومصائبه كأبى العلاء ، أو مادح للولاة والأمراء وهم كثير ، أو مستهتر يصف استهتاره وصفا أنيقا بديعا يرضى الفن ولا يرضى الروح ، فهم ما بين مفرط فى المجون أو مفرط فى التصوف ، وكلاهما فرار من حياة الجد والعمل . ومحاولة لاستخدام الشعر لغايات ذووية أنانية .

وقد انطبعت هذه الملامح كلها على شعراء « أبوللو »(٣) وأصبحوا كمن ألقى بنفسه فى بحر هائج بلا حدود ، وتلون نتاجهم بهذه الألوان جميعها ، وزادوا عليهـا بأن أضفى كل شاعر منهم على لونه الأدبى طابعه ومزاجه الخاصين ، وصور من خلال هذا المنظار مشاكل حياته ، وظروف مجتمعه ، وانطباعات روحه وأشواقه ، وظمأه للحياة وتصوره لها ، فغلب عليهم طابع الشكوى والألم والصبغة السوداء ، والحزن العميق ، وضاع الترابط بين شعرائها حتى اننا نجد من العسير احصاء المذاهب والنزعات التى جالت فى نفوسهم . فهناك النزعة الخيالية ، والنزعة الفلسفية ، والنزعة الثورية ، والنزعة الغزلية ، والنزعة الرمزية ، والنزعة السياسـية ، والنزعـة التاريخية ، والنزعة الفكرية ، والنزعة

---

(١) انظر فى الأدب ومذاهبه للدكتور محمد مندور ص ٩٨ وما بعدها ، والشاعر البائس لعبد الرحمن عثمان ص ٨٠ ـ ١٠١ .

(٢) انظر أبو شادى وحركة التجديد ص ٦٠ ـ ٦٧ والحلقة الثانية فن الشعر المصرى لمحمد مندور ص ١٤٤ .

(٣) « فيض الخاطر » للدكتور أحمد أمين ج ١ ص ٧ ـ ١٦ ط ٤ مطبعة النهضة ـ القاهرة ، وبحث لأبى القاسم الشابى منشـور فى ديوان «اليتبوع» لأبى شادى ـ والحلقة الثانية من الشعر المصرى ص ٥٥ ـ ٥٧ وفى الأدب المعاصر لعبد الرحمن عثمان ص ٩٤ .

الطبيعية ، وغير ذلك مما امتلأت به كل العصور ، والعصر الحديث بالذات(١) ، وكان ذلك من أسباب تمزقها وانحسار مدها فى سنوات قليلة ، كما أنها لم تستطع أن تصنع اتجاها أو تحدث فى الشعر العربى مذهبا له خصائص ومقومات يمكن تناولها بالدرس والتحليل ، ولم يكن لها من فضل الا أنها خلقت ندوة أدبية يلتقى فيها الكبار والناشئون من الشعراء كل يعرض فنه على طريقته وبقدر ما أتيح له من ثقافة ، وساعد ذلك على نشاط الحركة الأدبية واستيعابها لكثير من أفكار العصر وتصوراته .

وكان لأبى شادى رمزها وصانعها تعاليم تدل فى مجملها عليها ، وقد وضحت هذه التعاليم فى مقالاته بالمجلة ، وفى مقدماته لدواوين الشعراء ومن بينها احتقاره للصنعة والتقليد ، والاحتفال بالشعور الصادق والطلاقة الأسلوبية والأخذ عن الأدب الغربى وحب الطبيعة ، والاهتمام بالمواضع الفنية والانسانية والتصوف وحب الجمال ، ونحن لا نرى اختلافا بين هذه التعاليم وبين ما كانت تهدف اليه جماعة الديوان ، ولكن أصحاب الديوان استطاعوا أن يضعوا مذهبا أدبيا له حدود ومعالم ، وأن يسيروا على نهجه ، ويتمسكوا به ، ويدافعوا عنه ، وبقدموا نتاج أشعارهم على قياسه لمدة أطول وأعمق من أعوام جماعة « أبوللو » أما هم فلم يؤيدوا مذهبا شعريا معينا ، ووقفوا عند المناداة بالشعر الصافى ، وأخذوا من كل واد زهرة ، ومن كل نهر قطرة ، ويرجع البعض ذلك الى انعدام الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التى تمهد لظهور مذاهب الأدب والفن المحددة المعالم .

وهذا غير صحيح لأن « مدرسة الديوان » ظهرت فى ظروف مثل ظروف « أبوللو » وأقسى منها ، وعلى الرغم من ذلك أنشأت مذهبا أدبيا له خصائصه ومميزاته .

ونستطيع أن نقول ان شعراء « أبوللو » لم يخرجوا عن مجال الشعر الغنائى فيما عدا « أوبريتات » أبى شادى الذى لم يسر معه أحد فيها وأنهم أخذوا على عاتقهم تشجيع كل المحاولات التجديدية من

---

(١) انظر مجلة الآداب البيروتية مقال لجورج صيدح عنوانه (فى الشعر الرمزى) عدد يناير سنة ١٩٥٥ ، وعلى محمود طه حياته وشعره ص ١٣٣ ـ ١٣٧ وناجى حياته وشعره ص ١٤٠ ـ ١٤٩ والحلقة الثالثة من الشعر المصرى ص ٤ ـ ١١ .

شعر مرسل الى شعر حر ، الى شعر رمزى ، وقصصى ووصفى ، والى شعر علمى تبناه أبو شادى فى ديوانه « الكائن الثانى » الذى حاول أن يضمنه مسائل علمية ، وقال : ان ذلك تحول طبعى خصوصا بعد الرقى العلمى الذى وصل اليه الانسان ، وكذلك ديوانه « فوق العباب » ففيه قصائد تدور حول الشمس والأجرام السماوية والأفلاك .

ويحدثنا الدكتور طه حسين عن انطباعاته بعد أن قرأ ديوان « الملاح التائه » لعلى محمود طه فيقول(١) : « لقد صحبت الملاح التائه فى قصيدة سماها « الله والشاعر » فرأيت رجلا لا هو بالشاك المطمئن الى الشك ، ولا هو بالمستيقن المطمئن الى اليقين ، ولا هو بالمنكر المستريح الى الانكار ، وانما هو رجل مضطرب حقا ، مضطرب أشد الاضطراب ، يؤمن بالقضاء والقدر ، ثم يثور بالقضاء والقدر ، يرضى أحكام الله ثم يجادل فيها ، يشكو ثم يستسلم ، ويستسلم ثم يشكو ، رجل حائر دائر هائم لا يستطيع أن يستقر » .

ثم يقول : « ومن الكتاب من يقول ان شاعرنا تأثر بأبى العلاء ثم يضيق بهذا المتأثر . ولست أدرى أتأثر شاعرنا بأبى العلاء أم تأثر ببيرون !! أم تأثر بهما جميعا ، وبقوم آخرين غيرهما ؟ أم لم يتأثر بأحد ، وانما لقى من لقى من الشعراء والفلاسفة مصادفة وعلى غير قصد ولا عمد ، وأحس وأنا فى قصيدة أخرى سماها « غرقة الشاعر » روحا « لموسييه » ولكنى لا أدرى أهو روح الذى قرأ فتأثر ؟ أم هو روح الذى أحس فتألم ، فشكا ، فلقى « موسييه » فى هذا كله أو فى بعضه » .

وهذا الرأى من طه حسين ينطبق على معظم شعراء أبوللو ان لم يكونوا كلهم وقد أشرنا الى الأسباب التى أدت الى وجود هذا الطابع عند هؤلاء الشعراء والى مكوناتهم الأدبية واتجاهاتهم الفكرية والشعرية ، وانتهينا الى هذه الرؤية العامة عنهم وعن جماعتهم تأثيرا وتأثرا .

---

(١) حديث الأربعاء جـ ٣ ص ١٤٤ ـ ١٤٦ الطبعة التاسعة دار المعارف بمصر ١٩٧٤م ، وانظر أيضا « جماعة أبوللو وأثرها فى الشعر الحديث » لعبد العزيز الدسوقى ص ١٢٨ ، ١٣٣ ـ ١٣٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ـ ٣٩٢ ط أولى القاهرة جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦٠م ومعالم الأدب العربى المعاصر ص ٦١ ـ ٦٥ .

وعرفنا مواقفهم من التجديد • ومكانتهم بين مدرسة « المحافظين » ومدرسة « الديوان » ••• ولا أنكر أن الدراسات التى تناولت هذه الجماعة فى وجودهـا ، وبعد انفصـام عراها دراسات هامة وجادة ، ولكننى ما زلت أرى أن أبعادا كثيرة من مواقفهم الذووية والخيالية والواقعية والرومانسية وغيرها لم تأخذ حظها الكافى من الدرس والبحث والتحليـل والموازنة والربط بينها وبين غيرهـا من الشعر العربى فى القديم والحديث ••

* * *

أهم مصـادر البحث ومراجعـه

١ ـــ ابراهيم عبده (الدكتور) : تطور الصحافة المصرية واثرها فى النهضتين الفكرية والاجتماعية ـ مصر ١٩٤٤ .

٢ ـــ ابراهيم عبده (الدكتور) : تاريخ الوقائع المصرية ـ مصر ١٩٤٢ .

٣ ـــ ابراهيم عبده (الدكتور) أعلام الصحافة العربية ـ مصر ١٩٥٠ .

٤ ـــ ابراهيم عبد القادر المـازنى : الشعر غاياته ووسائله ـ مصر ١٩١٥ .

٥ ـــ ابراهيم عامر : الأرض والفلاح ـ مصر ١٩٥٨ .

٦ ـــ الأب لويس شيخو اليسوعى : تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ـ بيروت ١٩٢٦ .

٧ ـــ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (٦ أجزاء) ـ طبع دار صادر ـ بيروت ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ .

٨ ـــ ابن رشيق (أبو على الحسن بن رشيق القيروانى) : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده (جزءان) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٢ ط رابعة .

٩ ـــ أبو القاسم الشـابى : ديوان ط أولى ـ دار العودة ـ بيروت ١٩٧٢م .

١٠ ـــ أبو القاسم محمد البدرى : الشاعران المتشابهان . دار المعارف بمصر ـ بدون .

١١ ـــ أحمد أحمد بدوى (الدكتور) : رفاعة الطهطاوى ـ مصر ١٩٥٠م .

١٢ ـــ أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ط أولى ـ النهضة المصرية ١٩٤٨م .

١٣ ـــ أحمد أمين . بالاشتراك : قصة الأدب فى العالم ج ٣ ـ النهضة المصرية ١٩٥٩م .

١٤ ـــ أحمد أمين : فيض الخاطر (جزءان) ط رابعة ـ النهضة المصرية ١٩٤٠م .

١٥ ـــ أحمد تيمور : تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر ـ مصر ١٩٤٠م .

١٦ ـــ أحمد حسن الزيات : دفاع عن البلاغة . مطبعة الرسالة ١٩٤٥م .

١٧ ـــ أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربى ط الخامسة والعشرون ـ نهضة مصر ـ بدون .

١٨ ـــ أحمد خاكى : قاسم أمين ـ احياء الكتب العـربية ـ القاهـرة ١٩٤٤م .

١٩ ـــ أحمد رامى : ديوان رامى ط ثانية . الدار القومية للطباعة ١٩٦٥م .

٢٠ ـــ أحمد زكى أبو شادى (الدكتور) : الشفق الباكى ـ مصر ١٩٢٦م .
٢١ ـــ أحمد زكى أبو شادى (الدكتور) : شعر الوجدان ـ مصر ١٩٢٥م .
٢٢ ـــ أحمد زكى أبو شادى (الدكتور) : مختارات وحى العالم ـ مصر ١٩٢٨م .
٢٣ ـــ أحمد شفيق (باشا) : حوليات مصر السياسية الأولى ـ مصر ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) .
٢٤ ـــ أحمد شفيق (باشا) : حوليات مصر السياسية الثانية ـ مصر ١٣٤٦هـ (١٩٢٧م) .
٢٥ ـــ أحمد شفيق (باشا) : حوليات مصر السياسية الثالثة ـ مصر ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) .
٢٦ ـــ أحمد شفيق (باشا) : حوليات مصر السياسية الرابعة ـ مصر ١٣٤٨هـ (١٩٣٠م) .
٢٧ ـــ أحمد شفيق (باشا) : حوليات مصر السياسية الخامسة ـ مصر ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) .
٢٨ ـــ أحمد شفيق (باشا) حوليات مصر السياسية السادسة ـ مصر ١٣٤٩هـ (١٩٣١م) .
٢٩ ـــ أحمد شفيق (باشا) : حوليات مصر السياسية السابعة ـ مصر ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) .
٣٠ ـــ أحمد شفيق (باشا) : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ط أولى ـ مصر ١٣٥٤هـ (١٩٣٦م) .
٣١ ـــ أحمد شفيق (باشا) : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ط أولى ـ مصر ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) .
٣٢ ـــ أحمد شفيق (باشا) : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٣ ـ دار مجلتى للطبع والنشر ـ القاهرة ١٩٣٦م .
٣٣ ـــ أحمد شوقى (أمير الشعراء) : الشوقيات (٤ أجزاء) المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٧٠م .
٣٤ ـــ أحمد شوقى (أمير الشعراء) : مصرع كليوباترا ـ مصر ١٩٤٨م .
٣٥ ـــ أحمد عبيد : مشاهير شعراء العصر (جزءان) ـ مصر ١٩٢٢م .
٣٦ ـــ أحمد عرابى : مذكرات عرابى (جزءان) كتاب الهلال فبراير ، ومارس ١٩٥٣ م .
٣٧ ـــ أحمد عزت عبد الكريم (الدكتور) : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ـ مصر ١٩٣٨م .
٣٨ ـــ أحمد عزت عبد الكريم (الدكتور) : تاريخ التعليم فى عصر اسماعيل مصر ١٩٤٥م .
٣٩ ـــ أحمد لطفى السيد (باشا) : صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر ١٩٤٦م .

٤٠ ـــ اسحق موسى الحسينى (الدكتور) : النقد الأدبى المعاصر فى الربع الأول من القرن العشرين ـ مصر ١٩٦٧م ٠
٤١ ـــ أمين سعيد : تاريخ مصر السياسى (من الحملة الفرنسية الى انهيار الملكية) ط اولى ـ احياء الكتب العربية ٠ عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٣٧٨هـ (١٩٥٩م) ٠
٤٢ ـــ أمين سامى (باشا) : تاريخ التعليم فى مصر : مطبعة المعارف ١٩١٧م ٠
٤٣ ـــ أمين فكرى (باشا) : ارشاد الألبا الى محاسن أوربا ٠ مطبعة المقتطف ـ القاهرة ١٨٩٢م ٠
٤٤ ـــ أمين فكرى (باشا) : الآثار الفكرية ٠ طبع بولاق ـ القاهرة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) ٠
٤٥ ـــ أنور الجندى : الشعر العربى المعاصر ٠ تطوره وأعلامه من ١٨٧٥ـ ١٩٤٠م ـ دار المعرفة ـ القاهرة ٠ بدون ٠
٤٦ ـــ أنور الجندى : أضواء على الأدب العربى المعاصر ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) ٠
٤٧ ـــ أنيس خورى المقدسى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث (جزءان) ـ بيروت ١٩٥٢م ٠
٤٨ ـــ بيير رونوفى (أستاذ التاريخ الحديث بجامعة باريس) : تاريخ القرن العشرين تعريب الدكتور نور الدين حاطوم ط ثانية ـ مطبعة جامعة دمشق ـ ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م) ٠
٤٩ ـــ تشالى أوفر : الاسلام والتجديد فى مصر ٠ ترجمة عباس محمود العقاد ٠ مطبعة الاعتماد ـ القاهرة ١٩٣٥م ٠
٥٠ ـــ جمال الدين الشيال : رفاعة رافع الطهطاوى ـ مصر ١٩٤٥م ٠
٥١ ـــ جورج زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية (٤ أجزاء) مراجعة الدكتور شوقى ضيف ٠ دار الهلال ٠ بدون ٠
٥٢ ـــ حسين المرصفى : الوسيلة الأدبية (جزءان) ـ مصر ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) ٠
٥٣ ـــ حافظ ابراهيم : ديوان حافظ (جزءان) الناشر محمد أمين ـ بيروت ١٩٦٩م ٠
٥٤ ـــ حنا فاخورى : تاريخ الأدب العربى (جزءان) دار صادر ـ بيروت ١٩٥١م ٠
٥٥ ـــ خليل مطران : ديوان الخليل (٤ أجزاء) مطبعة الهلال بمصر ٠ ١٩٤٩م ٠
٥٦ ـــ خير الدين الزركلى : الأعلام جـ ٦ ، ٧ ، ٨ ط ثانية مطبعة كوستاتو بيروت ١٣٧٤هـ (١٩٥٥م) ٠

٥٧ ـــ رفاعة رافع الطهطاوى : تخليص الابريز فى تلخيص باريز . تحقيق مهدى علام وأحمد بدوى ، وانور لوقا . الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٥٩م .
٥٨ ـــ زكى مبارك (الدكتور) : الموازنة بين الشعراء . دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٦٨م .
٥٩ ـــ سامى الكيالى : الأدب العربى المعاصر فى سوريا (١٨٥٠ ـ ١٩٥٠) ط ثانية مكتبة الدراسات الأدبية ١٥ ـ دار المعارف بمصر ـ بدون .
٦٠ ـــ سليم حسن : مصر القديمة (١٠ أجزاء) ـ مصر ١٩٥٥م .
٦١ ـــ سليم خليل النقاش : مصر للمصريين ج ٥ مطبعة المحروسة بالاسكندرية ١٣٠٢هـ (١٨٨٢م) .
٦٢ ـــ سيد العنانى : عبد الله (باشا) فكرى حياته وآثاره ومكانته الأدبية .
٦٣ ـــ سيد قطب : النقد الأدبى : أصوله ومذاهبه ـ بيروت ١٩٦٥م .
٦٤ ـــ شوقى ضيف (الدكتور) : فصول فى الشعر ونقده . دار المعارف بمصر ١٩٧١م .
٦٥ ـــ شوقى ضيف (الدكتور) : الأدب العربى المعاصر فى مصر ط ثانية دار المعارف بمصر ١٩٦١م .
٦٦ ـــ شوقى ضيف (الدكتور) : البارودى رائد الشعر الحديث ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٤م .
٦٧ ـــ شوقى ضيف (الدكتور) : دراسات فى الشعر العربى المعاصر ط ثانية ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٩م .
٦٨ ـــ شوقى ضيف (الدكتور) : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ط ثانية دار لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م .
٦٩ ـــ شوقى ضيف (الدكتور) : ابن زيدون (نوابغ الفكر العربى رقم ٥) ط ثالثة ـ دار المعارف بمصر ـ بدون .
٧٠ ـــ صالح جودت : ابراهيم ناجى حياته وشعره . المجلس الأعلى للفنون والآداب ـ القاهرة ١٩٦٠م .
٧١ ـــ طه حسين (الدكتور) : فصول فى الأدب والنقد . نهضة مصر ١٩٤٥م .
٧٢ ـــ طه حسين (الدكتور) : من حديث الشعر والنثر ط تاسعة ـ دار المعارف ١٩٥٣م .
٧٣ ـــ طه حسين (الدكتور) : مستقبل الثقافة فى مصر . نهضة مصر ١٩٤٨م .
٧٤ ـــ طه حسين (الدكتور) : حافظ وشوقى . دار البحوث العلمية ـ الكويت ١٩٦٤م .

٧٥ ـــ طه حسين (الدكتور) تجديد ذكرى أبى العلاء . دار المعارف بمصر ١٩٦٣م .
٧٦ ـــ طه حسين (الدكتور) : من أدبنا المعاصر . مصر ١٩٥٩م .
٧٧ ـــ طه حسين (الدكتور) : حديث الأربعاء جـ ١ ط عاشرة ـ دار المعارف ١٩٧٣م .
٧٨ ـــ طه حسين (الدكتور) : حديث الأربعاء جـ ٢ (ط ١١) دار المعارف بمصر ١٩٧٤م .
٧٩ ـــ طه حسين (الدكتور) : حديث الأربعاء جـ ٣ (ط ٩) دار المعارف ١٩٧٤م .
٨٠ ـــ عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (٤ أجزاء) دار الفارس ـ بيروت ١٩٧٠م .
٨١ ـــ عبد الرحمن الرافعى : شعراء الوطنية ط أولى ـ النهضة المصرية ١٣٧٣هـ (١٩٥٤م) .
٨٢ ـــ عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ـ النهضة المصرية ١٩٣٧م .
٨٣ ـــ عبد الرحمن الرافعى : مصر فى عصر اسماعيل (جزءان) النهضة المصرية ١٩٤٦م .
٨٤ ـــ عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ط رابعة ـ النهضة المصرية ١٩٦٢م .
٨٥ ـــ عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد ط ثانية النهضة المصرية ١٩٦٢م .
٨٦ ـــ عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية (جزءان) ـ النهضة المصرية ١٩٥٩م .
٨٧ ـــ عبد الرحمن الرافعى : عرابى الزعيم الثائر (كتاب الهلال) دار الهلال ١٩٥٢م .
٨٨ ـــ عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩م (جزءان) مؤسسة دار الشعب ـ مصر ١٩٦٨م .
٨٩ ـــ عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ـ مطبعة الفكرة ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) .
٩٠ ـــ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية (جزءان) مطابع الشعب ١٩٦٨م .
٩١ ـــ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية جـ ٣ ـ مصر ١٩٤٠م .
٩٢ ـــ عبد الرحمن الرافعى : جمال الدين الأفغانى (أعلام العرب ٦١) ١٩٧٢م .

٩٣ ـــ عبد الرحمن عثمان : فى الأدب المعاصر ـ مصر ١٩٦٨م ٠
٩٤ ـــ عبد الرحمن عثمان : معالم النقد الأدبى ج ١ مطبعة المدنى بالقاهرة ١٩٦٠م ٠
٩٥ ـــ عبد الرحمن شكرى : ديوان عبد الرحمن شكرى طبع مساء المعارف بالاسكندرية ١٩٢١م ٠
٩٦ ـــ عبد الحى دياب : عباس العقاد ناقدا . مطابع الشعب ١٩٧٠م .
٩٧ ـــ عبد الحى دياب : فصول فى النقد الأدبى الحديث : الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٦٥م ٠
٩٨ ـــ عبد العزيز الدسوقى (الدكتور) : جماعة ابوللو وأثرها فى الشعر الحديث (جزءان) ط أولى ـ مصر ١٩٦٠م .
٩٩ ـــ عبد الكريم رافق (الدكتور) : بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى الى حملة نابليون ـ دمشق ١٩٦٨م .
١٠٠ ـــ عبد اللطيف حمزة (الدكتور) : الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية الى مجىء الحملة الفرنسية ـ النهضة المصرية ـ بدون تاريخ ٠
١٠١ ـــ عبد اللطيف حمزة (الدكتور) : القلقشندى (أعلام العرب ١٢) القاهرة ١٩٦٢م ٠
١٠٢ ـــ عبد اللطيف حمزة (الدكتور) : أدب المقالة الصحفية فى مصر (جزءان) ط أولى ـ دار الفكر القاهرة ١٩٥٩م ٠
١٠٣ ـــ عبد اللطيف حمزة (الدكتور) : الصحافة والأدب فى مصر ط أولى القاهرة ١٩٥٥م ٠
١٠٤ ـــ عبد اللطيف حمزة (الدكتور) : الصحافة المصرية فى مائة عام ٠ المكتبة الثقافية ١٤ ـ بدون تاريخ .
١٠٥ ـــ عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ٠ كتاب الهلال عدد ٢٥٢ ـ ١٣٩١هـ (١٩٧٢م) ٠
١٠٦ ـــ عباس محمود العقاد : يسألونك ط ثانية ـ بيروت ١٩٦٨م ٠
١٠٧ ـــ عباس محمود العقاد : ديوان العقاد : مطبعة وحدة الصيانة والانتاج ـ أسوان ١٩٦٧م ٠
١٠٨ ـــ عباس محمود العقاد : الفصول ـ مصر ١٩٤٢م ٠
١٠٩ ـــ عباس محمود العقاد : بعد الأعاصير . دار المعارف بمصر ١٩٥٠م ٠
١١٠ ـــ عباس محمود العقاد : سعد زغلول ـ مصر ١٩٣٦م ٠
١١١ ـــ عباس محمود العقاد : ساعات بين الكتب (جزءان) ط ثانية دار الكتاب العربى ـ بيروت ١٩٦٩م ٠
١١٢ ـــ عباس محمود العقاد والمازنى : الديوان ط ثالثة ٠ مطابع الشعب بالقاهرة ٠ بدون تاريخ .

١١٣ ـــ عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده . الأنجلو المصرية ١٩٦٦م .
١١٤ ـــ عثمان أمين : الفكر المعاصر : الأنجلو المصرية ١٩٥٥م .
١١٥ ـــ عمر الدسوقى : البارودى ـ دار المعارف ١٩٥٣م .
١١٦ ـــ عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث (جزءان) دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٧٠م .
١١٧ ـــ عامر العقاد : لمحات من حياة العقاد . مؤسسة الشعب ١٩٦٨م .
١١٨ ـــ على الغاياتى : ديوان وطنيتى ـ ط ثالثة ـ منبر الشرق ١٩٤٧م .
١١٩ ـــ على محمد الحديدى (الدكتور) : عبد الله النديم خطيب الوطنية (أعلام العرب ٩) مصر ١٩٦٢م .
١٢٠ ـــ على محمد الحديدى (الدكتور) : محمود سامى البارودى ـ مصر ١٩٦٧م .
١٢١ ـــ فتحى رضوان : عصر ورجال ط أولى ـ الأنجلو المصرية ١٩٦٧م .
١٢٢ ـــ فاروق سعد : باقات من حدائق مى ـ منشورات زهير بعلبكى ط أولى ـ بيروت ١٩٧٣م .
١٢٣ ـــ فيكونت فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية (جزءان) ـ بيروت ١٩١٣م .
١٢٤ ـــ قاسم أمين : كلمات لقاسم أمين . مطبعة الجريدة بمصر ١٩٠٨م .
١٢٥ ـــ القلقشندى (أحمد بن على بن أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا (٤ أجزاء) تراثنا ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٣٦٣هـ (١٩٦٤م) .
١٢٦ ـــ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية . ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ط خامسة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨م .
١٢٧ ـــ كارل بروكلمان : الاسلام فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى ط خامسة ـ بيروت دار العلم للملايين ١٩٦٨م .
١٢٨ ـــ كمال نشأت (الدكتور) : أبو شادى وحركة التجديد فى الشعر العربى . الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٦٧م .
١٢٩ ـــ لوثروب ستودار الأمريكى : حاضر العالم الاسلامى (٤ أجزاء) ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب أرسلان ط ثالثة . دار الفكر ـ بيروت ١٣٩١هـ (١٩٧١م) .
١٣٠ ـــ مجد الدين حفنى ناصف : شعر حفنى ناصف تقديم طه حسين ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٧م .

محتويات الكتاب

الصفحة

مقـــدمة ٣

تعـــريف ٥

الفصل الأول : أدوار الكفاح

(٧ ـ ٥١)

١ ـ الشعر والأدب قبيل الحملة الفرنسية ٧

٢ ـ بعـد الحملة الفرنسية ١١

٣ ـ صور من صمود الشعب المصرى ١٣

٤ ـ الشعر والأدب فى عصر محمد على ٢٢

٥ ـ الشـعر والأدب فى عصر اسـماعيل ٢٩

٦ ـ جيل التحــدى والصمــود ٣٩

الفصل الثانى : بواعث النهضة وعواملها

(٥٢ ـ ٩٠)

١ ـ رائد الشـعر الحديث ٥٨

٢ ـ الركون الى العامية ودوافعه الثقافية والسـياسية . . ٦٤

٣ ـ الاحتلال والاستقلال ٨١

الفصل الثالث : الأدب والثقافات الوافدة

(٩١ ـ ١٤٨)

١ ـ أثر الثقافتين الفرنسية والانجليزية على الأدب فى مصر . . ٩١

٢ ـ محاولات فاشلة للقضـاء على اللغة العربية . . . ١٠١

٣ ـ الحركات الوطنية والأدب والشـعر ١٠٦

٤ ـ موقف الشـعراء بعد ثورة ١٩١٩ . . . . ١٣٢

٥ ـ نشر التراث ـ أسبابه ونتائجه ١٤٠

الفصل الرابع : العوامل المؤثرة فى الأدب

(١٤٩ ـ ١٧٦)

١ ـ عوامل سياسية وطنية وقومية ١٥٤

٢ ـ عوامـل اقتصـــادية ١٦٣

٣ ـ عوامـل اجتماعيـــة ١٦٦

٤ ـ عوامـــل ثقافيـــة ١٦٩

الفصل الخامس : التقليد والتجديد وأثرهما الفنى
(١٧٧ ـ ٢٢٨)

الصفحة

١ ـ التقليـــــد ١٧٧
٢ ـ التجـــــديد ١٨٢
(أ) مدرســـة المحافظين ١٩٩
(ب) جيل المذهب الجديد فى الشعر ٢٠٨
(جـ) جماعة أبوللو ٢٢٠
محتـــويات الكتـــاب ٢٣٧

رقم الايداع : ١٥٣٤ / ٨٢

الترقيم الدولى : ٠ ــ ٣٥ ــ ٧٣٣٥ ــ ١٩٧٧

مطابع دار التراث العربى
ت ٩٣٦١٤٥ - القاهرة